G I L A D   A T Z M O N

POLITICS • THOUGHT

جلعاد عتسمون

من التائه؟

دراسة في سياسة الهويّة اليهوديّة

علي مولا

ترجمة: حزامة حبايب

من التائه؟ دراسة في سياسة الهويّة اليهوديّة

هذه هي الترجمة العربيّة الكاملة لكتاب:
THE WANDERING WHO
A Study of Jewish Identity Politics
© Gilad Atzmon
Zero Books (2011)

من التائه؟ دراسة في سياسة الهويّة اليهوديّة / فكر ـ سياسة
جلعاد عتسمون / مؤلّف من بريطانيا
ترجمه عن الإنجليزيّة: حزامة حبايب / مترجمة من فلسطين

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة
صندوق منحة معرض الشارقة
الدولي للكتاب للترجمة والحقوق

الطبعة الأولى ، 2012
حقوق الطبع محفوظة ©

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب 5460-11 ، هاتفاكس : 751438 / 752308 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب: 9157، عمّان 11191 ـ الأردنّ،
هاتف 5605431 6 00962 / 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الإلكترونيّ: www.airpbooks.com
الإشراف الفنّي وتصميم الغلاف : ®
عمّان ☎ 95297109 7 00962
خطوط الغلاف : زهير أبو شايب
الصفّ الضوئيّ : المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in any retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

التنفيذ الطباعيّ : ديمو برس / بيروت ، لبنان

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر .

ISBN 978-614-419-156-9

POLITICS + THOUGHT

جلعاد عتسمون

من التائه؟

دراسة في سياسة الهويّة اليهوديّة

ترجمة: حزامة حبايب

قالوا عن «من التائه؟»

«يقدِّم جلعاد عتسمون سرداً شائقاً وآسراً لرحلته من قومي إسرائيلي متطرِّف إلى مواطن للإنسانية تجرَّد من الصهيونية ، وبات مدافعاً متحمِّساً عن العدالة من أجل الشعب الفلسطيني . إنها قصّة تحوّل يرويها بنزاهة مطلقة ، بحيث يتعيّن على كلّ أولئك (خصوصاً اليهود) المهتمّين بالسلام ، والمعنيّين بهويّتهم الخاصة ، ألا يقرؤوا الكتاب فحسب ، وإنما يتأمّلونه ويناقشونه على نحو واسع .»

البروفيسور ريتشارد فوك ، أستاذ القانون الدولي المتقاعد ، جامعة برنستون ، له أكثر من ٢٠ مؤلَّفاً ، وهو مقرِّر الأمم المتحدة الخاص حول حقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينية المحتلَّة .

«وضع جلعاد عتسمون كتاباً رائعاً ومحرِّضاً عن الهوية اليهودية في العالم الحديث ؛ حيث يُظهر كيف أنّ الاندماج والليبرالية يجعلان من الصعب ، بصورة متزايدة ، على اليهود في الدياسبورا (الشتات) المحافظة على حسّ قوي بـ يهوديّتهم . ويجادل بأن الزعماء اليهود المذعورين قد تحوّلوا إلى الصهيونية (الولاء الأعمى لإسرائيل) ، ونشر الخوف (من خطر ارتكاب هولوكوست أخرى) وذلك للإبقاء على القبيلة موحَّدة ونائية عن الأغيار المحيطين بهم . وكما تبيِّن حجّة عتسمون ، فإن هذه الاستراتيجية فاشلة ، حيث تسبِّب الألم للعديد من اليهود . كتاب من التائه؟ يجب أن يُقرأ من قبل اليهود وغير اليهود على حدٍّ سواء .»

جون ميرشايمر ، أستاذ العلوم السياسية في جامعة شيكاغو ، بالولايات المتحدة .

«من التائه؟ لجلعاد عتسمون عبارة عن سلسلة من الإضاءات اللمّاحة

والتأمّلات النقدية حول المركزية الإثنية اليهودية ، ونفاق أولئك الذين يتحدثون باسم القيم العالمية ويتصرفون على نحو قَبَليّ . من خلال الاعتماد على الخبرة الحياتية الذاتية والخبرة الوجودية ، بالإضافة إلى الملاحظات الأساسية الخاصة بالحياة اليومية ، المعزَّزة بتصوّرات نفسية عميقة ، ينجح عتسمون في القيام بما فشل فيه العديد من نقّاد إسرائيل ؛ إذ يميطُ اللثامَ عن الصلة بين سياسة الهوية اليهودية في الدياسبورا (الشتات) والتأييد المتحمِّس للسياسات القمعية التي ترتكبها الدولة الإسرائيلية .

يطرح عتسمون رؤى وأفكاراً بالغة العمق فيما يتعلق بسياسة الغيتو الجديد ؛ إذ يتحلّى بالشجاعة – التي يفتقر إليها المفكرون الغربيّون بشدّة – كي يقول الحقيقة في وجه الصهاينة الكثُر ، ذوي المكانة المرموقة ، ممّن يصوغون أجندات الحرب والسلام في العالم الناطق بالإنجليزية . إن مواجهة عتسمون المشبوبة بالحماسة ، والتي لا تخلو من فطنة وسعة خيال ، مع المحافظين الجدد الساعين إلى انتزاع السلطة والليبراليين ، الذين يهزّون رؤوسهم بـ«نعم» ، خاضعين لكل ما يُملى عليهم ، لَتجعل هذا الكتاب يتميّز عن غيره لما يقدِّمه من فهم أصيل للمخاطر المترتّبة على العقول المنغلقة التي تملك النفوذ في دوائر السلطة .

يعدّ هذا الكتاب أكثر من دراسة في سياسة الهوية اليهودية ، من حيث إننا نتعامل مع إطار من النفوذ الذي يؤثر على كل الذين يقدِّسون حق تقرير المصير والحرية الشخصية في وجه الإملاءات الإمبريالية والاستعمارية .»

البروفيسور جيمس بتراس ، أستاذ علم الاجتماع في جامعة بينغهامتون ، بنيويورك ، له أكثر من ٦٢ كتاباً ، من بينها **نفوذ إسرائيل في الولايات المتحدة** .

«كتاب من التائه؟ لجلعاد عتسمون عمل بارع ومحفِّز للفكر على غرار عنوانه . وهو كتاب مهم أيضاً ؛ إذ يقدِّم استنتاجاتٍ بشأن اليهود واليهودية والديانة اليهودية ، والتي قد يراها البعض صادمة ، لكنها تعتبر ضرورية لفهم

سياسة الهوية الإسرائيلية والدور الذي تلعبه على المسرح العالمي .»

كارل صباغ ، صحفي ومنتج تلفزيوني ومؤلف العديد من الكتب ، من بينها **قضية رَم** ؛ **وتحويل محطة توليد الطاقة إلى متحف فني** ؛ **وأصفار الدكتور رايمان** ، **وفلسطين : تاريخ شخصي** . وهو حالياً ناشر دار «هسبريس بريس» .

«تثير رؤية عتسمون بشأن النظام الذي أوجدته الحركة الصهيونية جدلاً هائلاً . يمزِّق كتاب **من التائه؟** الحجاب عن الكياسة الظاهرية لإسرائيل ، وصداقتها الظاهرية مع الولايات المتحدة ، واهتمامها المفرط والصريح بالقوى الغربية ، حيث يفضح القاتلَ الكامنَ فيها والمستعد للفتك بأي شيء وكل شيء يتعارض مع غاياتها الموجَّهة قبلياً .»

البروفيسور ويليام كوك ، أستاذ اللغة الإنجليزية في جامعة لا فيرن في جنوبي كاليفورنيا ، ومؤلف كتاب **اغتصاب فلسطين** .

«يقدم من التائه؟ جلعاد عتسمون في أكثر حالاته تألقاً ونفاذ بصيرة : إنه آسر ، ومثير ، ومقنع .»

جيف غيتس ، مؤلف كتاب **الذنب من خلال الاشتراك : كيف قاد الخداع وخداع الذات أميركا إلى الحرب** .

«من التائه؟ كتاب رائد من نوعه ، يستحق أن يُقرأ ، وجلعاد عتسمون يتحلى بالشجاعة لأنه ألّف هذا الكتاب!»

د . سمير عبدربه ، مؤلف وأستاذ متقاعد في حقل القانون الدولي ، مدير مركز الدراسات العربية والإسلامية في براتلبورو ، في ولاية فيرمونت بالولايات المتحدة ، وهو العميد السابق لكلية القدس للقانون والدبلوماسية .

المحتويات

مدخل ١٣

الهوية مقابل التماهي ٢٩

الفصل ١ الحقّ في التوضيح ٣١

الفصل ٢ انكماش ائتماني أم لكمة صهيونية ٤٣

الفصل ٣ الصهيونية وأفكار هامشية أخرى ٥٥

الفصل ٤ الصابرا والمستوطن ويهودي الدياسبورا ٧٣

الفصل ٥ فاغن مقابل آينشتاين ٧٩

الفصل ٦ فكِّر قبليّاً وتحدَّث عالميّاً ٨٧

الفصل ٧ ديالكتيك النفي ٩٣

اللاوعي هو خطاب الغوييم ١٠٣

الفصل ٨ مئة عام من العزلة اليهودية ١٠٥

الفصل ٩ اللاوعي اليهودي هو خطاب الغوييم ١٢٥

الفصل ١٠ اليهودي الصالح ١٣١

الفصل ١١ الجنس ومعاداة السامية ١٣٧

الفصل ١٢ إرتس يسرائيل مقابل الغالوت ١٤٧

الفصل ١٣ حق تقرير المصير : تمرين زائف في العالمية ١٥٧

الفصل ١٤ استحضار ميلتون فريدمان ١٦٧

الفصل ١٥ قائمة المُحتال ١٧٩

التاريخانيّة والوقائع مقابل الخيال والوهم ١٨٥

١٨٧

الفصل ١٦ ملكة الصدمة ١٩٧
الفصل ١٧ من التائه؟ ٢١٣
الفصل ١٨ من البوريم إلى أيباك ٢٢٩
الفصل ١٩ سفر أستير
٢٤١
الوصل بين النقاط ٢٤٣
الفصل ٢٠ التبرعات ومراكز الأبحاث والمؤسسات الإعلامية ٢٤٩
الفصل ٢١ الحقيقة والتاريخ والنزاهة ٢٥٥
الفصل ٢٢ الوجود في الزمن
٢٦٥
خاتمة ٢٧٥
شكر وتقدير

«لقد جعلني النازيّون أخشى أنْ أكون يهودياً ، وجعلني الإسرائيليون أشعرُ بالخزي لكوني يهودياً .»

إسرائيل شاحاك

مدخل

كان جَدّي شخصاً كاريزمياً شاعرياً ، إرهابياً صهيونياً مُخضرماً . وبوصفه قائداً بارزاً سابقاً في منظمة الإرغون[1] اليمينية الإرهابية ، يجب أن أعترف بأنه كان له تأثيرٌ هائلٌ عليّ في سني نشأتي الأولى . لقد أظهر ازدراءبالغاً لأي شيء ليس يهودياً ؛ فكَرِهَ الألمان ، ولم يسمح بالتالي لوالدي بأن يشتري سيارةً ألمانيةَ الصنع . كما احتقر البريطانيين لأنهم استعمروا «أرضه الموعودة» . بيد أنني أعتقد أنه لم يزدرِ البريطانيين بالدرجة ذاتها التي ازدرى فيها الألمان ، ذلك أنه سمح لوالدي بقيادة سيارة قديمة من طراز ڤوكسهول ڤيڤا ، إنجليزية الصنع .

كذلك ، كان جَدّي شديد الغضب من الفلسطينيين الذين يعيشون على الأرض التي كان واثقاً أنها تنتمي له ولشعبه . وغالباً ما كان يتساءل : «هؤلاء العرب لديهم دولٌ كثيرة ، فلماذا يجب أن يعيشوا على الأرض ذاتها التي وهبها الله لنا؟» على أن جدّي كرِهَ اليساريين اليهود أكثر من أي شيء . هنا من المهم الإشارة إلى أنه بما أن اليساريين اليهود لم يصنعوا سيارةً من طراز معروف ، فإنّ

(١) إرغون أو «المنظمة العسكرية القومية في أرض إسرائيل» كما تعرف ، هي تكتل أو مجموعة ذات طابع عسكري ، نفّذت عمليات إرهابية في فلسطين إبان الانتداب البريطاني بين الأعوام ١٩٣٦-١٩٤٨ ، من بينها تفجير فندق الملك داوود في القدس في ٢٢ يوليو/تموز ١٩٤٦ ، ومذبحة دير ياسين ، التي نفذتها بالتعاون والتنسيق مع عصابة شتيرن الصهيونية الإجرامية ، وذلك في ٩ إبريل/نيسان ١٩٤٨ . التحق أعضاء منظمة الإرغون في الجيش الإسرائيلي في الحرب التي خاضتها إسرائيل ضد الجيوش العربية عام ١٩٤٨ . (المترجمة)

هذه الكراهية تحديداً لم تتطور إلى صراع مصالح بينه وبين أبي .

ولأن جدي كان من أتباع زئيف جابوتنسكي ، اليميني الصهيوني «التصحيحي»[1] ، فمن الواضح أنه أدرك أن الفلسفة اليسارية بجانب أي شكل من أشكال منظومة القيم اليهودية أمرٌ ينطوي على تناقض . وباعتباره إرهابياً يميناً مخضرماً و«صقراً» يهودياً معتدّاً بذاته ، عرف تماماً أن القبَلية لا يمكن أن تعيش بسلام مع الإنسانية والكونيّة . وحيث إنه تشرّب مبادئ معلّمه ومرشده جابوتنسكي ، فقد آمن بفلسفة «الجدار الحديدي» . وعلى غرار جابوتنسكي ، احترم جدّي الشعب العربي ، مُظهِراً تقديراً لثقافتهم وديانتهم ، إلا أنه آمن أنه لا بدّ من مواجهة العرب عموماً ، والفلسطينيين خصوصاً ، بجسارةٍ وضراوة .

مستشهداً بنشيد الحركة السياسية لجابوتنسكي[2] ، لطالما كانَ جدّي يردّد :

من حفرة العفن والتراب
بالدم والعرق
سوف ينهضُ لنا عرقٌ
فخورٌ وكريمٌ وعنيف

لقد آمن جدّي بإحياء فَخار «العِرْق اليهودي» ، وهو ما آمنتُ به أيضاً في

---

(١) فلاديمير زئيف جابوتنسكي هو مؤسس «الحركة الصهيونية التصحيحيّة» ، وهو كاتب وخطيب وجندي . ولا يزال إرث جابوتنسكي مستمراً من خلال حزب «حيروت» اليميني في إسرائيل (الذي اندمج مع أحزاب يمينية أخرى لتشكيل حزب «ليكود» اليميني في العام ١٩٧٣) ، وكذلك من خلال حركة «بيتار» الصهيونية للشبيبة .

(٢) النشيد الخاص بحركة «بيتار» الصهيونية للشبيبة . وكان جابوتنسكي (١٨٨٠- ١٩٤٠) قد أسس هذه الحركة في ريغا ، لاتفيا ، عام ١٩٢٣ ، وهي حركة صهيونية فاشية ، اقترنت بحزب حيروت اليميني ومن ثم حزب ليكود ، ولقد «أنجبت» هذه الحركة مجموعة من أبرز قادة الكيان الإسرائيلي الذين كانوا «بيتاريين» مخلصين في شبابهم من أمثال رئيسي الوزراء السابقين : إسحاق شامير ومناحيم بيغن . (المترجمة)

نشأتي الأولى . على غرار أقراني ، لم أرَ الفلسطينيين من حولي . لكنهم قطعاً كانوا هناك – فقد أصلحوا سيارة والدي لقاء نصف الثمن ، كما شيَّدوا منازلنا ، وأزالوا الفوضى التي خلّفناها وراءنا ، وحملوا الصناديق في محل بيع الأطعمة في الجوار ، لكنهم دائماً ما كانوا يختفون قبل غروب الشمس مباشرةً ، ليظهروا ثانيةً قبل الفجر . لم نخالطهم أبداً ، ولم نفهم حقاً من هم وما الذي يمثّلونه . لقد كان التفوّق مغروساً في أرواحنا ، وكنّا ننظر إلى العالم من خلال منظار شوفيني عنصري ، من دون أن نشعر بالخزي إزاء ذلك أيضاً .

في السابعة عشرة من عمري ، كنتُ أستعدُّ لأداء الخدمة العسكرية الإلزامية في الجيش الإسرائيلي . ولمّا كنتُ مراهقاً قويّ البنية مفعماً بالحماسة العسكرية ، كان من المقرّر أن ألتحق بوحدة إنقاذ خاصة تابعة لسلاح الجو . لكن حدث ما هو غير متوقَّع . ففي برنامج لموسيقى الجاز كان يُبثّ في وقت متأخر في إحدى الليالي ، استمعتُ إلى مقطوعاتٍ من ألبوم بيرْد[١] الذي يحمل الاسم «تشارلي باركر وِذْ سْتْرينغز»[٢] .

ذُهِلْت . كانت الموسيقى أكثر عضويةً وشاعريةً ووجدانيّة ، وأكثر جموحاً من أي شيء آخر سمعتُه في حياتي . اعتاد والدي الاستماع إلى بيني غودمان[٣]

---

(١) تشارلي باركر : (١٩٢٠–١٩٥٥) ، موسيقي أميركي أسود وعازف جاز على آلة الساكسفون ، اشتهر باسم «بيرد» أو «ياردبيرد» ، يعد من أشهر موسيقيي الجاز في العالم وأكثرهم تأثيراً في مجاله . (المترجمة)

(٢) «تشارلي باركر وِذ سترينغز» Charlie Parker with Strings : ألبوم موسيقي لتشارلي باركر ، يضم مقطوعات جاز على الساكسفون بمصاحبة آلات وترية من عائلة الكمان . (المترجمة)

(٣) بنجامين ديفيد «بيني» غودمان : (١٩٠٩–١٩٨٦) ، أميركي يهودي ، عازف موسيقى جاز وسوينغ ، اشتهر بلقب «ملك السوينغ» ، وكان قائد فرقة موسيقية ، ويعزف على آلة الكلارينت . (المترجمة)

وآرتي شو[1] ، وكلاهما موسيقي بارع يجيد العزف بالتأكيد على الكلارينِت ، لكن بيرْد كان حكاية أخرى مختلفة تماماً . فها هنا موسيقى استثنائية ، حادّة ، حسيّة ، تفيض طاقةً وتعبيراً . صبيحة اليوم التالي تخلّفتُ عن الذهاب إلى المدرسة ، وتوجهتُ إلى «تسجيلات بيكاديلي» ، محلّ التسجيلات الموسيقية الأفضل في القدس . عثرتُ على قسم موسيقى الجاز ، واشتريت كل ما لديهم من تسجيلات «بيبوب»[2] ، التي لم تتجاوز الألبومين ربما . في الطريق إلى البيت على متن الحافلة ، أدركتُ أن باركر رجل أسود فعلياً ، وهو أمر لم يفاجئني تماماً ، لكنه كان نوعاً من الكشْف . ففي عالمي ، اليهود فقط هم الذين لهم علاقة بأي شيء جيد ، لذا شكّل بيرْد بداية رحلة .

في ذلك الوقت ، كنّا ، أقراني وأنا ، مقتنعين بأنّ اليهود هم حقاً الشعب المختار . لقد نشأ جيلي على النصر السحري لحرب الأيام الستة . كنّا واثقين تماماً من أنفسنا . ولأننا علمانيون ، ربطنا كلَّ نجاح بخصائصنا كليّة القدرة . لم نؤمن بالتدخّل الإلهي ، لكننا آمنّا بأنفسنا . لقد آمنّا أنّ قوّتنا نابعةٌ من الأرواح والأجساد العبرية التي تمّ بعثُها . من جانبهم ، كان الفلسطينيون يخدموننا طائعين صاغرين ، ولم يبدُ في حينه أن هذا الوضع قد يتغيّر ؛ إذ لم يُظهروا إشاراتٍ حقيقيةً على المقاومة الجماعية . ولقد عزّزت الهجماتُ «الإرهابية» المزعومة ، التي يشنّونها بصورة متفرِّقة ، شعورَنا بأننا محقّون أخلاقياً ، وجعلتْنا توّاقين للانتقام . بيد أنّه على نحو ما ، وسط هذه العربدة للقوّة المطلقة ، ولدهشتي البالغة ، أدركتُ أن الناس الذين كانوا يثيرونني أكثر من غيرهم هم

(١) آرثر جيكوب آرشوفسكي : (١٩٠١-٢٠٠٤) ، عرف باسم «آرتي شو» ، وهو أميركي يهودي ، عازف موسيقى جاز على آلة الكلارينت ، وقائد فرقة موسيقية . (المترجمة)

(٢) «بيبوب» Bebop : نمط من موسيقى الجاز يمتاز بالسرعة في الإيقاع والبراعة الفنية والتقنيّة في العزف والارتجال ، بات مقترناً بموسيقى الجاز الحديثة . (المترجمة)

فعلياً حفنة أميركيين سود - أناس لا علاقة لهم بالمعجزة الصهيونية أو بقبيلتي الإقصائية الشوفينية .

بعد يومين ، حصلتُ على أول ساكسفون لي . وهي آلة من السهل البدء بالعزف عليها - ولكم في بيل كلينتون (الرئيس الأميركي السابق) خير مثال - لكن تعلُّم العزف مثل بيرْد أو كانُنْبول أدَرْلي[١] بدا مهمةً مستحيلة . بدأت أتدرّب ليل نهار ، وكلمّا تدرّبتُ ، أُخِذتُ أكثر بالمنجز الهائل لتلك العائلة العظيمة من الموسيقيين الأميركيين السود الذين بدأتُ أعرفهم عن قرب . ففي غضون شهر ، تعرفت إلى سوني رولينز ، وجو هندرسون ، وهانك موبلي ، وثيلونيوس مونك ، وأوسكار بيترسون ودوك إلينغتون[٢] ، وكلما استمعتُ أكثر ، أدركتُ أن تنشئتي المتمحورة حول اليهودية كانت ، بصورة ما ، مضلِّلة تماماً .

بعد شهر ظلَّ الساكسفون خلاله محشوراً في فمي ، تلاشت حماستي للقتال العسكري تماماً . وبدلاً من قيادة طائرات الهليكوبتر خلف صفوف العدوّ ، بدأتُ أحلم بالعيش في نيويورك أو لندن أو باريس . كل ما أردته هو أن أستمع لعظماء الجاز يقدِّمون عزفاً حيّاً ، إذ كان ذلك في أواخر سبعينات القرن الماضي وقسم كبير منهم كانوا لا يزالون في الجوار .

في الوقت الراهن ، يسعى الشباب الذين يريدون عزف الجاز إلى الالتحاق بكليّة موسيقى . لكن الوضع كان مختلفاً جداً في أيامي . فأولئك الذين يريدون تعلم الموسيقى الكلاسيكية كانوا ينضمون إلى معهد موسيقي ، أما أولئك الذين يريدون العزف فقط من أجل الموسيقى نفسها فكانوا يظلون في بيوتهم ، ويعزفون على مدار الساعة ، متلمّسين الإيقاع بحدسهم . لم يكن ثمة تعليم لموسيقى

---

(١) جوليان إدوين «كانُنْبول» أدَرْلي : (١٩٢٨-١٩٧٥) ، عازف جاز على الألتو ساكسفون ، تخصص في الـ«هارد بوب» (وهو نمط من موسيقى الجاز يعدّ امتداداً للـ«بيبوب») في حقبة الخمسينات والستينات من القرن الماضي . (المترجمة)

(٢) هؤلاء كلهم موسيقيون وعازفو جاز أميركيون سود . (المترجمة)

الجاز في إسرائيل آنذاك ، وكان في القدس ، بلدتي ، نادٍ واحد صغير للجاز ، كائنٌ في حمام تركي قديم آسر تم تحويله لهذا الغرض . كان النادي ، في ظهيرة كل يوم جمعة ، يستضيف جلسةَ عزفٍ مُرتجلة لموسيقى الجاز ، وخلال أول عامين لي مع الجاز ، شكّلت جلساتُ العزف هذه جوهرَ حياتي . لقد توقفتُ عن القيام بأي شيء آخر . كنتُ فقط أتدرّب ، طيلة الليل والنهار ، بل حتى وأنا نائم ، وأحضِّر نفسي لـ«جمعة الجاز» المقبلة ؛ مستمعاً إلى الموسيقى ، ومترجِماً - بطريقتي - مجموعة من روائع المقطوعات المنفردة . كنتُ أتدرّب أثناء نومي ، متخيِّلاً تبدّل النغمات ، ومتنقلاً فيما بينها . لقد قررتُ أن أكرِّس حياتي للجاز ، متقبِّلاً الحقيقة بأن فرص بلوغي القمة ، كإسرائيلي أبيض ، قد تكون ضئيلةً نوعاً ما .

لم أكن قد أدركتُ بعد أنّ ولعي المتنامي بالجاز قد تغلّب على ميولي القوميّة اليهودية ؛ وأنني عندئذٍ ربما قد أكون تخلّيتُ عن مفهوم أننا «مختارون» كي أصبح إنساناً عادياً . وبعد سنوات ، اكتشفتُ فعلياً أن الجاز كان طريقي للنجاة .

وفي غضون أشهر ، بدأتُ أشعر بأنني أقل ارتباطاً بالواقع المحيط بي ، حيث رأيتُ نفسي جزءاً من عائلة أكبر وأشمل بكثير ، عائلة من عشّاق الموسيقى ، كأناس رائعين معنيّين بالجمال والروح ، بدلاً من الأرض والجشع والاحتلال .

على أنني كنتُ ما زلتُ مضطراً للالتحاق بالجيش الإسرائيلي . وعلى الرغم من أن أجيالاً لاحقة من موسيقيّي الجاز الإسرائيليين الشباب هربوا من الجيش ببساطة ، فارّين إلى نيويورك ، قِبلة الجاز ، فإن مثل هذا الخيار لم يكن متاحاً لي ، بوصفي فتى شاباً ينحدر من أصول صهيونية في القدس . بل إنّ هذه الإمكانية لم تخطر ببالي .

في يوليو/تموز ١٩٨١ ، التحقتُ بالجيش الإسرائيلي ، لكن منذ اليوم الأول لي في الخدمة العسكرية ، بذلتُ قصارى جهدي لتجنّب «نداء الواجب» ؛ لا لأني كنتُ داعية سلام ، ولا لأني كنت أبالي بشأن الفلسطينيين ، بل لأنني

فضلتُ فقط أن أكون وحدي مع الساكسفون .

في يونيو/حزيران ١٩٨٢ ، عندما بدأ الاجتياح الإسرائيلي للبنان ، كان قد مضى عام على انخراطي في العسكرية كجندي . لم تكن ثمة حاجة لعبقري لاكتشاف الحقيقة ؛ لقد عرفتُ أن قادتنا يكذبون ، والحقّ فإنّ كل جندي إسرائيلي فهم أن هذه الحرب كانت عدواناً إسرائيلياً . شخصياً ، لم أعد أشعر بأدنى ارتباط بالقضية الصهيونية ، أو بإسرائيل ، أو بالشعب اليهودي . ولم يعد الموت على المذبح اليهودي يغريني . ومع ذلك ، لم تكن السياسة بعد أو الأخلاق هي التي تحرّكني ، وإنما توْقي كي أكون وحدي مع آلة الساكسفون الجديدة خاصتي ، نوع «سِلْمر باريس مارك السادس»(١) . وبدا أن عزف السلم الموسيقي بسرعة الضوء بالنسبة لي أكثر أهمية بكثير من قتل العرب باسم المعاناة اليهودية . وهكذا ، بدلاً من أصبح قاتلاً مؤهَّلاً ، أنفقتُ كلَّ جهد ممكن في محاولة الانضمام إلى واحدة من الفرق الموسيقية العسكرية . ولقد استغرق الأمر بضعة شهور ، لكنني تمكنتُ في النهاية من الالتحاق بسلام بالفرقة الموسيقية التابعة لسلاح الجو الإسرائيلي .

وكانت الفرقة الموسيقية لسلاح الجو الإسرائيلي قد تشكلتْ على نحو فريد من نوعه ؛ إذ بالإمكان أن تُقبَل بها إما لأنك موسيقي ممتاز أو أنك تملكُ موهبةً واعدة ، أو لكونك ابن طيار ميّت . والحقيقة بأنه تمّ قبولي في الفرقة الموسيقية مع معرفة أن والدي لا يزال على قيد الحياة كان مدعاةً لشعوري بالاطمئنان : فللمرّة الأولى ، فكّرتُ باحتمال أنني قد أمتلكُ موهبةً موسيقية .

---

(١) سِلْمر باريس مارك السادس (Selmer Paris Mark VI) : طراز رفيع المستوى من آلة الساكسفون لعازفي الجاز المحترفين ، تنتجه شركة «هنري سلمر باريس» ، وهي شركة فرنسية ، مقرها باريس ، تأسست في العام ١٨٨٥ ، وتشتهر بصنع أجود أنواع الآلات الموسيقية وخاصة الساكسفون والكلارينت والبوق . ويعدّ ساكسفون «سِلْمر مارك السادس» الأرقى من نوعه الذي تنتجه الشركة الفرنسية ، ما جعله الخيار المفضل لأشهر عازفي الساكسفون في العالم . (المترجمة)

لدهشتي البالغة ، لم يكن أيٌّ من أعضاء الفرقة يتعاطون مع الجيش بجديّة ؛ فجميعنا كنا معنيّين بشيء واحد فقط : تطوّرنا الموسيقي الشخصي. لقد كرهنا الجيش ، ولم يمض وقت طويل قبل أن أبدأ بكراهية الدولة ذاتها التي استلزمت وجود سلاح للجو استلزم بدوره وجود فرقة موسيقية له ، الأمر الذي حال بيني وبين التدرّب أربعاً وعشرين ساعة في اليوم على مدى أيام الأسبوع السبعة . وحين كان يتمّ استدعاؤنا للعزف في حدث عسكري ، كنا نحاول أن نقدّم أداءً ضعيفاً قدر الإمكان ، كي نضمن ألا تتم دعوتنا ثانية . وفي بعض الأحيان ، كنا نجتمع بعد الظهيرة فقط كي نتدرّب على العزف بصورة سيئة ، حيث أدركنا أنه كلما كان أداؤنا سيئاً كجماعة ظفرنا بحرية شخصية أكبر . في الفرقة الموسيقية العسكرية تعلّمتُ للمرّة الأولى كيف أكون مدمِّراً ، كيف أخرِّب النظام كي أحقق هدفاً شخصياً .

في صيف العام ١٩٨٤ ، قبل ثلاثة أسابيع فقط من خلعي الزيّ العسكري ، تمّ إرسالنا إلى لبنان في جولة لإحياء حفلات موسيقية . في ذلك الوقت ، كان لبنان مكاناً خطيراً كي يوجد المرء فيه . كان الجيش الإسرائيلي متمركزاً في غرف محصَّنة تحت الأرض وفي خنادق ، متجنِّباً أية مواجهات مع السكان المحليين . في اليوم الثاني ، انطلقنا إلى معتَقل أنصار ، وهو معسكر اعتقال إسرائيلي سيّئ السمعة يقع جنوب لبنان . هذه التجربة كان من شأنها أن تغيِّر حياتي تماماً .

عند نهاية طريق مغبرّ ، في يوم كان يغلي من شدة الحرارة ، في أوائل شهر يوليو/تموز ، بلغنا جهنّم على الأرض . كان مركز الاعتقال الضخم مطوّقاً بأسلاك شائكة . حين اقتربنا من مقر قيادة المعتَقل ، لمحنا آلاف المعتقلين في الهواء الطلق ، وقد سفعتهم الشمس .

قد يبدو من الصعب تصديق ذلك ، لكن الفرق الموسيقية العسكرية تُعامل دائماً كـ«شخصيات مهمة» . ما إن وصلنا إلى ثكنات ضباط الجيش حتى أخذونا في جولة حول المعتَقل ، حيث مشينا على طول الأسلاك الشائكة

اللانهائية وأبراج المراقبة . لم أصدِّق عيني .

«من هؤلاء الناس؟» ، سألتُ الضابط . فأجابني : «فلسطينيون ،» مضيفاً : «على اليسار معتقلون ينتمون لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وعلى اليمين أتباع أحمد جبريل (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة) - إنهم أخطر بكثير ، لذا نبقيهم معزولين .»

تفحّصتُ المُعتَقَلين . بدوا مختلفين تماماً عن الفلسطينيين في القدس . فأولئك الذين شاهدتهم في معسكر أنصار كانوا غاضبين . لم يكونوا مهزومين ؛ كانوا مقاتلين في سبيل الحرية ، وكانوا كثيرين . وإذ واصلنا المسير ، متجاوزين الأسلاك الشائكة ، واصلتُ التحديق في النزلاء ، وتوصلتُ إلى حقيقة لا تُحتَمل : وهي أنني كنتُ أسير في الجانب الآخر ، مرتدياً زياً عسكرياً إسرائيلياً . كان المكان معسكر اعتقال ، وكان النزلاء هم «اليهود» ، وأنا لم أكن سوى «نازيّ» . احتجتُ إلى سنوات كي أعترف لنفسي أنه حتى فكرة التضاد الكامنة في ثنائية اليهودي/النازي كانت بحدّ ذاتها نتاج التعاليم التي تلقيتُها والمتمحورة حول اليهودية .

بينما كنتُ أتأمل دلالات زيّي ، محاولاً التعامل مع الشعور العظيم بالخزي المتنامي في داخلي ، وصلنا إلى أرض واسعة ، منبسطة ، وسط المعتقل . أطلق الضابط الذي كان يرافقنا كدليل العديد من التعليقات المبتذلة والترهات بشأن الحرب الراهنة التي تسعى للدفاع عن ملاذنا اليهودي . وبينما كان يضجرنا - حدّ الموت - بهذه الأكاذيب الدعائية غير ذات الصلة (على طريقة الهاسباراه[1]) ،

---

(١) الهاسباراه : مصطلح عبري ، يشير إلى دبلوماسية العلاقات العامة في إسرائيل ، من خلال الجهود التي تبذلها الحكومة الإسرائيلية ، لشرح وجهة نظرها وتبرير سياساتها ، و«تجميل» وجه إسرائيل في مواجهة الانتقادات السلبية التي تتعرض لها في مختلف أنحاء العالم . في هذا الإطار ، فإن «الهاسباراه» فعلياً أقرب ما تكون إلى «البروباغاندا» السياسية ، أي الحملات الدعائية التي تسعى إلى إخفاء الحقيقة أو التخفيف من قبحها أو تزويرها . (المترجمة)

لاحظتُ أننا محاطون بدزينتيْن من الكتل الإسمنتية ، مساحة كل منها نحو متر مربع وارتفاعها ١,٣ متر ، مع أبواب معدنية صغيرة كمداخل . روّعتني الفكرة بأن جيشي كان يحبس كلاب الحراسة في هذه الصناديق في الليل . بكل وقاحة تليق بي كإسرائيلي ، واجهتُ الضابط بشأن صناديق الكلاب المربعة هذه ، فردّ على الفور : «هذه المباني المخصصة للعزل الانفرادي لدينا ؛ فبعد المكوث يومين في أحدها ، تصبح صهيونياً مخلصاً!»

كان هذا كافياً بالنسبة لي . أدركتُ حينها أن علاقتي بالدولة الإسرائيلية وبالصهيونية قد انتهت . ومع ذلك ، كنتُ ما أزال أعرف القليل جداً عن فلسطين ، وعن «النكبة» ، بل حتى عن الدين اليهودي والأيديولوجيا اليهودية في هذا الشأن . فيما يتعلّق بي ، لم أرَ حينئذ سوى أنّ إسرائيل بلدٌ بغيض ، وأنني لم أشأ أن تكون لي علاقة بها بعد اليوم . بعد أسبوعين من تلك الواقعة ، أرجعتُ زيّي العسكري ، حملتُ آلة الآلتو ساكسفون خاصتي ، ثم ركبتُ الحافلة إلى مطار بن غوريون وغادرتُ إلى أوروبا لبضعة شهور ، كي أعزف الموسيقى في الشارع . كنتُ في الحادية والعشرين من عمري آنذاك ، وشعرتُ بأنني حرٌّ للمرة الأولى . لكن شهر ديسمبر/كانون الأول كان شديد البرودة بالنسبة لي ، فرجعتُ إلى إسرائيل ، وقد عقدتُ العزم على العودة إلى أوروبا . بصورة من الصور ، كنتُ أتوق كي أحمل لقب «**غوي**» ، أو على الأقل أن أكون محاطاً بالـ«**غوييم**»[1] .

***

استغرق الأمر عشر سنوات أخرى قبل أن أغادر إسرائيل إلى الأبد . على أنني ، في أثناء ذلك ، بدأتُ أتعلّم بشأن الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني ،

---

(١) غوييم Goyim ، مفردها غوي Goy ، مصطلح توراتي معناه «شعب» أو «قوم» ، يشير إلى «غير اليهودي» ، حيث يشار إلى «غوييم» باللغة العربية بمصطلح «الأغيار» أي الشعوب غير اليهودية . (المترجمة) .

متقبِّلاً بأنني أعيش على أرض تخصّ شخصاً آخر . استوعبتُ الحقيقة المدمِّرة أنه في العام ١٩٤٨ لم يترك الفلسطينيون بيوتهم طواعيةً - كما قالوا لنا في المدرسة -بل تم تطهيرهم عرقياً بصورة وحشية على يد جدّي وفصيلته . بدأتُ أدرك بأنّ التطهير العرقي لم يتوقف أبداً في إسرائيل ، كلّ ما في الأمر أنه اتّخذ فقط أشكالاً أخرى ، معترفاً بالحقيقة أنّ النظام القانوني الإسرائيلي ليس منصفاً ، بل إنه عنصري التوجّه (على سبيل المثال ، يرحب «قانون العودة» باليهود في «وطنهم» من أي بلد جاؤوا منه ، وذلك بعد ألفي عام كما هو مُفترض ، لكنهم يمنعون الفلسطينيين من العودة إلى قراهم بعد عامين من وجودهم في الخارج) . في الأثناء ، كنتُ أتطوّر كموسيقي ، حيث أصبحتُ عازفاً رئيسياً في جلسات الجاز ، ومنتجاً موسيقياً . لم أكن في الواقع منخرطاً في أي نشاط سياسي ، وعلى الرغم من متابعتي خطاب اليسار الإسرائيلي عن كثب ، إلا أنني سرعان ما أدركتُ أنه كان إلى حدٍّ كبير نادياً اجتماعياً أكثر منه قوّة أيديولوجية دافعها الوعي الأخلاقي .

بحلول اتفاقيات أوسلو في العام ١٩٩٣ ، لم أعد أحتمل الأمر أكثر من ذلك . لقد رأيتُ أن «صنع السلام» الإسرائيلي لم يكن سوى التفاف على الوضع القائم . ولم تكن الغاية منه التصالح مع الفلسطينيين أو مواجهة خطيئة الصهيونية الأصلية ، وإنما تأمين وجود الدولة الإسرائيلية أكثر على حساب الفلسطينيين . بالنسبة لمعظم الإسرائيليين ، لا تعني «شالوم» «السلام» ، بل الأمن ، ولليهود فقط . وبالنسبة للفلسطينيين ، فأنْ يحتفلوا بـ«حقّهم في العودة» ليس خياراً . قررتُ أن أترك بيتي وعملي . تركتُ كلّ شيء وكلّ شخص ورائي ، بمن فيهم زوجتي تالي التي انضمتْ إليّ لاحقاً . كل ما أخذتُه معي هو الساكسفون الخاص بي ، صديقي الحقيقي . . الأزلي .

انتقلتُ إلى لندن ، وبدأتُ بمتابعة دراساتي العليا في الفلسفة في جامعة إيسيكس . خلال أسبوع ، تمكنتُ من الحصول على موقع لي ، كموسيقي ، في حانة «بلاك ليون» ، وهي حانة أيرلندية أسطورية في شارع كيلبورن هاي رود ،

في منطقة كيلبورن شمال غرب لندن. في ذلك الوقت، لم أقدِّر كم كنتُ محظوظاً - إذ لم أكن أعرف صعوبة الحصول على فرصة لتقديم أداء موسيقي في لندن. في الحقيقة، كانت هذه بداية انطلاقة مسيرتي المهنية العالمية كموسيقي جاز. خلال عام، حظيتُ بشعبية كبيرة في بريطانيا، مقدماً مقطوعات «بيبوب» و«بوست بوب»[1]. في غضون ثلاث سنوات، كنتُ أعزف بمصاحبة فرقتي في كل أنحاء أوروبا. .

بيد أنه لم يمض وقت طويل حتى بدأتُ أشعر بالحنين للوطن. ولدهشتي العظيمة، لم أكن أفتقد إسرائيل، أو تل أبيب، أو حيفا، كما لم أفتقد القدس. لقد افتقدتُ فلسطين. لم أفتقد سائقي الأجرة الإسرائيليين الوقحين، الذين تلعلع أصواتهم بالصراخ، في مطار بن غوريون، أو مراكز التسوق المقيتة في مدينة رامات غان (الكائنة إلى الشرق من تل أبيب)، وإنما إلى محلّ صغير في شارع يفيت بمدينة يافا، يقدّم أشهى طبق حمّص يمكن أن تشتريه الفلوس، كما افتقدتُ القرى الفلسطينية الممتدّة عبر التلال وسط أشجار الزيتون والصبّار. كلما راودتْ خيالي فكرة القيام بزيارة للوطن، في لندن، وجدتني ينتهي بي المطاف في شارع «إدجْوَر رود»[2]، لأقضي الأمسية في مطعم لبناني. ما إن بدأتُ بالتعبير صراحةً عن أفكاري وآرائي إزاء إسرائيل على الملأ، حتى اتضح لي أن إدجْوَر رود قد يكون أقرب شيء إلى وطني.

***

(١) بوست بوب: Post-bop، مصطلح يشير إلى نوع من مقطوعات الجاز الصغيرة تطور في أوائل ستينات القرن الماضي وحتى منتصفها. (المترجمة)

(٢) إدجْوَر رود Edgware Road: شارع رئيسي يجتاز الجزء الغربي من وسط العاصمة البريطانية لندن. يشتهر الجزء الجنوبي منه بصبغته العربية الطاغية من خلال العديد من المطاعم والمقاهي التي تقدم المأكولات الشرقية المتنوعة إلى جانب الشيشة. كما يضم الشارع مقاهي إيرانية وكردية وقبرصية. (المترجمة)

أعترف أنني حين كنتُ أعيش في إسرائيل ، لم أكن مأخوذاً على الإطلاق بالموسيقى العربية . أعتقد أن المستوطنين الكولونياليين نادراً ما يبدون اهتماماً بثقافة سكان البلاد الأصليين . أحببتُ الموسيقى الشعبية ، وكنتُ قد نجحتُ في اجتراح سمعة لي في أوروبا والولايات المتحدة كعازف موسيقى الـ«كْلِزْمَر»[1] ، ومع مرور السنوات بدأتُ بعزف الموسيقى التركية واليونانية أيضاً . غير أنني أسقطتُ تماماً الموسيقى العربية ، والموسيقى الفلسطينية تحديداً . في لندن ، وبينما كنتُ أتردّد على تلك المطاعم اللبنانية ، بدأ يخطر لي أنني لم أستكشف حقاً موسيقى جيراني ، والأكثر مدعاة للقلق أنني تجاهلتها ، بل إنني صرفتُ النظر عنها . وعلى الرغم من أنها كانت موجودة حولي ، فإنني لم أستمع إليها حقاً . لقد كانت هناك في كل زاوية من حياتي : في صوت الآذان المنبعث من المساجد ، في أصوات أم كلثوم وفريد الأطرش وعبدالحليم حافظ . كان يمكن سماعها في الشوارع ، وفي التلفزيون ، وفي المقاهي الصغيرة في البلدة القديمة في القدس ، وفي المطاعم . لقد كانت حولي - لكنني ، ومن باب عدم الاحترام ، لم أعرها أيّ اهتمام .

في منتصف الثلاثينات من عمري ، بينما كنتُ بعيداً عن منطقة الشرق الأوسط ، انجذبتُ إلى موسيقى السكان الأصليين في بلادي . لم يكن الأمر سهلاً ؛ بل - للحق - كاد يكون غير ممكن على الإطلاق . فبقدر ما كانت موسيقى الجاز سهلة الاستيعاب بالنسبة لي ، فإن الموسيقى العربية كانت شبه مستحيلة . كنتُ أشغِّل الموسيقى ، أمسك الساكسفون أو الكلارينت ، أحاول أن أدمج صوتي معها ، لكن الموسيقى الناتجة في النهاية كانت تبدو أجنبية تماماً . وسرعان ما أدركتُ أن الموسيقى العربية لغة مختلفة بالإجمال . لم أعرف من أين أبدأ أو ما السبيل إلى مقاربتها .

---

(١) كْلِزْمَر : Klezmer ، موسيقى شعبية تقليدية اقترنت بيهود أوروبا الشرقيين المعروفين بالإشكناز . (المترجمة)

بدرجة ما ، تُعدُّ موسيقى الجاز نتاجاً غربياً مع تأثير أفريقي كوبي كبير . ظهرت هذه الموسيقى مطلع القرن العشرين ، وتطوّرت على هوامش الثقافة الأميركية . تتألف «البيبوب» ، وهي الموسيقى التي تربيتُ عليها ، من قطع أو ألحان موسيقية قصيرة نسبياً . ويُعزى قصر هذه المقطوعات اللحنيّة إلى الحقيقة بأنها يجب أن تلائم صيغ التسجيل البالغة مدّتها ثلاث دقائق والمعتَمَدة في أربعينات القرن الماضي . من السهل ترجمة أو نسخ الموسيقى الغربية في محتوى بصري ما من خلال رموز النغمات والنوتة الموسيقية المتعارَف عليها . بالتالي فإن موسيقى الجاز ، على غرار معظم أشكال الموسيقى الغربية ، رقميّة جزئياً . أما الموسيقى العربية ، من جهة أخرى ، فهي تناظريّة لا يمكن نسخها أو ترجمتها إلى رموز . وإذا ما حاولنا ذلك فإنها سوف تفقد أصالتها . ما إن بلغتُ ما يكفي من النضج الإنساني لـ«مواجهة موسيقى» موطني بالمعنى الحرفي ، حتى وقفتْ معرفتي الموسيقية حائلاً في الطريق .

لم أفهم ما الذي كان يمنعني من إتقان الموسيقى العربية ، أو لِمَ لَمْ تبدُ صحيحةً حين حاولتُ أن أعزفها . كنتُ قد أنفقتُ وقتاً كبيراً في الاستماع إليها والتدرّب على عزفها ، ومع ذلك لم تكن التجربة ناجحة . مع مرور الوقت ، بدأ صحفيو الموسيقى الأوروبيون يعربون عن تقديرهم لموسيقاي الجديدة ، ناظرين إليّ كـ«بطل» جديد للجاز تمكنّ من تجاوز الخط الفاصل كخبير في الموسيقى العربية . على أنني كنتُ أعرف أنهم على خطأ - فإنني وإن كنتُ قد بذلتُ جهداً كبيراً سعياً لتجاوز «الخط الفاصل» المزعوم ، فقد كان من السهل أنْ أدرك أنّ موسيقاي وتأويلي دخيلان على الموسيقى العربية الحقيقية .

ثم اكتشفتُ حيلةً سهلة . فأثناء حفلاتي الموسيقية ، حين كنتُ أحاول محاكاة هذا الصوت الشرقي المراوغ ، كنتُ أغني أولاً بيتاً أو سطراً يذكّرني بالأصوات التي تجاهلتُها في طفولتي . تراني أحاولُ استعادةَ رجع صدى صوت المؤذّن إذ ينساب في الشوارع من الوديان المحيطة ، والأصوات المدهشة التي لا تزال تلازمني لرفيقيّ ظافر يوسف ونزار العيسى ، بالإضافة إلى صوت عبدالحليم حافظ

الخفيض ، متلكئاً في المكان لم يزل . في البداية ، كنتُ أغمض عيني فقط وأستمع بأذني الداخلية ، لكن دون أن أدرك الأمر ، بدأتُ أفتح فمي أيضاً تدريجياً ، وأغنّي بصوت مرتفع . ثم أدركتُ أنني إذا غنيتُ بالساكسفون في فمي ، قد أصلُ إلى صوت يشبه إلى حدّ كبير الصوتَ المنبعثَ من الأبواق المعدنية للمساجد . لقد حاولتُ لفترة طويلة الاقتراب من الصوت العربي ، لكنني الآن نسيتُ ببساطة ماذا كنتُ أسعى إلى تحقيقه ، وبدأتُ أستمتع .

بعد فترة من الوقت ، لاحظتُ أن أصداء جنين والقدس ورام الله بدأت تنبعث بصورة طبيعية من جرس بوقي . سألتُ نفسي ما الذي حدث ، ولماذا بدت الموسيقى أصيلةً فجأة ، فخلصتُ إلى أنني تخلّيتُ عن العين كأولوية ، وكرّستُ اهتمامي بدلاً من ذلك للأذن كأولوية . لم أبحث عن الإلهام على الورقة ، كما لم أبحث عن البصريّ أو التحليليّ في النوتة الموسيقية أو رموز النغمات . استمعتُ ، بدلاً من ذلك ، إلى صوتي الداخلي . لقد ذكّرتْني معاناتي مع الموسيقى العربية بالسبب الذي جعلني أُقبل على عزف الموسيقى في المقام الأول ؛ ففي نهاية المطاف كنتُ قد استمعتُ إلى بيرد في الراديو ولم أشاهده في قناة إم تي في التلفزيونية .

من خلال الموسيقى ، وتحديداً صراعي الشخصي جداً مع الموسيقى العربية ، تعلّمتُ أن أستمع . بدلاً من النظر إلى التاريخ أو تحليل تطوّره بالمعنى المادّي ، فإن الاستماع هو الذي يتجلّى في جوهر الإدراك العميق . ويتبدّى السلوك الأخلاقي حين تُغمض العيون ، فتشكّل أصداء الضمير لحناً موسيقياً داخل روح المرء . أن نتعاطف مع الآخر يعني أن نتقبّل أن تكون الأولوية للأذن[1] .

---

(١) مفهوم «الأولوية للأذن» قد يستدعي (لدى البعض) الصلاة اليهودية «شيما يسرائيل» : فلتسمعي يا إسرائيل! الربّ إلهنا ، الربّ واحد ، (سفر التثنية ، ٤ :٦) . على الرغم من أن اليهودية تولي أهمية كبيرة لفعل «الاستماع» ، فإن من المهم أن نميز بصورة واضحة بين دعوتي لحكم شخصي ونقدي ، في مقابل الدعوة اليهودية للطاعة المطلقة .

الهوية مقابل التماهي

الفصل ١
الحقّ في التوضيح

في لندن ، التي أعرِّفها في الغالب بـ«منفاي الاختياري» ، أدركتُ أن إسرائيل والصهيونية ليستا سوى جزأين من المشكلة اليهودية الأكبر .

إن إسرائيل هي الدولة اليهودية ، على الأقلّ هذا ما تزعمه . وهي تحظى بدعم كبير من يهود العالم ، على الصعيد المؤسّساتي والمالي والروحي . لقد أضحت الصهيونية وإسرائيل المعرِّفيْن الرمزيّيْن لليهودي المعاصر . ومع ذلك ، على الرغم من كون إسرائيل الدولة اليهودية ، والدعم الهائل الذي تتلقاه من جماعات الضغط اليهودية حول العالم ، فإننا نادراً ما نجد معلِّقاً على الأحداث يمتلك الشجاعة الكافية كي يتساءل ماذا تعني كلمة «يهودي» . فهذا السؤال لا يزال ، على ما يبدو ، من التابوهات في الخطاب الغربي .

في هذا الكتاب ، سأحاول أن أفكّ العقدة . سوف أقدم نقداً قاسياً للهوية والسياسة اليهوديّتين . بيد أنه من المهمّ أن نذكر في هذه المرحلة المبكرة بأنه لن تكون ثمة إشارة وحيدة إلى اليهود كإثنيّة أو عرق . في كتابتي ، أميِّز بين اليهود (الشعب) ، واليهودية (الديانة) ، واليهودية (الأيديولوجيا) . هذا الكتاب لا يتعامل مع اليهود كشعب أو إثنية . بل على العكس من ذلك ، تشير دراساتي حول هذه المسألة إلى أن اليهود لا يشكِّلون أي نوع من السلسلة العرقية المتِّصلة . باختصار ، أولئك الذين يبحثون عن تأويل للصهيونية له علاقة بالدم أو العرق عليهم أن يجدوه في كتاب شخص آخر .

في عملي ، أُحْجم أيضاً عن توجيه نقد للديانة اليهودية ؛ حيث أتصدّى ، بدلاً من ذلك ، لتأويلات مختلفة للمبادئ اليهودية ، فأتعاطى مع الأيديولوجيا

اليهودية ، وسياسة الهوية اليهودية ، والخطاب السياسي اليهودي . وأتساءل ما الذي يستتبع عنه أن يكون المرء يهودياً . كما أبحث عن الدلالات الميتافيزيقية والروحية والسياسية الاجتماعية .

أنطلق في رحلتي طارحاً سؤالاً بسيطاً نسبياً : من هم اليهود؟ أو كسؤال بديل : ماذا يقصد الناس بصفة «يهود» التي يطلقونها على أنفسهم؟

فيما يتعلّق بالإدراك الذاتي ، فإن أولئك الذين يصفون أنفسهم بـ«يهود» ، يمكن تقسيمهم إلى ثلاث فئات رئيسية ، هي :

١ . أولئك الذين يتبعون الديانة اليهودية .

٢ . أولئك الذين يعتبرون أنفسهم بشراً تصادف وأنهم ينحدرون من أصل يهودي .

٣ . أولئك الذين يضعون يهوديّتهم فوق كل السمات والخصائص الأخرى .

قد تشير الفئتان الأوليتان إلى مجموعة بريئة وغير مؤذية من الناس .

ترانا نميل إلى الافتراض بأنّ الناس المتديّنين يستقون الإلهام عموماً من معتقداتهم ، حيث يُتوقَّع منهم أن يتبنّوا منظومة قيم أخلاقية وروحية أرفع نوعاً ما . بناء على ذلك ، يمكن النظر إلى الديانة اليهودية كمنظومة معتقدات أخلاقية[1] . لقد كانت اليهودية المعرِّف الرمزي لليهود لألفي عام على الأقل . وهي واضحة تماماً ومتماسكة . وعلى الرغم من الحقيقة بأنّ الكثير من الجرائم حالياً يتمّ ارتكابها باسم التوراة ، فإن اليهودية كديانة عالمية يمكن تبرئتها

(١) على الرغم من بعض الأفكار اليهودية التي تبعث على القلق ، والواردة في التوراة ، وخاصة في التلمود ، ثمة حقيقة متعارف عليها وهي أن اليهود التوراتيين الأرثوذكسيين يتّحدون ضد الصهيونية ويؤيدون الفلسطينيين .

بالإشارة إلى أن المشيحانية[1] القومية اليهودية هي مجرَّد تأويل .

كذلك ، فإن الفئة الثانية من الناس بريئة تماماً ؛ فالمرء لا يستطيع أن يختار أصله . وقد تتّفق العقول الأخلاقية على أنه يتعيّن احترام الناس ومعاملتهم معاملة متكافئة ، بصرف النظر عن أصولهم أو خلفيتهم العرقيّة والإثنيّة .

أما الفئة الثالثة فهي التي تنطوي على إشكاليّة . وقد يؤجِّج تعريفها غضبَ البعض ، على أن الغريب أن هذه الصيغة التعريفية تمّ اجتراحها عشيّة القرن العشرين على يد حاييم وايزمان ، وهو من أوائل الشخصيات الصهيونية البارزة ، وأصبح لاحقاً أول رئيس لدولة إسرائيل ، فقد قال : «لا يوجد يهود إنجليز أو فرنسيون أو ألمان ، أو أميركيون ، بل يوجد فقط يهود يعيشون في إنجلترا أو فرنسا أو ألمانيا أو أميركا .» ببضع كلمات فقط ، تمكّن وايزمان من تحديد جوهر اليهودية بالمطلق . إنها «صفة رئيسة» في الأساس . قد تكون يهودياً تعيش في إنجلترا ، أو يهودياً يعزف على الكمان ، أو حتى يهودياً مناهضاً للصهيونية ، لكنك قبل أي شيء آخر تظلّ يهودياً . وهذه هي الفكرة بالضبط التي تعبِّر عنها الفئة الثالثة .

إنّ الأمر له علاقة بالنظر إلى اليهودية (كأيديولوجيا) باعتبارها العنصر الأساسي والسمة الجوهرية لوجود المرء ، وأية سمة أو صفة أخرى تُعدّ ثانوية . هذه بالضبط الرسالة التي سعى الصهاينة الأوائل إلى نشرها . بالنسبة لوايزمان ،

---

(١) «المشيحانية» Messianism : كلمة عبرية تعني الاعتقاد بمجيء «الماشيَّح» Messiah ، أي «المسيح المخلِّص» ، وهي مشتقة من الكلمة العبرية «مشح» أو «مسح» بالزيت المقدس ، حيث كان اليهود ، على عادة الشعوب القديمة ، يمسحون رأس الملك والكاهن بالزيت قبل تنصيبهما ، علامة على المكانة الجدية وعلى أن الروح الإلهية أصبحت تسري فيهما . فيما بعد ، اتسع إطار معنى كلمة «ماشيَّح» لتشمل العديد من المدلولات ، إذ تشير إلى ملوك اليهود وأنبيائهم ، أو إلى أي فرد يقوم بتنفيذ مهمة خاصة يوكلها الإله إليه . كما أن هناك في المزامير إشارات متعددة إلى الشعب اليهودي على أنه شعب من المشحاء . (نقلاً عن النسخة الإلكترونية من **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية** لعبد الوهاب المسيري – المترجمة)

فإنّ اليهودية صفة فريدة من نوعها منعت اليهودي من الاندماج أو الذوبان وسط الحشد ، فكان اليهودي يظل غريباً على الدوام .

هذا النهج من التفكير كان جليّاً في معظم الكتابات الصهيونية الأولى . لكن جابوتنسكي مضى بالأمر أبعد من ذلك ؛ فقد كان مصرّاً بأن الاندماج مستحيلٌ بسبب الشرط البيولوجي . وإليكم ما قاله بشأن اليهودي الألماني : «إن اليهودي الذي ينشأ وسط الألمان قد يتبنى عادات ألمانية ، وكلمات ألمانية . قد يكون متشرّباً تماماً بالسائل الألماني ، لكن نواة بنيته الروحيّة ستظل يهودية دائماً ، ذلك لأنّ دمه وجسمه وملامحه العرقية الجسدية يهودية .» (فلاديمير جابوتنسكي ، «رسالة في الحكم الذاتي» ، ١٩٠٤) .

هذه الأفكار العنصرية تسبق النازية . وجابوتنسكي لم يكن وحيداً ، فحتى الماركسي اليهودي بير بوروخوف[1] ، الذي يُرجع الشرط اليهودي إلى ظروف تاريخية ومادية ، اقترح حلاً خاصاً بالشعب اليهودي ، أي القومية اليهودية . وهي أيديولوجية تتيح لليهود ممارسة نشاط بروليتاري ، تحديداً الإنتاج ، مع المحافظة في الوقت عينه على خصائصهم الثقافية والقومية .

ويفْصِل بوروخوف اليهود عن الثورة البروليتارية العالمية . فلماذا يفعل ذلك؟ لأن اليهود «يهوديون» بصورة فريدة من نوعها ، أو على الأقل يميل الصهاينة إلى الإيمان بذلك .

إنّ الصهيوني في المقام الأول والأخير يهودي . وهو لا يستطيع أن يكون مجرَّد مواطن بريطاني عادي تصادف وأنه يهودي المَحتد ؛ إنّه بالأحرى يهودي يعيش في بريطانيا ، إنه يهودي يتكلم الإنجليزية ، إنه يهودي يتلقّى الخدمات الصحية من هيئة الخدمات الصحية الوطنية في بريطانيا ، وهو يهودي تصادف

---

(١) دوف بير بوروخوف : (١٨٨١-١٩١٧) من قادة الحركة الصهيونية ، وهو أحد مؤسسي الحركة العمالية الصهيونية ، وما عرفت بـ«الصهيونية الاشتراكية» .لعبت أفكاره دوراً مهماً في إقناع الشباب اليهود بالهجرة من أوروبا والاستيطان في فلسطين . (المترجمة)

وأنه يقود سيارته في الجهة اليسرى من الطريق . وعلى الرغم من أنه بريطاني بالولادة ، فهو أيضاً «الآخر المطلق» باختياره .

العميل الصهيوني

هذه الفئة الثالثة من اليهود ليست مضطرة للانتقال إلى فلسطين . فالعيش في صهيون[1] أحد الاحتمالات فقط التي توفرها الفلسفة الصهيونية . فكي يصبح المرء صهيونياً حقيقياً ، ليس مضطراً لأن يهيم على وجهه ، بل من الأفضل فعلياً في بعض الأحيان أن يظل المرء باقياً حيثما هو موجود بالضبط .

لنقرأ ما يخبرنا به فيكتور أوستروفسكي[2] ، وهو عميل سابق منشقّ عن الموساد ، عن الأخوّة اليهودية . «في اليوم التالي ألقى ران إس . محاضرة عن الـ'سايعانيم'[3] الذين يشكّلون جزءاً مهمّاً وفريداً من نوعه في عمليات الموساد . يجب أن يكون السايعانيم (أي المساعدون) يهوداً مئة في المئة . وهم يعيشون في الخارج ، وعلى الرغم من أنهم ليسوا مواطنين إسرائيليين ، فإن العديد منهم يمكن الوصول إليه من خلال أقربائه في إسرائيل . على سبيل المثال ، يمكن أن يُطلب من إسرائيلي له قريب في إنجلترا أن يكتب رسالة يخبر فيها الشخص حامل

---

(١) صهيون :اسم تل وقلعة في القدس ، يشار له في اللغة العربية بـ«جبل المكبر» أو «جبل الزيتون» ، كما أنها «أرض إسرائيل التوراتية القديمة» بوصفها رمزاً للشعب اليهودي ، حيث باتت صهيون ، بالنسبة لليهود ، تعني فلسطين . (المترجمة)

(٢) فيكتور أوستروفسكي : (مولود في ١٩٤٩) كاتب وضابط سابق في جهاز الاستخبارات الإسرائيلي «الموساد» ، اشتهر بكتابه المثير للجدل عن طريق الخداع (١٩٩٠) ، وحقق شهرة عالمية ، حيث يكشف أوستروفسكي فيه كواليس أنشطة الموساد في العالم . (المترجمة)

(٣) الـ«سايعانيم» sayanim ، وهو جمع ، والمفرد sayan ، مصطلح عبري ، معناه «المساعدون» ، ويستخدم لوصف اليهود المقيمين خارج إسرائيل ، الذين يعملون كمتطوعين في خدمة الموساد وتسهيل أنشطته . (المترجمة)

الرسالة أنه يمثّل منظمة هدفها الأساسي المساعدة في إنقاذ الشعب اليهودي في الشتات ، فهل يستطيع القريب البريطاني أن يساعد بأي طريقة ما؟ هناك الآلاف من السايعانيم حول العالم . في لندن وحدها ، ثمّة ما لا يقل عن ألفي مساعد ناشط ، وخمسة آلاف شخص آخر على القائمة . ويقوم المساعدون بأدوار عدّة مختلفة ؛ فـ'مساعد' سيارات ، مثلاً ، يدير وكالة لتأجير سيارات ، يمكن أن يساعد الموساد في استئجار سيارة دون الحاجة إلى استكمال إجراءات توثيق البيانات المعتادة . ومن شأن 'مساعد' يعمل في مجال تأجير الشقق أن يوجد سكناً أو مكاناً للإقامة دون إثارة الشبهات . كما يستطيع 'مساعد' مصرفي أن يجلب لك المال إذا كنتَ بحاجة له في منتصف الليل ، وبإمكان 'مساعد' طبيب أن يعالج مصاباً برصاصة دون حاجة إلى رفع تقرير للشرطة ، وهكذا . إنّ الفكرة تتلخّص في وجود مجموعة من الأصدقاء يكونون متوافرين عند الطلب ، بحيث يقدِّمون خدمات مع التزام الصمت بشأنها وذلك من باب الإخلاص للقضية ، دون أن يتقاضوا عن خدماتهم سوى التكاليف .»(١)

ينتمي «السايعانيم» (المساعدون) إلى الفئة الثالثة ، وهم أناس ينظرون إلى أنفسهم كيهود بصفة رئيسية . إنّ «المساعد» شخص قد يخون الأمّة التي ينتمي إليها كمواطن من باب الإخلاص لفكرة قائمة على الأخوّة العشائريّة .

في حقبتها الأولى ، قدّمت الصهيونية نفسها كمسعى لجلب يهود العالم إلى صهيون ، بيد أنه في العقود الثلاثة الأخيرة أصبح واضحاً للقيادة الصهيونية أن إسرائيل يمكن أن تستفيد فعلياً من يهود العالم ، وخاصة النخبة اليهودية ، من خلال بقائهم حيث هم تماماً . فلقد أثبت بول وُلفُويتس(٢) ورام

(1) By Way of Deception, Victor Ostrovsky, St. Martin s, 1990 pg 86-7.

(٢) بول دانديز وُلفُويتس : (مولود في ١٩٤٣) شخصية أميركية بارزة من «المحافظين الجدد» ، احتل منصب مساعد وزير الدفاع الأميركي (من العام ٢٠٠١ وحتى العام ٢٠٠٥ إبان إدارة الرئيس الأميركي السابق جورج بوش الابن) ، حيث كان من «المهندسين» الرئيسيين للسياسة التي انتهجها بوش في العراق .

إيمانويـــل[١] واللورد ليـفي[٢] وديفـيـد آرونوفيـتش[٣] أنـهم أكـثر فـاعليـة للقضـيـة الصهيونية عبر البقاء في مواقعهم .

الصهيونية.. شبكة عالمية

إنّ الصـهـيـونية ليـست حـركـة اسـتـعـمـارية لـهـا اهـتـمـامٌ بفلسطين ، كـمـا يقـول بعض البـاحـثين . فـالصـهـيـونيـة فعليـاً حـركـة عـالمية يـغذّيها تضـامنٌ قبليٌّ فـريدٌ من نوعه من أعضـاء ينتمون للفئـة الثـالـثة من اليـهود . أن تكون صـهـيـونيـاً مـعناه أن تقـبـل ، أكـثـر من أي شـيء آخـر ، بأنك يهـودي في المقـام الأول . يتـابع أوسـتروفـسكي موضـحـاً : «يوجـد تحت تصـرّفك نظام تجنيـد آمن ، يمنحك فعليـاً مجـمـوعـة من ملايين الأشـخـاص اليـهود الذين يمكنك الاسـتـعـانة بهم خـارج حدودك . من الأسـهل كثيراً أن تعمل بما هو متوافر في الموقع ذاته ، حيث يقدّم السايعانيم (أي المساعدون) دعماً عملياً لا يُصدَّق في كل مكان .»[٤]

مـا نراه هنا هو درجة اسـتـثنائيـة من التضـامن ، لكن اليـهـود أبعـد مـا يكونون

---

(١) رام إسرائيل إيمانويل : (مولود في ١٩٥٩) رئيس سابق لموظفي البيت الأبيض للرئيس الأميركي باراك أوباما ، كما عمل مستشاراً للرئيس الأميركي السابق بيل كلينتون من العام ١٩٩٣ وحتى العام ١٩٩٨ .

(٢) مـايكل أبراهام ليـفي : (مولود في ١٩٤٤) يهودي بريطاني ، كـان جامع التبرعات الرئيسي لحزب العمال البريطاني . وكصديق حميم لرئيس الوزراء البريطاني السابق توني بلير ، كان ليفي ، عضو حزب العمال في مجلس اللوردات البريطاني ، المبعوث الخاص لبلير في الشرق الأوسط وذلك من العام ١٩٩٨ وحتى العام ٢٠٠٧ .

(٣) ديفيد آرونوفيتش : (مولود في ١٩٥٤) كاتب بريطاني ومقدم تلفزيوني وصحفي ، وهو كاتب عمود بصورة منتظمة في صحف مثل **ذا تايمز** و**جويش كرونيكل** . كان من بين قلة في الصحافة البريطانية من أنصار الحرب العراقية الثانية .

(4) By Way of Deception, Victor Ostrovsky, St. Martin s, 1990 pg 87.

عن عرق بمفرده ، لذا إذا لم يكن الأمر يتعلق بحدّ ذاته بالتضامن العرقي ، فما الذي يجعل السايعانيم يجازفون بقضاء سنوات في السجن؟ بماذا كان الجاسوس الإسرائيلي جوناثان بولارد[١] يفكِّر حين خان بلده؟ ما الذي يفكر فيه هؤلاء السايعانيم المزعومون في لندن ، والبالغ عددهم ألفين ، حين يخونون ملكتهم أو جارهم؟ بماذا كان بول وُلفُوِيتس يفكّر حين وضع الاستراتيجية الخاصة ببلده لتدمير آخر جيوب المقاومة العربية لإسرائيل؟

إنني أعتبر شهادة أوستروفسكي تقريراً موثوقاً . فكما نعرف ، لم تدع الحكومة الإسرائيلية وسيلة إلا وطرقتها في محاولة لإيقاف نشر كتبه .

في مقابلة إذاعية ، فتح يوسف لابيد[٢] ، الذي كان يومئذ صحفياً إسرائيلياً وكاتب عمود بارزاً ، قلبه وعبّر عن رأيه في أوستروفسكي للعالم ، قائلاً : «إن أوستروفسكي أكثر يهودي خائن في التاريخ اليهودي الحديث ، وهو لا يملك الحقّ في العيْش ، اللهم إلا إذا كان مستعداً للعودة إلى إسرائيل والمثول أمام المحكمة .»[٣]

وسألته فاليري برينغل[٤] ، الصحفيّة التي كانت تحاوره عبر الهاتف : «هل تشعر أنه تصريح مسؤول أن تقول ما قلته؟» فأجابها لابيد : «أجل بالتأكيد ، فأنا أؤمن بذلك تماماً . وللأسف فإن جهاز الموساد لا يستطيع القيام بذلك لأننا لا نستطيع أن نخاطر بعلاقاتنا مع كندا . لكنني آمل بأن يكون هناك يهودي محترم

---

(١) جوناثان جاي بولارد : (مولود في ١٩٥٤) ، موظف سابق في وكالة الاستخبارات الأميركية وفي البحرية الأميركية أُدين بالتجسس لحساب إسرائيل ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة في العام ١٩٨٧ .

(٢) يوسف (جوزيف) «تومي» لابيد : (١٩٣١-٢٠٠٨) ، صحفي إسرائيلي ومقدم برامج تلفزيونية ، كان وزيراً للعدل ونائباً لرئيس الوزراء في حكومة آرييل شارون عام ٢٠٠٣ . (المترجمة)

(3) (http://www.washington-report.org/backissues/0195/9501017.htm).

(٤) فاليري برينغل : صحفية ومقدمة برامج تلفزيونية كندية . (المترجمة)

في كندا يقوم بالأمر بالنيابة عنا .» فما كان من برينغل إلا أن علقت : «تأمل ذلك . أتستطيع أن تعيش ودماؤه على يديك؟» عندئذ ردّ لابيد : «كلا . . الأمر لا علاقة له بمسؤوليتي عن دمه ، ولكن العدالة ستكون قد أخذت مجراها بحقّ رجل قام بأكثر شيء رهيب يمكن أن يفكّر به أي يهودي ، وهو قيامه ببيع الدولة اليهودية والشعب اليهودي لأعدائنا من أجل المال . لا يوجد على الإطلاق ما هو أسوأ من ذلك يمكن أن يقوم به إنسان ، هذا إذا كنّا نستطيع أن نسمّيه إنساناً .»

وحرص لابيد ، الذي انضم لاحقاً إلى حكومة رئيس الوزراء الأسبق أرييل شارون ، على أن يوضح بقوله : أن تكون يهودياً هو التزام عميق يمتدّ إلى ما هو أبعد من أي نظام أخلاقي . من الواضح ، بالنسبة للابيد ، أنّ اليهودية ليست موقفاً روحياً أو دينياً ، بل هي التزامٌ سياسي . إنها وجهة نظر عالمية تنسحب على كلّ يهودي في هذا الكوكب . وكما يقول : إن الموساد لا يستطيع حقاً أن يقتل أوستروفسكي ، لذا فإن الأمر منوط بـ«يهودي محترم في كندا» كي يقوم بالمهمّة .

ها هو إذن صحفي إسرائيلي ، ووزير إسرائيلي للعدل فيما بعد ، يعبّر هنا عن أكثر الآراء المشينة والفظيعة من نوعها ؛ مشجعاً زميلاً له يهودياً على ارتكاب جريمة باسم الأخوّة اليهودية . باختصار ، لا يؤكّد لابيد تقرير أوستروفسكي حول عالم السايعانيم (أي المساعدين) فحسب ، وإنما يثبت أيضاً رأي وايزمان بأنه ، من وجهة نظر صهيونية ، لا يوجد يهود كنديون ، بل يوجد فقط يهود يعيشون في كندا . على أنه يبيّن كذلك أن اليهودي الذي يعيش في كندا يمكن أن يقوم بدور قاتل مأجور ، ليخدم ما يعتبرها القضية اليهودية . إن اليهودية وفق ما يراها الصهيوني هي شبكة عمليات دولية .

في كتابه ، يشير إليها أوستروفسكي بوصفها تضامناً عرقياً ؛ أما أنا فأسميها أخوية الفئة الثالثة ، في حين يطلق عليها وايزمان الصهيونية . لكن أياً ما كان الاسم فإنه يعني الشيء ذاته . فالمسألة لها علاقة بالالتزام ، الذي يجتذبُ عدداً متزايداً من اليهود إلى زمالة غامضة وخطيرة ولا أخلاقية . من الواضح أن

الصهيونية لا تتعلّق بإسرائيل ، فإسرائيل مجرد مِلكيّة إقليمية ذات وضع متقلقل ، تحافظ عليها بعنف قوة مهمات تتألّف من يهود ينتمون إلى الفئة الثالثة ويتحدّثون اللغة العبرية . في الحقيقة ، لا يوجد مركز جغرافي للمسعى الصهيوني . ومن الصعب تحديد أين تُصنع القرارات الصهيونية . أتُتّخذ في القدس ، أم في الكنيست ، أم في مكتب رئيس الوزراء الإسرائيلي ، أم في الموساد ، أم ربما في مكاتب رابطة مكافحة التشهير(١) في أميركا؟ قد تكون في مكتب بيرني مادوف(٢) أو في مكان آخر في وول ستريت(٣) .

النظام

على الأرجح ، بالطبع ، ألاّ تكون هناك عملية صنع قرار أبداً . من المرجح جداً بأن «اليهود» لا يوجد لديهم مركز أو مقرّ قيادة . ومن المرجّح جداً أنهم غير مدركين لدورهم المحدّد في المنظومة بأكملها ، تماماً بالطريقة ذاتها التي لا يدرك

---

(١) رابطة مكافحة التشهير : يشار إليها اختصاراً بـ ADL ، وهي منظمة صهيونية مقرها في الولايات المتحدة الأميركية ، تصف نفسها بأنها «الوكالة الأولى على صعيد الدولة في الحقوق المدنية والعلاقات الإنسانية» .

(٢) برنارد لورانس «بيرني» مادوف : (مولود في ١٩٣٨) ، مستثمر أميركي وسمسار بورصة سابق ، تولى منصب الرئيس غير التنفيذي لبورصة ناسداك . حُكم عليه بالسجن مدى الحياة لتورطه في ما وصفت بأكبر عملية احتيال في تاريخ العالم .

(٣) وول ستريت : يشير إلى حيّ المال في مدينة نيويورك ، وهو على اسم شارع يمتد من جادة برودواي إلى الشارع الجنوبي الكائن على إيست ريفر (النهر الشرقي) في منطقة مانهاتن السفلى . مع مرور الوقت ، اقترن مصطلح «وول ستريت» بأسواق المال في الولايات المتحدة ككل ، أو المؤسسات المالية في نيويورك ، وهو مركز بورصة نيويورك ، التي تعد أكبر سوق للأوراق المالية في العالم . (المترجمة)

فيها العضو (في الجسم) دوره في النظام[1] المعقد . لا يوجد عنصر عامل وحيد ضمن المنظومة الجماعية على اطّلاع تام بآلية عمل هذه المنظومة الجماعية ، لكنه مدرك فقط لدوره الشخصي المحدَّد ، علاوة على وظيفته أو واجباته ضمن المنظومة . لعلّ هذه هي القوّة الأعظم للصهيونية ؛ إذ حوّلت مجموعة المبادئ القبلية اليهودية إلى منظومة جمعيّة عاملة وفاعلة .

إن النظر إلى الصهيونية كـ«نظام» من شأنه أن يؤدي إلى تحول رئيسي في منظورنا للشؤون العالمية الحالية . فالفلسطينيون ، على سبيل المثال ، ليسوا مجرد ضحايا للاحتلال الإسرائيلي ، فهم فعلياً ضحايا هوية سياسية عالمية فريدة من نوعها ، ونعني بها الفئة الثالثة من الناس الذين حوّلوا الأرض المقدسة إلى ملجأ يهودي محصّن . أما العراقيون فيُنظر إليهم كضحايا لأولئك المتسللين من الفئة الثالثة في الإدارتين البريطانية والأميركية ، الذين نجحوا في تحويل الجيشين الأميركي والبريطاني إلى قوة مهمات صهيونية . ويجب النظر إلى العالم الإسلامي بوصفه خاضعاً لمسعى الفئة الثالثة لجعل أيديولوجيا «التدخل الأخلاقي» معتمَدةً في الإنجيل التوسّعي الغربي . إن الأميركيين والبريطانيين ، وإلى حد ما الغرب ، جميعهم عرضة لاضطراب مالي يعرف بـ«الانكماش الائتماني» . غير أنه يمكن النظر إليه كـ«لكمة صهيونية .»

(١) يمكن وصف «النظام» بأنه تجميع هرمي لأجهزة أو منظومات تتألف من مجموعات من الأعضاء . وبينما يعمل النظام ككل ، فإن العضو بعينه يؤدي وظيفة أحادية دون أن يكون مدركاً لدوره المحدّد في الجهاز أو المنظومة كلها .

الفصل ٢
انكماش ائتماني أم لكمة صهيونية

في العام ١٩٩٢ ، عيَّن ديك تشيني ، وزير الدفاع الأميركي في حينه ، بول وُلفِوِيتس (الذي كان يتولى منصب مساعد وزير الدفاع الأميركي في ذلك الوقت) ، ونائبه لويس «سكوتر» ليبي ، لوضع دليل التخطيط الدفاعي للولايات المتحدة للسنوات المالية ١٩٩٤ - ١٩٩٩ . وسرعان ما تسرّبت الوثيقة التي عُرفت لاحقاً بـ«مبدأ وُلفُويتس» إلى صحيفة نيويورك تايمز الأميركية ، مثيرةً نقداً لاذعاً .

هذه الوثيقة المذهلة وضعت استراتيجية دمج المصالح الأميركية والصهيونية العالمية ضمن ممارسة موحَّدة . ولقد حدث كل ذلك في أعقاب انهيار الاتحاد السوفياتي ، مع جنوح أميركا كي تصبح القوة العظمى الوحيدة .

وقد كتب وُلفُويتس يقول : «إن هدفنا الأوّل هو الحيلولة دون ظهور منافس جديد ثانيةً ، سواء على أراضي الاتحاد السوفياتي السابق أو في أي مكان آخر ، يمكن أن يشكّل تهديداً للنظام ، كذاك الذي شكّله الاتحاد السوفياتي سابقاً .»[١]

بقدر ما يزعم وُلفُويتس أنه يؤمن بـ«الحرية» و«السوق الحرة» ، فإنه يوضح أن أميركا يجب ألا تسمح لأي أحد أن يشكّك بتفوّقها في السوق وفي النظام العالمي الجديد .

«على الولايات المتحدة أن تظهر القيادة اللازمة لبناء وحماية نظام جديد يتمتع بالقابلية لإقناع المنافسين المحتمَلين بأنه لا حاجة لهم كي يتطلّعوا إلى

---

(١) ظهر ذلك في النسخة المعدّلة من النص (١٦/٤١٩٩٢) التي جاءت في أعقاب الحرج الذي سببه تسريب الوثيقة أول مرة في صحيفة نيويورك تايمز .

لعب دور أكبر أو يسعوا إلى تبني وضع أكثر عدائية لحماية مصالحهم المشروعة .»

وكان وُلفُويتس قد أدرك سلفاً ، عام ١٩٩٢ ، أنّ العالم قد يبدي ممانعةً إزاء دعم فلسفته التوسعية الأميركية الخيالية . لذا ، يتعيّن على أميركا ، وفقاً له ، أن تتبنّى ممارسةً حازمةً أحادية الجانب . وبدلاً من الاعتماد على التحالفات الدولية ومبادرات الأمم المتحدة ، من الأفضل أن تعتاد أميركا على الفكرة بأنها مضطرّة كي تتصرف لوحدها . وعلى ما يبدو ، كان وُلفُويتس قد عيّن أميركا شرطياً عالمياً منذ العام ١٩٩٢ .

«على غرار التحالف الذي ناهض الحرب العراقية ، يجب أن نتوقّع تشكُّل تحالفات مستقبلية لأغراض خاصة ، بحيث لن تستمر في الغالب أبعد من الأزمة التي تواجهها ، وفي العديد من الحالات يكون هناك اتفاق عام فقط فيما بينها حول الأهداف المُراد تحقيقها . ومع ذلك ، فإنّ الإحساس بأن النظام العالمي تدعمه في النهاية الولايات المتحدة من شأنه أن يكون عامل استقرار مهمّاً .»

إذن ، يؤكِّد وُلفُويتس أن أميركا يجب أن تتدخّل في أي زمان ومكان تعتقد بأن التدخّل ضروري فيه ، لكن الصهيوني العالمي لا يلبث أن يتكشّف ؛ إذ يحرص وُلفُويتس وليبي على تأكيد التزامات الولايات المتحدة إزاء الدولة اليهودية .

«في الشرق الأوسط والخليج العربي ، نسعى إلى تعزيز الاستقرار الإقليمي ، وردع أي عدوان على أصدقائنا ومصالحنا في المنطقة ، وحماية مواطني الولايات المتحدة وممتلكاتها ، والمحافظة على سُبل وصولنا إلى الطرق الدولية الجوية والبحرية ، وإلى نفط المنطقة . إنّ الولايات المتحدة ملتزمة بأمن إسرائيل وبالمحافظة على التفوّق النوعي الذي يعدّ حاسماً لأمن إسرائيل .»

مشروع القرن الأميركي الجديد

سرعان ما قادت «مسودة» وُلفُويتس إلى تأسيس مركز بحثيّ يُعدّ الأقوى نفوذاً في واشنطن ، وهو «مشروع القرن الأميركي الجديد» (PANC) ، حيث استمر من أوائل العام ١٩٩٧ وحتى العام ٢٠٠٦ ، وكان له تأثير كبير ضمن إدارة الرئيس الأميركي السابق جورج بوش (الابن) . وقد يكون من المستحيل تحليل السياسة الأميركية والحروب التوسعية للمحافظين الجدد[١] في تلك الفترة دون أن نأخذ بالحسبان نفوذ «مشروع القرن الأميركي الجديد» . كما سيكون من المستحيل فهم انهيار السيطرة الأميركية العالمية (بصورة عامة) وفي الشرق الأوسط (على نحو خاص) دون أن نأخذ في الاعتبار فلسفة التدخّل التي يكرِّسها مشروع القرن الأميركي الجديد ودعمه للمصالح الإسرائيلية الإقليمية والعالمية .

وفقاً للصفحة الرئيسية لـ«مشروع القرن الأميركي الجديد» في موقعه على شبكة الإنترنت ، يهدف المشروع الفكري إلى «الترويج للقيادة العالمية الأميركية .»[٢] ومتبنيّاً مبدأ وُلفُويتس وليبي ، رأى مشروع القرن الأميركي الجديد أن «القيادة الأميركية جيدة لأميركا وجيدة للعالم .»[٣] ولقد ذكر

---

(١) المحافظون الجدد neo-conservatism : مجموعة سياسية أميركية تضم مفكرين استراتيجيين ومحاربين قدامى وشخصيات سياسية محسوبة على جماعات الضغط المتنفذة مثل «لوبي النفط» ، ينتمون لليمين المسيحي المتطرف ، يؤمنون بالهيمنة الأميركية المطلقة على العالم . ومنذ العام ٢٠٠١ ، اقترنت فلسفة المحافظين الجدد بنشر الديمقراطية ، على الطريقة الأميركية ، عبر دعم «الحركات الديمقراطية» في العالم ، وفق منظورهم ، وفي بعض الحالات من خلال فرض العقوبات الاقتصادية أو التدخل العسكري . (المترجمة)

(٢) الصفحة الرئيسية لمشروع القرن الأميركي الجديد على شبكة الإنترنت :

(http://www.newamericancentury.org/).

(٣) المرجع نفسه .

صراحةً بأن كل شيء جيد بالنسبة لأميركا، فهو جيد بالضرورة لبقية البشريّة[1].

من الواضح أن أنظار المنظِّرين والمفكّرين الأميركيين الجدد كانت تنصبّ على نفط العراق. بيد أن العراق مثّل أيضاً خطراً مستمراً لحليفة أميركا المحبوبة في المنطقة، وهي الدولة اليهودية، التي كان العراق أحد آخر أعدائها الذين يشكّلون تحدّياً لها. ولقد ظل تغيير النظام في العراق موقفاً ثابتاً لمشروع القرن الأميركي الجديد خلال الأعوام من ١٩٩٧ إلى ٢٠٠٠. ومن جانبه، عَمد وُلفُويتس، الذي برز كشخصية قيادية في مشروع القرن الأميركي الجديد، إلى الضغط بصورة مستمرة على إدارة كلينتون، داعياً إلى الإطاحة فوراً بصدام حسين ونظامه.

في ٢٠٠٢-٢٠٠٣، وبينما كانت أميركا وبريطانيا تستعدّان لشنّ حرب على العراق، بدا جليّاً أن إدارة بوش قد انساقت وراء الفلسفة السياسية الخاصة بمشروع القرن الأميركي الجديد.

وكما نعرف، تحولت الحرب إلى كارثة تامة. بالنسبة للعديد من المحللين السياسيين، فإن الحرب على العراق ترمز إلى بداية نهاية الإمبراطورية

---

(١) في ٣ يونيو/حزيران ١٩٩٧، أطلق مشروع القرن الأميركي الجديد «بيان المبادئ» الخاص به، وهو عبارة عن قائمة من الأفكار التي تضع أميركا كقوة شرطة عالمية، وصية على «الأخلاق»، ناشرة «الديمقراطية»، ومدافعة عن الدولة اليهودية ومصالحها، ومما ورد في البيان:

* علينا أن نزيد الإنفاق على الدفاع بصورة ملحوظة كي نفي بالتزاماتنا العالمية في الوقت الراهن ونعمل على تحديث قواتنا المسلحة من أجل المستقبل؛
* يجب أن نقوّي علاقاتنا مع الحلفاء الديمقراطيين ونتحدى الأنظمة المعادية لمصالحنا وقيمنا؛
* يتعين علينا أن نروِّج لقضية الحرية السياسية والاقتصادية في الخارج؛
* علينا أن نتقبّل المسؤولية إزاء فرادة الدور الذي تلعبه أميركا في الحفاظ على نظام عالمي ونشره على نحو يخدم أمننا، وازدهارنا، ومبادئنا.

الأميركية . وبحلول نهاية العام ٢٠٠٦ ، لم يتبقَ الكثير من المؤسسة البحثية والفكرية سيِّئة الصيت للمحافظين الجدد . فلقد بات مشروع القرن الأميركي الجديد ، مجرد «صندوق لتسجيل الرسائل الصوتية» وموقعاً إلكترونياً شبحيّ المعالم ، مع موظف وحيد يقوم بإنهاء الأمور العالقة . إلى ذلك ، اختفى أعضاء المركز البحثي سيء السمعة بهدوء ؛ بعضهم شغل مناصب سياسية إدارية وأكاديمية أقل مجداً بكثير ، في حين تقاعد آخرون أو تلاشوا . ومع ذلك ، فقد تركت فلسفتهم أكثر من مليون ونصف المليون قتيل في العراق ، كما خلّفت مليار مسلم غاضبين ومعادين لسياسة أميركا التوسعية القاسية . هذا ولم يمض وقت طويل قبل أن تنهار الفلسفة الجيوسياسية مع تعاطي جماهير العرب مع أميركا بوصفها عدوّهم ، وبعض الطغاة العرب كعملاء أميركيين .

بالنظر إلى معرفتنا وإدراكنا لما نعرفه اليوم عن النزعات التدخليّة «الأخلاقية» للمحافظين الجدد وتأييد مشروع القرن الأميركي الجديد للنزعة التوسعية ، فإن مثل هذه العواقب المدمِّرة يجب ألا تفاجئنا . ومع ذلك ، لا بد من طرح جملة تساؤلات : كيف لم تتمكن أميركا ، من خلال «إعلامها الحرّ» ومؤسستها السياسية ، إيجاد الوسيلة لمقاومة وُلفُويتس وليبي؟ بعد انتخاب جورج دبليو بوش في العام ٢٠٠٠ ، تم تعيين عدد من أعضاء مشروع القرن الأميركي الجديد أو الموقّعين على المشروع في مواقع حيوية في إدارة الرئيس . ولقد اتّسمت ردة فعل وسائل الإعلام الأميركية والمؤسسة السياسية تجاه هذا الأمر بالبطء الشديد . هذه الحقيقة في حد ذاتها تثير سؤالاً حاسماً .

كيف سمحت أميركا لنفسها بأن يتم استعبادها على يد أيديولوجيات مرتبطة بصورة متأصِّلة مع مصالح أجنبية؟

النفط مهمّ

إن الولايات المتحدة الأميركية بلدٌ كبير ، فيها شوارع كبيرة ، تسير فيها العديد من السيارات العطشى . وبالتالي ، فإن توافر نفط رخيص يعدّ مفتاح

استقرارها الاجتماعي والاقتصادي . ولقد عثر وُلفُويتس وليبي ومشروع القرن الأميركي الجديد ، كما بدا في حينه ، على طريقهم إلى الفردوس . وكانوا على وشك قتل عصفورين بحرب واحدة ؛ حيث خططوا لنهب النفط العربي ، وفي الوقت نفسه «تأمين» دولتهم اليهودية المحبوبة .

إلا أن الخطة لم تنجح ، كما نعرف جميعاً . فعلى الرغم من حربها التي شنتها عام ٢٠٠٣ ، فإن أميركا لم تتمكن من وضع يدها الثقيلة على النفط العراقي . كما أن إعادة بناء العراق ، وهي محاولة أخرى لنهب المزيد من الأموال ، لم تتحقّق بعد .

ومع ذلك ، لم يفشل وُلفُويتس تماماً ؛ إذ نجح في تدمير عدوٍّ شرس لإسرائيل . فلقد أطاح بصدام حسين . لكن يبدو أن صدام قد تمكّن ، في طريق سقوطه ، من سحب الإمبراطورية الأميركية بأكملها وما تبقى من الإمبراطورية البريطانية ، معه . أضف إلى ذلك ، أنه مع إخلاء آخر جندي أميركي أو نقله جواً من المنطقة الخضراء[1] (في بغداد) ، سيتّضح أنّ فشل عقيدة وُلفُويتس فعلياً هو الذي جعل إيران تصبح القوة العظمى الإقليمية البارزة .

عقيدة غرينسبان - المال يجعل العالم يدور

كيف فشلت أميركا في كبح جماح من هم على شاكلة وُلفُويتس لديها؟ كيفت سمحت أميركا لسياستها الخارجية أن تُصاغ على أيدي حفنة من مراكز الأبحاث عديمة الرأفة والتي تحركها الصهيونية؟ كيف حدث أن فشل «الإعلام الأميركي الحر» المزعوم في تحذير الشعب الأميركي من العدوّ في الداخل؟

---

(١) المنطقة الخضراء : هو الاسم المُتداوَل للمنطقة التي أقامتها قوات الاحتلال الدولية التي غزت العراق عام ٢٠٠٣ بقيادة الولايات المتحدة . وهي منطقة عسكرية محصنة ، تقع وسط العاصمة العراقية بغداد ، وتبلغ مساحتها نحو ١٠ كيلومترات مربعة ، تشكل مقر الحكومة العراقية ، إلى جانب مقرات المنظمات والهيئات الأجنبية ، مثل السفارة الأميركية . (المترجمة)

لعلّ المال يقدّم أحدى الإجابات ، فهو يجعل العالم فعلياً يدور ، أو على الأقل «سوق الإسكان الأميركية» .

على مدى قرون ، اكتسب بعض المصرفيين اليهود سمعة أنّهم داعمون ومولون للحروب(١) ، بل حتى قيامهم بدعم ثورة شيوعية واحدة(٢) . وعلى الرغم

---

(١) انظر موقع :.(http://hubpages.com/hub/Nathan_Rotschild_and_the_Battle_Of_Waterloo)

(٢) يُنسب للمصرفي اليهودي الأميركي - الألماني المولد - جيكوب شيف (رئيس بنك كون ، لوب وشركاهما) أنه قدّم عشرين مليون دولار أميركي للثورة البلشفية . وبعد عام من وفاته ، أودع البلاشفة أكثر من ستمائة مليون روبل في مؤسسة شيف المصرفية - كون ، لوب . (صحيفة نيويورك جورنال أميركان ، ٣ فبراير/شباط ١٩٤٩) . قد يفترض المرء خطأً أن انتقال اللوبي اليهودي العالمي من ألمانيا إلى أميركا جاء نتاج صعود هتلر . في الحقيقة ، يطرح الكاتب الإسرائيلي عاموس إيلون (في كتابه **The Pity of it All**) رؤية تاريخية مثيرة حول الموضوع . فعلى ما يبدو ، وعشية الحرب العالمية الأولى ، كانت بعض جماعات الضغط الألمانية اليهودية المتنفذة تعمل في أميركا . ومن الواضح أن اليهود الأميركيين الألمان البارزين احتجوا على انضمام أميركا إلى إنجلترا وفرنسا في الحرب . وفي تصريح لصحيفة **نيويورك تايمز** في ٢٢ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٤ ، اتهم جيكوب إتش شيف ، رئيس بنك كون ، لوب (الذي كان في ذلك الوقت ثاني أكبر مصرف خاص في الولايات المتحدة الأميركية) ، البريطانيين والفرنسيين بسعيهم إلى تدمير ألمانيا لأسباب تتعلق بالتجارة (إيلون ، ص٢٥٣) . وكان اليهود الأوربيون الشرقيون الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة ، هرباً من روسيا القيصرية المعادية للسامية ، ينظرون إلى الجيش الألماني باعتباره محرِّراً . لقد كان اليهود الأميركيون بصفة رئيسية مؤيدين لألمانيا ؛ الأمر الذي حدا بالحكومة البريطانية إلى التعامل مع هذه التطورات بجدية . ولقد اشتبه السفير البريطاني في الولايات المتحدة بوجود مؤامرة يهودية في أميركا . من هنا ، كان «وعد بلفور» إلى حد كبير محاولة لحرف المشاعر المناوئة للإنجليز وسط يهود العالم . هذه الاستراتيجية كانت ناجحة في المدى القصير على الأقل . ففي أعقاب الوعد ، وقف يهود العالم ، من الصهاينة وغير الصهاينة على حد سواء ، إلى جانب الحلفاء بصورة كبيرة .

من أن بعض اليهود الأثرياء كانوا يموّلون الحروب من أصولهم الخاصة عن طيب خاطر ، فإن آلان غرينسبان ، رئيس مجلس الاحتياطي الفدرالي للولايات المتحدة (من العام ١٩٨٧ وحتى العام ٢٠٠٦) ، توصّل إلى طريقة أكثر حنكةً لتسهيل أو على الأقل تحويل الانتباه عن الحروب التي يشنّها ليبي ووُلفُويتس ومشروع القرن الأميركي الجديد .

وبخلاف بريطانيا ذات التفكير التقليدي ، حيث جنّد توني بلير اللورد ليفي لتشجيع «أصدقاء إسرائيل» كي يتبرعوا بأموالهم إلى حزب كان على وشك أن يشنّ حرباً إجرامية ، ففي أميركا وفّر آلان غرينسبان لرئيسه ازدهاراً اقتصادياً مذهلاً . ويبدو أن الأوضاع المزدهرة في الوطن حوّلت الانتباه عن الحرب الكارثية في العراق .

إن غرينسبان ليس اقتصادياً غرّاً ، فقد كان يعرف ما الذي يفعله . لقد أدرك تماماً أنه طالما كانت أوضاع الأميركيين جيدة ، يبيعون ويشترون المنازل ، فإن رئيسه سيكون قادراً على مواصلة تطبيق «عقيدة وُلفُويتس» وفلسفة مشروع القرن الأميركي الجديد ، والقضاء على «العرب الأشرار» باسم «الديمقراطية» ، و«الليبرالية» و«الأخلاق» ، بل حتى «حقوق النساء» .

لقد نصح غرينسبان الشعب الأميركي بالشراء - مكرِّراً اللازمة القديمة : «الإنفاق مسألة وطنية» . كما نجح في إقناعهم أن عدم توفّر المال بحوزتهم أمر يجب أن لا يوقفهم ، إذ يستطيعون أن «يدفعوا لاحقاً» . وكان محقّاً نوعاً ما ، فجميعنا مضطرون كي «ندفع لاحقاً» . . . وقد لا نتوقّف عن الدفع مطلقاً .

من دون الخوْض عميقاً في علم الاقتصاد فإنّ غرينسبان ، ومن خلال عملية إلغاء مكثفة للّوائح ، هو مَن مهّد الأرضية النقدية لصعود شركات قروض الرهون العقارية : وهي سوق إقراض متخصصة بالرهون والقروض عالية المخاطــر .

في إبريل/نيسان ٢٠٠٥ ، صرح غرينسبان بالقول : «لقد جلب الابتكار [المالي] كمّاً هائلاً من المنتجات الجديدة ، كقروض الرهون العقارية والبرامج

الائتمانية المتخصصة للمهاجرين .»[1]

يا له من أمر مؤثر أن نجد أن غرينسبان يبدي اهتماماً بالغاً إزاء المهاجرين .

يواصل غرينسبان قائلاً : «مثل هذه التطورات تمثّل استجابات السوق التي قادت صناعة الخدمات المالية عبر تاريخ بلادنا . . . مع هذه التطورات في التكنولوجيا ، استغل المقرضون نماذج تقييم درجة الملاءة المالية وغيرها من التقنيات الخاصة بتمديد مهلة استحقاق الديون بكفاءة ، وذلك لطيف أوسع من المستهلكين .»

ويعترف غرينسبان بأنه يقود النظام المصرفي الأميركي إلى خوض تجربة «مبتكرة» : «فبينما كان المتقدمون بطلبات القروض من الهامشيين يُقابلون فيما مضى بالرفض ، بات الدائنون الآن قادرين بكفاءة تامة على تقييم المخاطر التي يشكّلها الأفراد الذين يتقدمون بطلب قروض ، وتسعير تلك المخاطر على نحو مناسب .»

يبدو أن الاقتصاد الغربي بأكمله يدفع ثمن فكرة غرينسبان غير العلميّة لما هو «مناسب» .

هذه التحسينات قادت إلى نموٍّ متسارع في قروض الرهن العقاري ذات التصنيف الائتماني المنخفض (القروض عالية المخاطر) ؛ والحقّ أن هذه القروض تشكّل في الوقت الحالي نحو عشرة في المئة من كل الرهونات القائمة ، وهي زيادة تفوق كثيراً النسبة التي كانت عليها في أوائل تسعينات القرن الماضي ، والمقدَّرة بواحد أو اثنين في المئة فقط .

على غرار وُلفُويتس ، كانت لدى غرينسبان خطّة . ومثل حرب وُلفُويتس ، فقد نجحت الخطّة لبعض الوقت ، لكنها بطريقة ما لم تنجح حتى النهاية . وكما

(١) تصريحات ألان غرينسبان ، في المؤتمر السنوي الرابع لأبحاث شؤون المجتمع في نظام الاحتياطي الفدرالي ، في العاصمة الأميركية واشنطن ، ٨ إبريل/ نيسان ٢٠٠٥ .

(http://www.federalreserve.gov/boarddocs/speeches/2005/20050408/default.htm).

نتذكر جميعاً إعلان الرئيس بوش - الباعث على الحرج - عن تحقيق النصر في العراق ، فإننا نعرف أيضاً أنّ الأميركيين لم يحتاجوا إلى وقت طويل كي يعترفوا بأن أميركا لن تنتصر في هذه الحرب أبداً . بالمثل ، كان يمكن لغرينسبان أن يتباهى ببضعة أرقام أولية حققها ؛ فالإقراض عالي المخاطر الذي حثّ عليه أسهم بصورة رئيسية في زيادة ملكيّات البيوت والطلب على الإسكان . ولقد ارتفعت نسبة ملكية البيوت في الولايات المتحدة ككل من ٦٤ في المئة عام ١٩٩٤ ، لتصل إلى ذروتها عام ٢٠٠٤ ، حيث بلغت ٦٩,٢ في المئة ، وهي أعلى نسبة من نوعها . وباتت سوق العقار الاستثمار الرئيسي في أميركا ، مع قيام عدد كبير من المضاربين باستثمار المال في هذه السوق . وخلال العام ٢٠٠٦ ، كانت ٢٢ في المئة من البيوت التي تم شراؤها (١,٦٥ مليون وحدة) لأغراض استثمارية ، مع ١٤ في المئة (١,٠٧ مليون وحدة) تم شراؤها كبيوت لقضاء الإجازة .

هذه الأرقام جعلت الأميركيين يعتقدون بأن اقتصادهم مزدهر فعلاً . وحين يكون الاقتصاد مزدهراً ، لا يبدو أحد معنيّاً حقّاً بالشؤون الخارجية ، وقطعاً لم يكن ليهتمّ أحد بمليون عراقي ميّت . لكن الحقيقة القاتمة لاحت فيما بعد للعديد من الأميركيين والمهاجرين العاملين الذين يكابدون العيش ، والذين كانوا عاجزين عن سداد المال الذي لم يملكوه في المقام الأول .

ونظراً لارتفاع أسعار النفط وارتفاع معدّلات الفائدة ، فقد تأخر ملايين الأميركيين الأقل حظاً عن السداد . وحين عادوا إلى بيوت الأحلام الجديدة التي اشتروها في الضواحي ، لم يكن ثمة ما يكفي من المال لديهم في صناديق مدخراتهم كي يدفعوا الرهن أو يلبوا احتياجاتهم الأساسية . وعلى الإثر ، وفي غضون فترة وجيزة ، تم استرجاع ملايين البيوت . ومن الواضح أنه لم يكن هناك أحد بمقدوره شراء تلك البيوت الجديدة المسترجَعة . كنتيجة لذلك ، أصبح فقراء أميركا أكثر فقراً من أي وقت مضى .

تماماً كما أطاح وُلفُويتس صدام حسين ، الذي جرّ الإمبراطورية الأميركية

معه ، فقد أسقط الأميركيون الفقراء ، الذين كانوا يُفترض أن يسهِّلوا حرب وُلفُويتس ، الرأسمالية الأميركية بالإضافة إلى النظام المصرفي والنقدي لأميركا . لقد تسببت سياسة غرينسبان في تدمير طبقة بأكملها ، مخلِّفةً النظام المالي لأميركا في مأزق يُقدَّر حجمه بتريليون دولار .

يذكِّرني غرينسبان ووُلفُويتس بنكتة عن جرّاح متبلِّد الإحساس ، يخرج من غرفة الجراحة بعد إجرائه عملية في القلب استغرقت ١٢ ساعة ، يقول للعائلة التي تنتظر بقلق : «لقد كانت العملية ناجحة للغاية ،لكن عزيزكم لسوء الحظ لم تكتب له النجاة .»

الأجندة الأخلاقية

على الورق ، بدت عقيدتا غرينسبان ووُلفُويتس واعدتيْن . للحقّ ، فقد كانت العملية ناجحة لكن الإمبراطورية لم تتمكن من الصمود حتى النهاية ، وهي محكوم عليها الآن بأن تخسر ريادتها . لقد قام غرينسبان ، على حدّ قوله ، بكل ما في وسعه من أجل «المهاجرين» و«الفقراء» . ومن جانبه ، عيّن وُلفُويتس أميركا العظمى كي تكون قوة شرطة عالمية . لقد قام بذلك من أجل العراقيين ، ومن أجل «الأخلاق» والديمقراطية . على الأقل هذا ما يريدنا أن نصدقه . هذا النمط بات مألوفاً ، فثمة حفنة من الناس «اللبقين» يسعون دائماً إلى إنقاذ العالم باسم مثَل أعلى أو خلافه . تراهم «يجلبون» الديمقراطية للـ«همجيّين» ، كما «يجلبون» المساواة للفقراء ، ويقومون بتطبيق مفاهيم أخلاقية مجرَّدة . لكن بصورة ما ، دائماً ما تكون الدولة اليهودية هي المستفيدة . كل ما على المرء أن يفعله هو قراءة النبي الصهيوني الأول والأبرز تيودور هرتسل كي يدرك أن هذا هو جوهر الصهيونية السياسية : جعْل القوى العظمى في خدمة القضية الصهيونية .

بعض الأميركيين تعرضوا للخداع فتبعوا وُلفُويتس وغرينسبان على نحو أعمى ، في حين كان آخرون عديدون ، خاصة ممن يتبوّؤون أرفع المناصب السياسية والاقتصادية والإعلامية ، من الغباء بحيث لم يوقفوهما في الوقت

المناسب . كان لا بدّ من لجم غرينسبان ووُلفُويتس على الأقل . وكان يجب من الأساس تحذير الأميركيين في العام ١٩٩٢ من المخاطر المحتملة فيما يتعلق بالمصالح الخارجية ضمن محور مراكزهم الاستراتيجية .

وقد تتساءلون في هذه المرحلة ما إذا كنتُ أنظر إلى الانكماش الائتماني كمكيدة صهيونية أو حتى مؤامرة يهودية . في الواقع ، إن العكس هو الصحيح ؛ فهذه ليست مكيدة ، وقطعاً ليست مؤامرة ، ذلك أن كل شيء حدث في العلن . لقد كان الأمر فعلياً حادثاً . والمريض لم يتمكن من النجاة في النهاية .

الفصل ٣
الصهيونية وأفكار هامشية أخرى

إحدى الطرق لمعاينة سياسة الهامش هي تسليط الضوء على التوتر الإشكالي بين المطالبات بالمساواة والتمسّك برؤى عالمية ذات طابع قبلي أو عشائري . هنا ، أشير إلى الازدواجية الصعبة المتضمَّنة في الرغبة بأن يُنظر إليك كأي شخص آخر ، معتبراً نفسك ، في الوقت عينه ، مختلفاً أو فريداً ، أو حتى متفوِّقاً . من النظرة الأولى ، يبدو كما لو أن المطلب الإنساني والكوني للمساواة بين الحقوق المدنية قد يعالج المسألة ويزيل أيّ توتّر بين الهامش والمركز . لكن سياسة الهامش تميل إلى تحدّي أيّة دعوة للمساواة . بالنسبة للسياسي المعني بالهامش ، فإن الاندماج ، والانعتاق ، والتكامل ، بل حتى التحرر تشكل تهديدات بالموت .

ما إن يندمج الهامش[1] أو يَتكامل[2] ، حتى يواجه «أزمة هوية» حادّة ؛ إذ يُطلب من الرعايا الهامشيين التخلي عن خصوصيتهم ، وتميّزهم ، وفرادتهم . في أعقاب التكامل أو الاندماج ، فإنّ فترة «ما قبل الثورة» البطولية للصراع المبرَّر أخلاقياً من أجل المساواة أو الحقوق المدنية تتم الاستعاضة عنها برواية مشوبة بالحنين إلى الماضي . وما كان هامشاً في ما مضى ، يصبح في مرحلة ما بعد الثورة ، كياناً لا يمكن تمييزه ، جماعةً عادية . وهكذا ، علينا أن نستنتج أن المطالبة

---

(١) يصبح جزءاً متأصلاً لا يمكن تمييزه من مجموعة أو مجتمع ما .

(١) يصبح مقبولاً ضمن مجموعة أو مجتمع أكبر .

بالمساواة لهِيَ في حدّ ذاتها آليةٌ تنطوي على هزيمة ذاتية . فما إن يصبح المرء متساوياً حتى لا يعود مختلفاً عن أي شخص آخر . ومن شأن نجاح التكامل أن يحيل الخطاب المتعلق بالهامش إلى ضجيج لا معنى له . ولا يوجد سياسي معني بالهامش يمكن أن يصادق على دعوة سياسية للاندماج . فمثل هذه الدعوة قد تعني انتحاراً سياسياً ، دماراً يلحقه المرء بنفسه على سلطته السياسية .

في المقابل ، نستطيع أن نتخيّل بسهولة الأفراد الذين يرغبون في الاندماج ؛ نستطيع أن نتصوّر أحد أعضاء ممن يطلق عليهم بـ«الهامش» يبحث عن طرق للتكامل داخل المجتمع الكلي . ولعلّ إلقاء نظرة على الواقع الاجتماعي لليهود الأوروبيين قبل الحرب العالمية الثانية توفّر فهماً معمّقاً ومثيراً للمسألة . للأسباب المذكورة آنفاً ، لم يتمّ طرح الاندماج أبداً كدعوة سياسية يهودية . بل كان الأمر أقرب إلى قيام أفراد يهود بالترحيب بالتيارات الليبرالية الأوروبية والتنعّم بها . لقد استقت الدعوة السياسية اليهودية إلهامها من وسائل مختلفة من الفصل القبلي ، أو الثقافي أو حتى العرقيّ التوجّه . ويكشف مسحٌ ميداني للواقع الغربي من حولنا صورةً من التعدّدية . فمجتمعنا عبارة عن بوتقة ينصهر فيها العديد من أفراده ، ممن كانوا في السابق هامشيين . يُضاف إلى ذلك أن العديد من الأقليات لا تنظر حتى إلى اندماجها كعملية واعية ، وإنما كاحتفال بكونها وسط آخرين . هذا الميل الطبيعي لاندماج المرء في مجتمعه المحيط يراه السياسي المعني بالهامش بوصفه تهديداً بالغاً .

الهامش

غالباً ما يشير مصطلح «الهامش» إلى أولئك الذين يعيشون ، بطريقة ما ، على حافة المجتمع . يصف المصطلح أولئك الذين يتخلّفون عن البقية ، أولئك الذين لا يستطيعون التعبير عن صوتهم ضمن الخطاب السائد . وعادة ما

يتعرض الهامش للقمع والمضايقة والإذلال ، كما أنه عرضة للدعابات التحقيرية ، والصور النمطية وما إلى ذلك . ويحتفظ الهامش بصفاته «الهامشية» مادام لا يتم طرح الإجحاف الذي يتعرض له في الخطاب العام . وما إن يتم الاعتراف بخصوصية وفرادة الهامش وقبوله من الناس ، حتى يصبح الهامش جزءاً لا يتجزّأ من المجتمع الأكبر ، بمعنى آخر يصبح مجموعة أقليّة أو حتى جزءاً مكمِّلاً ومتكاملاً ، لا يمكن تمييزه ، من الاتجاه السائد .

من هنا ، يجب القبول بأنّ كون المرء هامشياً يحدِّده ، بدرجة ما على الأقل ، المركز . لكن هل يمكن تعريف الهامش أيضاً سياسياً وفق شروطه الخاصة؟ هل كون امرأة ما سحاقية ، مثلاً ، يكفي لتكون «هامشية» بصرف النظر عن الظروف الاجتماعية المحيطة؟ كيف يقرر المرء ما إذا كان ينتمي إلى هامش بعينه؟ هل كونك يهودياً أو مسلماً أو مثليّاً أو ألبانياً إثنياً يعدّ كافياً كي تسبغ عليك «هويّة هامشية»؟

حتماً لا . نستطيع أن نفكِّر بالعديد من اليهود والمسلمين والمثليّين والسحاقيات والألبان العرقيين ، ممّن ينأون بأنفسهم عن أيّ شكل من أشكال سياسة الهوية أو الهامش . فهم لا ينظرون إلى أنفسهم كهامشيين ، كما لا يُنظر إليهم كذلك في بيئتهم . علاوة على ذلك ، فإنّ بعض الجماعات ، التي يُطلق عليها هامشيّة ، ممثَّلة إلى حدٍّ كبير على نحو مبالغ به في السياسة والإعلام . فاليهود على سبيل المثال لا يستطيعون فعلياً أن يشكوا من أن صوتهم السياسي غير مسموع أو أنه يتمّ إخراسه . وهكذا ، فإن الهامش فكرة ديناميكية ، حيث يُصاغ من خلال علاقته بالمركز . ويتم تحديد الهامش من خلال النفي أو الإنكار (أي ما ليس عليه) ، بدلاً من تحديده عبر سماته الإيجابية (أي ما هو عليه) . وهذا ما يجعل السياسة المعنية بالهامش تصوِّر الحقيقة من خلال التضادات الثنائية .

بالنسبة للأيديولوجي المثليّ فإن التضاد الثنائي هو المثليّ/الغيريّ ؛ وبالنسبة للناشطة السياسية النسويّة فالثنائية هي الأنوثة/الذكورة ؛ وبالنسبة للصهيوني

فتتمثّل في اليهودي/غير اليهودي وإرتس يسرائيل (أرض إسرائيل)[1] /الدياسبورا (الشتات)[2] .

بمجرّد أن يبدي المركز استعداده لتوسيع إدراكه لذاته ، مقدِّماً المزيد من الأفكار الليبرالية والشاملة حتى يواجه الخطاب الخاص بالهامش خطر الانقراض . وهذه هي النقطة التي تتعارض فيها سياسة الهوية والهامشية ، ليبرز التضاد الثنائي . فترى السياسي الهامشي مشغولاً بالمحافظة على النفي أو الإنكار ؛ حيث يلعب هذا النفي ، في العادة ، دوراً عبر إثارة صراع بين الهامش والمركز .

إن ما يحافظ على الصهيونية ، على سبيل المثال ، ويبقيها هو معاداة السامية . ولعلّ هذا ما يفسّر لماذا يبدي الصهاينة حماسةً بالغةً إزاء الإحصائيات المتزايدة بشأن الحوادث المتعلقة بمعاداة السامية . وبالمثل ، فإن سياسة الهامش المتعلقة بالمثليّين يغذّيها رهاب المثلية ، تماماً كما تعتاش النسوية على الشوفينية الذكورية . من المقدَّر لسياسة الهوية وسياسة الهامش أن تنخرطا في حوار أو جدال مع الخطاب السائد ، لكن لا يمكن التوصل إلى مصالحة من

(١)«إرتس يسرائيل» Eretz Yisrael ، عبارة عبرية وردت في التوراة وفي الكتابات اليهودية الدينية ، وتعني حرفياً «أرض إسرائيل» ، حيث يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى أرض فلسطين وبعض المناطق المتاخمة لها ، ومن مرادفاتها : «الأرض المقدسة» ، و«أرض الميعاد» ، وهي الأرض التي يزعم اليهود أن الله وعدهم بها! (نقلاً عن موسوعة **اليهود واليهودية والصهيونية** - المترجمة) .

(٢)الشتات : يستخدم الكاتب مصطلح Diaspora ، وهو مصطلح يوناني الأصل ، ويعني «التشتت» أو الانتشار . وعلى الرغم من اقتران «الدياسبورا» باليهود ، إلا أن هذا المصطلح بات يستخدم لوصف أي جماعة من الناس ، يتم تهجيرها من موطنها الأصلي ، كالحديث عن الدياسبورا الفلسطينية أو من يوصفون بـ«فلسطينيي الشتات» ، أي الذين هجّروا من فلسطين ويقيمون خارج أرض الآباء والأجداد ، وهي تسمية تزعج الإسرائيليين الذين يفضلون أن تقتصر صفة التشتت ، بوصفها من صفات «الضحية» ، عليهم . (المترجمة)

نوع ما . فالهامش موجود للإبقاء على النفي أو الإنكار . ومع ذلك فإنّ السؤال الذي يظل قائماً : هل يستطيع الهامشي أن يعرِّف ذاته بطريقته الخاصة؟ كي نجيب عن هذا السؤال يتعيّن علينا أولاً أن نستوعب فكرة الهوية .

الهوية، والتماهي، والأصالة

بغية تحويل «الهامشي» إلى فكرة ذات معنى ، يتعيّن على الرعيّة الهامشي أن يفترض أنّ كونه «رعيّة هامشياً» يعبّر عن هوية مهمة وحقيقية وأصيلة . فمستوطنٌ يهوديٌّ أميركيٌّ يعيش على أرض فلسطينية مصادرة يجب أن يؤمن بصدق أنّ كونه يقطن أرضاً محتلةً ، وكونه متورِّطاً في جرائم حرب وينتهك كلَّ المبادئ الأخلاقية الممكنة بصورة يومية ، بينما يخاطر بحياته وحيوات أفراد أسرته ، إنما يشكِّل تحقيقاً صريحاً لـ«ذاته الحقيقية» . يتعيّن على المستوطن أن يؤمن أنه ابن إبراهيم[1] ، وأن هذه العلاقة مع سلفه تمنحه حقوقاً خاصة فيما يتعلّق بالأرض الفلسطينية .

إن الإيمان بهوية أصيلة يعدّ حاسماً لتحقيق الذات بوصفها عاملاً حقيقياً مستقلاً بذاته ، لكن هل الأصالة ممكنة؟ قد يجيب مفكر فينومينولوجي[2] بنعم . فها هو الفيلسوف الألماني إدموند هوسرل يجادل بأننا نستطيع أن نشير إلى «الوعي» بماهية الشيء نفسه ، كما يتبدّى في أكثر الطرق وضوحاً وتميزاً وملاءمةً لشيء من نوعه . تبعاً لذلك ، يستطيع المرء أن يختبر تجربة وعي محض

---

(١) النبي إبراهيم ، وله تنسب ما توصف بالديانات الإبراهيمية ، التي تشمل الإسلام والمسيحية واليهودية . (المترجمة)

(٢) الباحث أو المختص بعلم الفينومينولوجيا Phenomenology ، أي «علم الظواهر» أو «الظاهريّات» ، وهي حركة فلسفية فكرية تطورت في أوائل القرن العشرين على يد الفيلسوف الألماني إدموند هوسرل (١٨٥٩– ١٩٣٨) . وفق تصوّر هوسرل ، فإن الفينومينولوجيا معنية بصفة رئيسية بدراسة بنى الوعي ، وصلتها بالظواهر . (المترجمة)

لذاته . هذه الفكرة هي ما عبّر عنها ديكارت(١) في مقولته الشهيرة : «أنا أفكر إذن أنا موجود .» بالمعنى الفينومينولوجي فإن «الوعي» الصرف والواضح لـ«أنا أفكر» هو ما يزيل أي شك يتعلّق بـ«الوجود في العالم» ، على الأقل ككيان مفكّرٍ .

تسعى الفينومينولوجيا إلى وصف الكيفيّة التي يتشكّل بها العالم ويُعاش من خلال أفعال واعية ، وما الذي يُمنَح لنا عبر التجربة المباشرة دون وساطة من تصوّرات مُسبَقة وأفكار نظرية . من منظور فينومينولوجي ، يمكن أن يجسّد وعي المرء الذاتي شكلاً أصيلاً ومباشراً من أشكال المعرفة .

لم يحتَجْ مارتن هايدغر(٢) ، تلميذ هوسرل ، إلى وقت طويل قبل أن يكشف عن صدوع كبرى في الاتجاه الفلسفي لأستاذه . لقد كشف هايدغر أن «الوجود في العالم» قد يكون أكثر تعقيداً نوعاً ما مما اقترحه هوسرل . لقد كان مفهوم هايدغر حول الهرمنيوطيقا(٣) هو الذي كشف مواطن ضعف نظرية الفينومينولوجيا لهوسرل . تتعامل الهرمنيوطيقا مع التفاعل الدقيق والحسّاس بين

---

(١) رينيه ديكارت : (١٥٩٦- ١٦٥٠) ، فليسوف وعالم رياضيات وكاتب فرنسي ، يعرف بـ«أبو الفلسفة الحديثة» . والعديد من نظريات الفلسفة الغربية التي تبلورت لاحقاً جاءت كرد على أطروحاته أو انعكاس لها . ولا يزال كتابه الأشهر **تأملات في الفلسفة الأولى** يعد حتى يومنا هذا مرجعاً أساسياً في معظم أقسام وكليات الفلسفة في جامعات العالم . (المترجمة)

(٢) مارتن هايدغر : (١٨٨٩- ١٩٧٦) ، فيلسوف ألماني ، يعد من أبرز فلاسفة القرن العشرين وأكثرهم جدلاً ، تناولت أفكاره وآراؤه حقولاً فكرية مختلفة ، وإن صب اهتمامه الرئيسي على ما يعرف بـ«علم الوجود» . خلّفت آراء هايدغر ونظرياته عموماً تأثيراً كبيراً في تطور الفلسفة الأوروبية المعاصرة . (المترجمة)

(٣) الهرمنيوطيقا Hermeneutics : في معناها العام تشير إلى دراسة تأويل وتفسير النصوص الأدبية والدينية . تاريخياً ، اقترنت الهرمنيوطيقا باللاهوت ، كأحد فروعه المختص بتفسير النصوص الدينية تفسيراً رمزياً معمّقاً . (المترجمة)

الموضوع المفسِّر والشيء المفسَّر . ضمن قراءته النقدية لهوسرل ، كشف هايدغر الحقيقة المربكة بأنّ الوعي المدرَك دون تدخل أو وسيط لَمن الصعب فعلياً تخيّله . فالبشر ، على ما يبدو ، «ينتمون للغة» . فاللغة موجودة ها هنا قبل مجيء الفرد إلى العالم . وما إن يدخل المرء مملكة اللغة ، حتى يجد جداراً فاصلاً من الطوب اللغوي الرمزي والملاط الثقافي الذي يعوق أية إمكانية للفرد كي يبلغ «وعياً مُدرَكاً دون وسيط» . هل نستطيع أن نفكر دون استعمال اللغة؟ هل نستطيع اختبار أو تجربة أي شيء على الإطلاق دون توسّط اللغة؟

بإقرار الجميع ، نحن قادرون على أن نستشعر الرغبة في أثناء الحلم أو حين نؤخذ بالجمال ، لكن ما إن نفكرّ في الموضوع مليّاً ، حتى نجد أنفسنا واقعين في شرك عملية التسمية . وبمجرَّد أن نسمّي ، فإنّ «الوعي المدرَك دون وسيط» كما هو مزعوم يُفقَد إلى الأبد . فبمجرّد دخولنا مملكة اللغة ، يتمّ صوْغ تصوّرنا للعالم من خلال المعاني والرموز التي ليست ملكنا استثناءً . قد يبدو أنه من غير الممكن إحراز وعي أصيل شامل . وإذا كان الحال كذلك فعلياً ، فلم يعد ثمّة مجال للتحدّث عن الهوية في إطار تعبير صادق عن «الذات الحقيقية» . ما إن نسمّي ، حتى نستسلم للغة . ومن ثمّ ، فإنّ تأمّل المرء لذاته لا يمكن أن يكشف هوية أصيلة مطلقاً .

كخيار بديل ، قد نتمكّن من التفكير بالهوية كمجموعة من الأفكار ، أو المرويّات ، أو «أساليب التفكير» أو مجموعة من القواعد السلوكية . غير أنه بدلاً من الحديث في الواقع عن «وعي ذاتي» حقيقي ترانا نمضي إلى منطقة جديدة . وبالتالي ، نتماهى مع الأفكار والمرويّات ، وأساليب التفكير ، ورؤى عالمية بعينها ، ومفاهيم ، ومحدِّدات مادية ، وما إلى ذلك . لكن يتعيّن علينا حينئذ القبول بأن تشير «الهوية» إلى «التماهي» . وبدلاً من أي شكل من أشكال «البحث الحقيقي عن الذات» ، ننخرط في نوع من التبعيّة . إن فكرة الهوية ، التي تعدّ حاسمة للغاية بالنسبة إلى ما بعد الحداثيين والمنظِّرين المعنيين بالهامش وسياسة الهوية ، ليست سوى أسطورة أو وهم . وحين نشير إلى «الهوية

الهامشية» ، فإن ما نعنيه حقاً هو نوع من التماهي . وهكذا ، فإن انجذاب المرء لجنسه ليس كافياً كي يحوّله إلى «مثلي» . وبينما يشير انجذاب المرء إلى جنسه إلى تفضيل خيار جنسي ما ، فإنّ كونه «مثليّاً» شكل من أشكال التماهي (الهامشي) ، أي انتساب قوي لمجموعة بدلاً من الانتساب للذات .

على ما يبدو ، فإن الموضوع الهامشي لا يستطيع أن يعرِّف نفسه لوحده ؛ إذ يعرِّفه النفي أو الإنكار ، كما يعرِّفه نظام رمزي قائم . وبدلاً من إيجاد «ذات حقيقية» ، فإن العملية عبارة عن مقايضة مع العالم ، وهو ما يضخّ الحياة في سياسة الهوية . عند الحديث عن الهوية ، فإننا نشير إلى محور من التماهي : ففي أحد القطبين نجد فكرة الأصالة المراوغة كنتاج لأسطورة الوعي المدرك دون وسيط ، وفي القطب الآخر نجد حالة من الاغتراب يحقّقها التماهي (ارتباط مفاهيمي أو رمزي) . وهكذا ، يجب أن يقترن بحث المرء عن هويته الحقيقية بالشقاء التام : فكلّما أمعن المرء في البحث عن ذاته الأصيلة كان أكثر انخراطاً في عملية التماهي التي ستؤدي في النهاية إلى اغتراب مطلق . هنا أتحوّل إلى تحريف لاكان[1] المدمِّر لمبدأ ديكارت ؛ فمقولة «أنا أفكر إذن أنا موجود» تصبح «أنت موجود حيثما لا تفكِّر» ؛ بل إن التفكير يقصي المرء عن نفسه .

سياسة الهوية والفلسفات الهامشية

إن مقولة : «أنظر إلى نفسي فأرى صهيونياً ، مثليّاً ، امرأة ، شعباً ، بطيخة ،» وما إلى ذلك لَتعني حقاً : إنني أتماهى مع الصهيونية ، والمثليّين ، والنساء ، وسياسة ما بعينها ، وهكذا . ما إن نفكّر ، حتى نُهزم على يد السلطة الديكتاتورية للغة . عموماً ، تتّسم المجتمعات الهامشية والطروحات السياسية المتعلقة بالهوية بأنها شديدة الحساسية إزاء سلطة اللغة ، وهذا هو السبب ربما وراء تكريس قدر كبير من

---

(١) جاك لاكان : (١٩٠١-١٩٨١) ، محلل وعالم نفس فرنسي ، قدّم إسهامات بارزة في علم التحليل النفسي والفلسفة ، ووُصف بأنه المحلل النفسي الأكثر إثارة للجدل منذ سيغموند فرويد . (المترجمة)

الجهد السياسي الهامشي إزاء فرض قيود لغوية ضمن الخطاب السائد (عادة باسم الصوابية السياسية، والليبرالية، بل حتى التسامح).

وهذا أيضاً على الأرجح السبب الذي يجعل المجتمعات الهامشية خلّاقة للغاية في استخدامها للغة. وتشكّل علاقة الصهاينة باللغة العبرية التي تمّ إحياؤها مثالاً جيداً على ذلك. فلقد أدرك الصهاينة الأوائل أن السيطرة التامة على اللغة من شأنه أن يسمح لهم بفرض رؤيتهم على أجيال لاحقة من اليهود. على أن الصهاينة ليسوا وحيدين في هذا الجانب؛ إذ تشتهر مجموعات هامشية أخرى بمفرداتها وتهجئتها ولهجاتها الخلّاقة. وتقدم القائمة التالية أشكالاً مختلفة من تهجئة كلمة امرأة/ نساء، التي استخدمتها الانفصاليّات السحاقيات في سبعينات القرن الماضي: wimmin، wimyn، womyn، womin[١]. هذه التهجئات البديلة قُصد بها «البرهنة»، رمزياً على الأقل، على أن النساء يمكن أن يكنّ «كاملات» حتى حين يتم انتزاع كلمتي رجل/ رجال من كلمتي المرأة/ النساء. «نحن، كنساء (womyn)، لسنا في مرتبة أدنى من الرجل.»[٢] إن المعنى يحدّد الرؤية العالمية. من ناحية أخرى، إذا كانت اللغة تلعب مثل هذا الدور الحاسم في السياسة «الهامشية»، فإن الهامش لا يستطيع أبداً أن يفصل نفسه عن المركز. حتى حين يرسخّ خطابه الخاص به، إلى جانب إشاراته اللغوية ونظامه الرمزي، فإنه لا يمكن إدراك هذا الخطاب إلا من خلال علاقته بالخطاب السائد وتواصله معه.

---

(١) كل من كلمة «امرأة» (Woman)، وكلمة «نساء» (Women) باللغة الإنجليزية تنتهيان بكلمة man، ومعناها «رجل»، وmen، ومعناها «رجال»، وبالتالي فإن تغيير التهجئة الأصلية للكلمتين (أي woman وwomen) بحيث نستغني عن النصف الثاني من كل كلمة، يعني الاستغناء عن الرجل أو الرجال، شكلاً ومضموناً، في اللغة كنوع من الاستغناء الرمزي عن التبعية للرجل في الواقع. (المترجمة)

(2) (http://www.msu.edu/~womyn/alternative.html).

الاستراتيجيات

لمّا كانت إمكانية الاندماج تُطرح ، من وقت لآخر ، على الهامش من قبل الجماعة المهيمنة ، فإن فرص التكامل مع المركز تتوافر للرعيّة الهامشي أحياناً . لطالما كان الأميركيون اليهود المندمجون ، على سبيل المثال ، يشعرون بإثارة مفرطة بشأن احتمالية أن يصبحوا وطنيين أميركيين . ولقد شقّ العديد من اليهود الأميركيين طريقهم إلى الطبقات القيادية عبر العالم الأكاديمي ، والنشاط المصرفي ، وسوق العقار ، والبورصة ، والإعلام ، والسياسة ، وهكذا . لكن ما إن يتبوّؤوا مواقع بارزة في المجتمع الأكبر ، حتى تواجه ميولهم الوطنية تحدياً من أولئك الذين تركوهم في الهوامش .

تتخصص جماعات الضغط الصهيونية في أميركا في اقتفاء اليهود الأثرياء والمتنفِّذين ؛ حيث يضغطون عليهم كي «يعبروا عن هويتهم علناً وبوضوح» ، وأن يُظهروا التزاماً أكبر إزاء المشروع القومي اليهودي . لعلّ ما يثير الفضول أن سياسيي الهامش المثلين يتصرفون على نحو مشابه ؛ إذ يسعى بعض سياسيي الهامش إلى «إلحاق الخزي» بأشقائهم وشقيقاتهم المنصهرين في المجتمع العام .

من شأن هذا أن يحقّق غرضيْن . الأول ، أنه ينقل رسالةً واضحةً مفادها أن الاندماج الحقيقي مستحيل : فحين تكون مثلياً تظل كذلك دائماً ؛ وبالتالي أن تكون يهودياً يعني أن تبقى دائماً يهودياً . هذا المنطق تمّ التعبير عنه في فيلم «شْرِكْ» Shrek ، وهو فيلم كرتوني هوليودي ؛ حيث كان مقدراً لشْرِكْ والأميرة فيونا أن يكتشفا أنهما «حين يُخلَقان غوليْن ، يظلان غوليْن دائماً . فالمرء لا يستطيع أن يهرب من هويته الحقيقية .» ومع ذلك ، يحظى شْرِكْ وفيونا بمحبّة أصدقائهما لكونهما إنسانيّيْن على الرغم من كونهما غوليْن .

أما الغرض الثاني فهو أنه يدفع الكائن المندمج نحو التعاون مع جماعته القديمة . فأنتَ لن تتمكن أبداً من الهرب مما أنتَ عليه ، لذا من الأفضل أن تكون فخوراً به . بيد أن الصهيوني الأميركي يمضي بهذه الأيديولوجية خطوةً أبعد ، قائلاً لليهودي المندمج : «لن تتمكن أبداً من الهرب مما أنتَ عليه ، لذا لم

لا تكون فخوراً بالأمر وتعمل لصالحنا .» هذه النقاط تساعدنا في فهم تأثير جماعات الضغط الإسرائيلية واليهودية داخل السياسات الغربية .[1] وكنّا قرأنا آنفاً كلمات الصحفي يوسف لابيد ، الذي دعا يهود الشتات إلى اغتيال العميل المنشق عن الموساد أوستروفسكي لأنه قال الحقيقة عن إسرائيل . فالمحرِّض الهامشي يطالب ، على ما يبدو ، بأن يتم الإذعان له .

لنراجع المنطق الكامن وراء هذه الاستراتيجية . من الواضح أن تصريح حاييم وايزمان فيما يتعلق بكون اليهود الإنجليز والفرنسيين والألمان يهوداً بصفة أساسية ، يشكّل دعوةً لليهود للاحتفاء بتماثلهم . فكونهم يهوداً ، تبعاً لوايزمان ، يُعتبر سمة جوهرية ؛ وكل الصفات الأخرى عارضة تقريباً . وهكذا ، قد يبدو أنه حتى «اليهود الأخيار» ، أولئك الذين يتظاهرون ضد الفظاعات الإسرائيلية بينما يصيحون «ليس باسمي» ، يقعون في مصيدة وايزمان . فهم أولاً يهود ، وفقط في هذه الحالة هم إنسانيون . عملياً ، ودون أن يدركوا ذلك ، تراهم يتبنّون استراتيجية وايزمان الخاصة بمناهضة اندماج الهامشي . تمتاز استراتيجية وايزمان بالتعقيد ، حيث يصعب التعاطي معها . وحتى مقولة : «لا أوافق إسرائيل على الرغم من أنني يهودي» ، معناه الوقوع في المصيدة . وعند الوقوع في المصيدة ، لا يستطيع المرء أن يترك العشيرة خلفه - فمن الصعب أن يؤيِّد المرء فلسفة كونيّة أو

---

(١) يتم الكشف عن اليهود الموجودين في مواقع متنفذة بطرق عدة . غالباً ما تكشف وسائل الإعلام اليهودية الجذور اليهودية للاعبين الأساسيين البارزين في السياسة ، وفي قطاع الأعمال والإعلام . على سبيل المثال ، تنشر صحيفة ذا **جويش كرونيكل** في بريطانيا أسماء اليهود في السياسة وقطاع الأعمال . كما تذكر جويش فيرتشوال لايبرري (وهي موسوعة إلكترونية شاملة على الإنترنت تغطي كل ما له علاقة بإسرائيل واليهود) أسماء اليهود العاملين في إدارات أميركية مختلفة (http://www.jewishvirtullalibrary.org/jsource/US-Israel/bushjews.html) . وإذا أراد أحد التحقق من الهوية اليهودية لشخصية مشهورة ، يمكن الرجوع إلى الموقع التالي على شبكة الإنترنت : (http://www.jewornotjew.com) .

عالمية بينما يُعرَّف سياسياً كيهودي .

في الحقبة الأولى للصهيونية ، رفض معظم اليهود الانصياع وراء أجندة وايزمان – إذ آثروا أن يروا أنفسهم كأميركيين أو بريطانيين أو فرنسيين صادف وأنهم يهود . هذا الجدال بين اليهودي الإثني في الشتات الغربي والحركة الصهيونية تطوّر إلى صراع مرير . وفي خضم صراع الصهاينة من أجل نيل الاعتراف ، أقرّوا بازدرائهم يهود الدياسبورا (الشتات) . وهذا ما شكل ، بصفة أساسية ، ولادة الانفصالية الصهيونية .

الانفصالية

«قبل الإعتاق ، كان اليهودي غريباً وسط الشعوب ، لكنه لم يفكّر للحظة باتخاذ موقف إزاء قدره . لقد شعر بأنه ينتمي إلى عرق خاص به وحده ، دون أن يوجد قاسم مشترك مع الناس الآخرين في البلد . لا يشعر اليهودي المنعتِق بالأمان في علاقاته بأقرانه من البشر ، كما أنه جبان مع الغرباء ، نزّاع إلى الشكّ حتى لجهة الشعور السري لأصدقائه .» ماكس نورداو[1] ، في خطابه الذي ألقاه في المؤتمر الصهيوني الأول في بال ، ١٨٩٧ .

يشير مصطلح «الانفصالية» إلى العملية التي تختار فيها جماعة أقلية الانفصال عن جماعة أكبر . ويتمُّ اللجوء إلى الانفصال بمجرد أنْ تستشعر الجماعة السياسية الهامشية خطراً وشيكاً من التكامل أو الذوبان في المجتمع الكلّي . ولا تشير الانفصالية إلى المحاولات لخلق مجتمعات بديلة فحسب ، بل أيضاً إلى الممارسات الإقصائية داخل المجتمعات الهامشية نفسها .

(١) ماكس سيمون نورداو : (١٨٤٩– ١٩٢٣) ، زعيم صهيوني ، وطبيب ، وكاتب ، وناقد اجتماعي . شارك في تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية مع تيودور هرتسل .

لقد تطوّرت الصهيونية كردّ فعل على إعتاق[1] يهود أوروبا ، وهي عملية بدأت مع الثورة الفرنسية ، ثم انتشرت في مختلف أنحاء أوروبا إبّان القرن التاسع عشر . وبحلول أواخر القرن التاسع عشر ، أدركت حفنة بارزة من اليهود المندمجين (مثل نورداو وهرتسل ووايزمان) أن إعتاق الشعب اليهودي قد يؤدي إلى اختفاء الهوية اليهودية . لقد كانت الحجة الصهيونية ، في ذلك الوقت ، بسيطة ؛ فقد تمّ هدْم أسوار الغيتو[2] ، ومع ذلك فشل اليهود في التكامل والانصهار داخل الحياة الأوروبية . أضف إلى ذلك ، أن الأوروبيين اتُّهموا بأنهم

(١) Emancipation تعني «إعتاق» أو «انعتاق» أو «تحرر» ، وهو مصطلح سياسي يستخدم في وصف الجهود التي تبذلها جماعة ما لنيل حقوقها السياسية أو المساواة . يستخدم الكاتب الراحل عبد الوهاب المسيري مصطلح «إعتاق» على أساس أن «عملية تحرير اليهود قد تمت ، لا بمبادرة من أعضاء الجماعات اليهودية ، وإنما نتيجةً لحركات اجتماعية وسياسية عامة داخل المجتمعات الغربية ، كما أن التحرر والتحديث كانا يُفرَضان في كثير من الأحيان فرضاً على أعضاء الجماعات اليهودية ، وبخاصة في شرق أوروبا . ويوضح المسيري أن «حركة الإعتاق ذات شقين : شق سياسي يتمثل في إعطاء اليهود حقوقهم السياسية والمدنية ، وشق اجتماعي هو إعطاء اليهود حقوقهم الاقتصادية وإتاحة فرص العمل والحراك الاجتماعي أمامهم . وثمة شق ثقافي مرتبط بالشقين السابقين . وقد تمثَّل الإعتاق السياسي والمدني في هدم أسوار الغيتو وإسقاط كثير من مؤسسات الإدارة الذاتية وحصول اليهود على المساواة السياسية .» (**موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**- المترجمة)

(٢) الغيتو : قطاع من مدينة ما يعيش فيه ، بالاختيار أو بالإكراه ، مجموعة من الناس مختلفون عن الأغلبية ، بسبب خلفيتهم العرقية أو لأسباب اجتماعية أو ثقافية أو دينية . استخدم المصطلح أول مرة في مدينة البندقية بإيطاليا في إشارة إلى المنطقة التي يقطنها اليهود ، حيث اقترن الغيتو في أوروبا بالأحياء التي يعيش فيها اليهود . عموماً ، يشير مصطلح «غيتو» إلى أحياء في المدن مقترنة في الغالب بشريحة سكانية ، من أصول عرقية أو أثنية معينة ، تعيش في ظروف اجتماعية واقتصادية بائسة . (المترجمة)

أظهروا تعاطفاً غير صادق تجاه اليهود ، حيث عبّر نورداو عن ذلك بقوله : «إن الشعوب التي أعتقت اليهود أساءت فهم مشاعرهم الخاصة ، فلكي يحقق الإعتاق تأثيره الكامل ، يجب أن يكون وُجدانياً قبل أن يتم إعلانه بالقانون .»[1] ينطوي هذا الطرح على سمة أساسية : عليك أولاً أن تحبني ، وفقط حينها تستطيع أن تتزوجني . هذه الفكرة تبدو معقولة ، لكن علينا أن نتذكّر أنه ، وخلافاً لما هو عليه الحال في العلاقة الغرامية ، فإن الحياة المدنية مبنيّة على الاحترام لا الحب . أتوقع من جاري أن يحترمني ؛ وقد يحبّني أيضاً ، لكنني لا أستطيع أن أطالبه بذلك .

لدعم وجهات نظرهم ، خلق الصهاينة صورةً من معاداة السامية الناشئة . على أن هذه الصورة جانبها الصواب تماماً . في الحقيقة ، وبحلول أواخر القرن التاسع عشر ، كان اليهود متغلغلين فعلياً في كل جانب من جوانب الحياة المدنية الأوروبية . والأكثر من ذلك أنّ الزعماء الصهاينة أنفسهم كانوا مندمجين بصورة كبيرة ضمن سياقهم المسيحي . بيد أنه كانت ثمة حاجة لأسطورة من الاضطهاد المتواصل .

في ١٥ أكتوبر/تشرين الأول ١٨٩٤ ، تم احتجاز النقيب الفرنسي ألفريد دريفوس ، وهو العضو اليهودي الوحيد في هيئة أركان الجيش الفرنسي ، بتهمة التجسس لصالح ألمانيا . وقد أصرّ دريفوس ، طيلة محاكمته ، على براءته . بالنسبة للعديدين ، كان من الجليّ أن دريفوس ضحية زعم عنصري خسيس . ولقد أبدى تيودور هرتسل ، الذي كان صحفياً فينيسياً بارزاً سافر إلى باريس لتغطية المحاكمة ، تأثّره بالواقعة البطولية ، واستخلص منها أن الاندماج محكوم عليه بالفشل . الحلّ الوحيد ، وفقاً لهرتسل ، هو «أرض موعودة ، نستطيع أن

(١) ماكس نورداو ، في خطابه في المؤتمر الصهيوني الأول ، بال ، ١٨٩٧ .

نملك فيها أنوفاً معقوفة[١] ، ولحى حمراء أو سوداء . . . دون أن نُحتقَر بسبب ذلك ، حيث نستطيع أن نعيش على الأقل كرجال أحرار على أرضنا الخاصة ، وحيث نستطيع أن نموت بسلام على أرض آبائنا» (كتاب **الدولة اليهودية** لتيودور هرتسل) . والحق أن محاكمة دريفوس أثارت موجة عارمة من مناصرة غير اليهود . وفي النهاية ، استسلمت الحكومة الفرنسية للضغط الشعبي ، وخففت الحكم الصادر بحقه . وفي أعقاب دعم المثقفين الفرنسيين واليسار الأوروبي ، فقدت الصهيونية سطوتها في فرنسا . لقد شعر اليهود الفرنسيون بانعتاق حقيقي . وبدا استياء هرتسل واضحاً في المقتطف التالي من مذكراته .» [اليهود الفرنسيون] يسعون للحصول على الحماية من الاشتراكيين ومدمِّري النظام المدني الحالي . . في الحقيقة هم ليسوا يهوداً بعد الآن . قطعاً ، هم ليسوا فرنسيين أيضاً . من المحتمل أن يصبحوا زعماء الأناركية[٢] الأوروبية .»

يبدو أن هرتسل ، كسياسي معني بالهامش ، قد تلمّس أفضل من أي شخص آخر التهديد الوشيك للاندماج والانصهار اليهودي . هذا المثال يوضّح جوهر الأيديولوجيات الانفصالية - فالهدف هو نصب حواجز بين الناس . إن الانفصالية هي استراتيجية بناء الغيتوهات ، ولقد اتبع الصهاينة هذه

---

(١) اقترنت صفة «الأنوف المعقوفة» باليهود ، وهي صفة كاريكاتورية أكثر منها حقيقية ، حيث يعتبر الإشارة لها ضرباً من الاحتقار أو الإساءة للشخصية اليهودية ، وباتت مقترنة - شأنها في ذلك شأن سمات وإشارات ورموز أخرى - بتهمة «معاداة السامية» جاهزة الاستخدام . (المترجمة)

(٢) Anarchism : الأناركية ، هي «الفوضوية» أو «اللاسلطوية» ، تُعرَّف عموماً بأنها الفلسفة السياسية التي تنظر إلى «الدولة» باعتبارها كياناً غير مرغوب فيه وغير ضروري ، بل وضار ، حيث تناهض الأناركية السلطة والتنظيم الهرمي الذي يحكم العلاقات بين البشر . كلمة «أناركية» مشتقة من الكلمة اليونانية anarchos التي تعني « بلا حكّام» ، ويطالب الأناركيون بمجتمعات لا تخضع لإطار دول ، وإنما تُبنى على علاقات وروابط تطوعية لا تخضع لتراتبية هرمية أو تقسيمات هيكلية . (المترجمة)

الاستراتيجية منذ أواخر القرن التاسع عشر .

وتعدّ قضية الانفصالية السحاقية مشابهة تماماً . ففي سبعينات القرن الماضي ، حين كانت النساء يجسرن الفجوات الاجتماعية ، محقِّقات مساواة أكبر ، ظهرت حركة نسوية نضالية راديكالية . في مقالة بعنوان «طريق كل الانفصاليات»(١) ، كتبت لودو ماكفينغرز تقول عن هذه الحركة : «إنهن يكرهن الرجال ، ينظرن إلى النساء كطبقة جنسية ، يؤيدن الحتمية البيولوجية ، يرفضن الإصلاح ، ويحتقرن اليسار .»

تتمثّل الخلاصة الضمنية للانفصالية السحاقية في أن الرجال لا يستطيعون أن يتغيروا أو لن يتغيروا . بناء على ذلك ، تستطيع النساء أن يضمنّ حريتهن فقط من خلال فصل أنفسهن عن الرجال . بل إنّ بعض النساء الانفصاليات يقترحن بأن ثمة حاجة إلى مواجهة عنيفة مع الرجال للإطاحة بسلطتهم . وليس مفاجئاً أن بعض أكثر الانفصاليات السحاقيات راديكاليةً قد يفضلن العيش في عالم خالٍ تماماً من الرجال ، بل إن البعض منهنّ ذهبن إلى حدّ الإعلان بأن «الرجال الميِّتين لا يغتصبون» . هذه المقولة تُحاكي العبارة الإسرائيلية الشائعة : «العربي الطيِّب هو العربي الميِّت .»

إن التماثلات بين الانفصاليين الصهاينة والانفصاليات النسويات جليّة . علاوة على ذلك ، تنصهر الأيديولوجيتان الراديكاليتان ، بين الفينة والأخرى ، في صوت واحد . فحين طُرح على الناشطة النسوية اليهودية الأميركية أندريا دْواركِن بأن فكرة أرض النساء مجنونة ، أجابت : «ألم يقولوا ذلك عن إسرائيل؟ ألم يعتقد العالم أن تيودور هرتسل ، مؤسس الحركة الصهيونية ، مخبول؟ لقد حصل اليهود على بلد لأنهم تعرّضوا للاضطهاد ، قالوا كفى ، وقرروا ماذا يريدون ، ومضوا ، وقاتلوا في سبيل ذلك . على النساء أن يفعلن الشيء ذاته . وإذا لم تكن المرأة تريد أن تعيش في أرض النساء ، فليكن! فليس

---

(1) Blatant Lesbianism, 1978 Sydny Magazine. P.10-13

كل اليهود يعيشون في إسرائيل ، لكنها موجودة هناك ، مكان يمكن اللجوء إليه في حال وقع اضطهاد ما . . كما قاتل اليهود في سبيل إسرائيل ، تمتلك النساء إذن الحق في إعدام - أي نعم إعدام - المغتصبين ، وعلى الدولة ألا تتدخل في الأمر .»[١] في موقع سابق من المقابلة نفسها ، اعترفت دوارکِن ، التي وصفتها صحيفة **الغارديان** بأنها ناشطة من «أقصى اليسار» ، بأنها «تظل مؤيدة لحق إسرائيل في الوجود ، وحقّ اليهود في أن تكون لهم دولتهم الخاصة ، وحق اليهود أن يقاتلوا أولئك الذين حاولوا وما زالوا يحاولون قتلهم ؛ تماماً كما تعتقد بأن النساء يملكن الحق بأن يقاتلن الرجال الذين أساؤوا لهن ، بل وقتلهم .» قد تمثّل دواركِن آراء أقلية صغيرة ، غير ذات شأن ، لكن التماثلات الأيديولوجية بين الصهيونية والانفصالية النسوية بيّنة . على أن ثمة فرقاً مهماً ، وهو أن إسرائيل تمتلك المئات من القنابل النووية .

منذُ زمن بعيد ، توصلتُ إلى أنه من خلال استبدال كلمة «يهودي» بكلمة «امرأة» ، وكلمة «غير يهودي» بكلمة «رجل» ، فإنه بالإمكان تحويل نصّ انفصالي سحاقي بسلاسة إلى كتيّب صهيوني راديكالي ، والعكس صحيح . إنّ الانفصالية السحاقية شكل من أشكال «النسوية القُصوى» ؛ حيث تتطلب الانتقال من الإدراك بأن «كل امرأة يمكن أن تكون سحاقية» إلى الفهم الراديكالي بأن «كل امرأة يجب أن تكون سحاقية .»[٢] بالمثل ، قد يجادل صهيوني بأن «كل يهودي يجب أن يكون صهيونياً» ، بدلاً من أن «كل يهودي يمكن أن يكون صهيونياً .» وقد يذهب بعض الصهاينة أبعد ، محاججين بأنه بما أن إسرائيل «دولة الشعب اليهودي» ، فإن كل يهودي يمكن أن يُنظر إليه كصهيوني . تبعاً لذلك ، يجب اعتبار رفض يهودي ما الصهيونية فعلَ خيانة ، أو

(١) صحيفة الغارديان ، ١٣ مايو/ أيار ٢٠٠٠ .

(2) Women, Wimmin, Womyn, Womin, Whippets - On Lesbian Separatism, Julie McCrossin, (http://www.takver.com/history/womyn.htm)

على أقل تقدير شكلاً من أشكال كراهية الذات .

من الطبيعي أن معظم النساء لن يقبلن بجدية تصنيفيهن على يد نسويات راديكاليات . أستطيع أن أقول إن أغلبية اليهود ، على الأقل قبل الحرب العالمية الثانية ، شعروا بالاستياء من الدعوة الصهيونية . ويبدو أن الهولوكوست واستغلالها ، والنصر العسكري الإسرائيلي غير المسبوق في العام ١٩٦٧ ، قد غيّرت موقف يهود العالم نحو الصهيونية وإسرائيل .

لقد كانت الهولوكوست «نصراً صهيونياً» ، تماماً كما يتم تأويل كل عملية اغتصاب فردية من قبل المناصرات للأيديولوجيا الانفصالية النسوية باعتبارها برهاناً على صحّة نظرياتهن . وكما رأينا ، يتم تكريس السياسة المعنية بالهامش عن طريق عداوة المرء لنفسه . وبغية تعزيز سياسة الهامش ، تصبح الكراهية الموجهة نحو الذات مفيدة . ويعتمد الصهاينة على الكُنس (معابد اليهود) التي يتم إحراقها ، كما تعتمد بعض المحرِّضات من الانفصاليات السحاقيات على ضحايا الاغتصاب . ولو لم تكن هناك كُنُس محروقة ، فقد يذهب جهاز الموساد الإسرائيلي إلى حد القيام بإحراق بعض الكُنُس بنفسه (١) . وضمن الرؤية العالمية الانفصالية ، يعدّ مثل هذا السلوك مشروعاً لأن الغاية أهم بكثير من الوسيلة ، كما أن الحملة أكثر أهمية من أية نزاهة أخلاقية .

---

(١) يناقش نعيم جلعادي ، في كتابه : **فضائح بن غوريون : كيف قام الموساد والهاغاناه بإبعاد اليهود** ، الجرائم التي ارتكبها الصهاينة في سعيهم المحموم إلى استيراد عمالة يهودية خام من العراق في أوائل خمسينات القرن العشرين . يروي جلعادي قصة المحاولة الصهيونية لإيذاء يهود العراق بغية نشر الرسالة الصهيونية . «في مساعٍ لتصوير العراقيين بأنهم معادون للأميركيين ولترهيب اليهود ، زرع الصهاينة قنابل في مكتبة وكالة المعلومات الأميركية وفي الكُنُس . وسرعان ما بدأت منشورات تظهر تحثّ اليهود على الهرب إلى إسرائيل .»

(http://www.bintjbeil.com/E/occupation/ameu_iraqjews.html)

الفصل ٤

الصابرا والمستوطن ويهودي الدياسبورا

«الصابرا ، صلبٌ ورقيق- لقد أُسبغ لقب صابرا على الإسرائيلي المولود داخل إسرائيل وذلك على اسم نبتة الصبّار البرية ، التي تزدهر في تربة إسرائيل القاحلة ؛ حيث إن ثمرة هذه النبتة مليئة بالشوك من الخارج وطريّة من الداخل . وهذا يعني ضمناً أن يهود الصابرا قساة ، فظّون ، يصعب اختراقهم ، لكنهم ، وعلى نحو مدهش ، يتمتعون بالرقّة والعذوبة في دواخلهم . هذا اللقب أُعطِيَ بمحبة ، وهو مفعم الكبرياء على يد شبابنا ، الذين يتمتعون بسمعة أنهم لا يمكن استطعامهم من المظاهر الخارجية . لكنك لا تبدو يهودياً هو الإطراء الملتبس الذي عادة ما يتلقّاه شاب إسرائيلي حين يسافر إلى الخارج . إن يهودي الصابرا في العادة يفوق أباه طولاً ، وغالباً ما يكون أشقر ، يغطي النمش بشرته ، وهو في الغالب أزرق العينين ، أفطس الأنف . وهو مزهوّ بنفسه ، قويّ البنية ، ويحبّ أن يمشي بصندل مفتوح بتراخٍ وكسل .» **صلبٌ ورقيق** ، مجسّد فني لغابي غوفبارغ ، ١٩٩٢ .

كما ذكرتُ في الفصل السابق ، تتّسم الهويات الهامشية بسرعتها في تبنّي قواعد سلوكية ومحدِّدات رمزية تجعل بالإمكان تمييز الرعية الهامشي بجلاء . على السطح ، يبدو الأمر منطقياً ؛ فالرعيّة الهامشي يحتفي بانفصاله عن الجماعة أو المجتمع العام . ويبدو كما لو أن الرعية الهامشي يكشف عن «ذاته الحقيقية» . بيد أنه ، وكما ناقشنا سابقاً ، لا يمكن التعاطي مع فكرة «هوية سياسية جلية حقيقية» بصورة جدّية . ومع ذلك ، نستطيع أن نسمح لأنفسنا بأن نتحرك خطوة إلى الأمام . فإذا تمّ استثناء فكرة «الذات الحقيقية» ، تكون ثمة

حاجة إذن لوسيلة خارجية من التماهي . مثل هذا الإجراء يساعد الرعية الهامشي في تحديد نفسه ، لكنه يعمل كذلك على الترويج للهوية السياسية المنبثقة داخل البنية الاجتماعية الأكبر .

عموماً ، يعدّ المظهر والمحدِّدات الرمزية الأخرى ، مثل قلنسوة الرأس أو الشارات ، أكثر أهمية بكثير من العمق الأيديولوجي . وتجعل الهويات الهامشية نفسها سهلة التمييز وسط الحشد . وهذا ينطبق على الصابرا ، واليهودي المناهض للصهيونية ، والمستوطن ، واليهودي الأرثوذكسي ، كما ينطبق أيضاً على أية هوية هامشية أخرى .

من منظور صهيوني ما قبل العام ١٩٦٧ ، فإن الصابرا (على حد وصف غابي غوفبارغ أعلاه) هو يهودي انفصالي . فهو ليس مختلفاً وحسب ، بل يحتفي أيضاً بكل فروقاته . وهو يُعرَّف من خلال النفي بالمقارنة مع يهودي الدياسبورا «غير الأصيل» . «كنبتة الصبار البرية» فإن الصابرا «يزدهر في التربة القاحلة» ، بينما يذبل يهودي الدياسبورا في أوروبا أو أميركا . إن الصابرا «مليء بالشوك من الخارج وطريّ من الداخل» ، بينما تبدو شخصية الدياسبورا «الرأسمالي المضارب» ليّنة من الخارج ، لكنها في منتهى الدهاء حين يتعلق الأمر بقطاع الأعمال . إن الصابرا «صلبٌ ورقيق» ، يستطيع أن يقتل كـ«رجل» حقيقي حين «يكون مضطراً لذلك» ، لكن هذا لا يمنعه من النحيب على «حائط المبكى» بمجرّد الانتهاء من غزو البلدة القديمة في القدس (١٩٦٧)[(١)] . يستطيع أن يقوم بتطهير عرقي للشعب الفلسطيني بأكمله يوم الجمعة ، ثم يحضر تظاهرة تنظمها حركة «السلام الآن» في تل أبيب مساء السبت . بخلاف

---

(١) الإسرائيليون مفتونون بالصور التي تعود إلى العام ١٩٦٧ لمظليّي الجيش الإسرائيلي ، الذين يمثلون نخبة يهود الصابرا ، وهم ينشجون بجوار حائط المبكى بعدما انتهوا من غزوهم البلدة القديمة في القدس . تظهر الصور مفارقة رمزية بين عملية ١٩٦٧ العسكرية «البطولية»وبين السمة الإنسانية العاطفية المتّقدة للصابرا .

يهودي الدياسبورا «الرقيق» ، يتّسم الصابرا بالصلابة – وهو «يفوق أباه طولاً» . وكجندي ألماني «غالباً ما يكون أشقر . . . أزرق العينين في الغالب . . . وهو مزهوّ بنفسه ، قويّ البنية .» لكنه خلافاً للجندي الألماني ، هو طليق ، يحب أن يمشي بصندل توراتي ، «بتراخ وكسل . . .» . بصفة أساسية ، هو نوع من خليط عجيب من قائد في وحدة «الإسّ إس»[1] وموسى التوراتي .

قد تبدو هذه الصورة الكاريكاتورية مثيرة ، لكنه لا يوجد شيء حقيقي أو أصيل بشأنها . كيهودي علماني إسرائيلي بين العام ١٩٤٨ وثمانينات القرن الماضي ، كُتب على المرء المشاركة «طواعيةً» في محاكاة جمعية لأيقونة متخيَّلة من **الإسرائيلي الجديد** . أعتقد أن هذه العملية وحدها جرّدت الإسرائيليين الأوائل من المقدرة على تجربة أي شيء قد يشبه الأصالة . واحتفوا بدلاً من ذلك بانتصاراتهم من خلال التماهي مع نموذج يهودي حديث الولادة .

تشكّل ولادة اليهودي المستوطن في الضفة الغربية (في أعقاب حرب ١٩٦٧) ، وهو مقاتل مشيحاني متطرّف يعتزم مصادرة «أرض إسرائيل التوراتية» بالكامل باسم الله ، محاولة لإرجاع الصابرا إلى **الشْتتْل**[2] . إنها محاولة لحلّ هوية الصابرا الانفصامية . على غرار الصابرا ، يسير المستوطن منتعلاً صندلاً توراتياً في الشتاء ؛ وكالصابرا فهو رياضي وقويّ البنية (إلى أن يبلغ الثانية

---

(١) وحدة الـ«إس إس» SS أو «شوتسشتافل» ، هي وحدة ألمانية شبه عسكرية ، تابعة للحزب النازي ، حظرت بعد الحرب العالمية الثانية على خلفية مسؤوليتها عن ارتكاب العديد من الجرائم ضد الإنسانية . (المترجمة)

(٢) شتتل Shtetl : صيغة تصغير يديشية مشتقة من كلمة «شتوت» ومعناها «مدينة» ، والشتتل عبارة عن بلدة صغيرة ، أشبه بمستوطنة ، ذات تجمع يهودي كبير ، حيث انتشرت هذه البلدات «الشتتلات» في أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية . ويستخدم مفهوم «ثقافة الشتتل» كتعبير مجازي عن أسلوب الحياة التقليدي ليهود أوروبا الشرقيين في القرن التاسع عشر . ويتم تصوير الشتتلات كمجتمعات تقيّة ، عصية على التغيير . (المترجمة)

والعشرين من العمر ، حين تبرز له كرش ضخمة كرمز على الصحة اليهودية الجيدة) . بيد أن المستوطن ، وخلافاً للصابرا ، يضع قلنسوة على رأسه ، ويتدلى التسيتسيت[1] من بنطلونه ، كما تغطي مساحات من الشعر وجهه الشاب . وهو ليس وسيماً على الإطلاق . ولا حاجة بنا للقول إنه لا يشبه جندي الفيرماخت[2] ، بل يشبه كثيراً يهودي الدياسبورا برشاش عوزي أو بندقية إم١٦ تزنّر كتفه وصدره . إنه يبدو كيهودي لأنه يهودي ، وهو فخور لأنه كذلك .

بقدر ما كانت صياغة هوية الصابرا محاولة انفصالية صهيونية علمانية ضمن سياق سياسة الهوية اليهودية والقومية اليهودية المنبثقة ، فقد تمكّن مستوطن الضفة الغربية من بناء سلسلة متصلة متناغمة بين اليهودي والديانة اليهودية والأيديولوجيا اليهودية . إن المستوطن كائن أصيل متجانس ، وهو مفعم بالمعاني المترابطة منطقياً . حتى حين يصادر أرضاً أو يقتل عائلة فلسطينية فإنه يعرف تماماً الغايةَ من فعلته . بالنسبة له ، يعدّ حائط المبكى مكاناً مقدّساً يعبد فيه إلهه . لا يطلق المستوطن النار ويبكي ؛ فهو مدفوع بإيمان راسخ . وكالصابرا ، يتميّز المستوطن بمجموعة من المحدِّدات الرمزية : قلنسوة محبوكة ، وصندل توراتي ، وتسيتسيت ، وبندقية أوتوماتيكية ، ولحية . غير أن كلّ واحدة من هذه المحدِّدات أو المعرِّفات الرمزية مرتبطة بصورة جوهرية بمعتقده اليهودي والأيديولوجيا اليهودية التي يعتنقها . بكلمات أخرى ، تمكّن المستوطن من ربط «الداخل» أي الروح اليهودية و«الخارج» أي المظهر ، في تجربة يهودية ذات مغزى . هذه الحقيقة وحدها قد تفسِّر لماذا بهتت هوية الصابرا على مدى السنين ، بينما نضجت شخصية المستوطن لتصبح قوةً سياسية إسرائيلية

---

(١) تسيتسيت Tzitzit : حواشي أو حواف محبوكة بطريقة معينة يرتديها الذكور اليهود المتشددون دينياً ، حيث تكون متصلة بالزوايا الأربع لما يعرف بالـ«تاليت» ، وهو شال الصلاة .

(٢) الـ«فيرماخت» Wehrmacht : «قوات الدفاع» ، وهو اسم القوات المسلحة الموحدة لألمانيا في الفترة من ١٩٣٥ إلى ١٩٤٥ . ولقد تألفت من الجيش الألماني والبحرية وسلاح الجو . (المترجمة)

تدعمها جماعات الضغط اليهودية حول العالم على نحو كبير .

بالمفهوم التاريخي ، ظهر مستوطن الضفة الغربية في المشهد تماماً بعد النصر العسكري الإسرائيلي عام ١٩٦٧ . إلى حدٍّ ما ، يدلّ المستوطن على تحوّل الصهيونية إلى حركة ما بعد ثورية ؛ وبينما قُدِّر على **الصابرا** الانتقال بالدولة اليهودية من «الحلم» إلى حقيقة مادية ، كان المستوطن حاضراً كي يغذي الحقيقة الجديدة بمعنى واضح . لقد كان المستوطن هناك لجَسر الهوّة بين الدياسبورا **وإرتس يسرائيل** (أرض إسرائيل) . إذا كان قد تمّ تعريف الصهيونية مبدئياً بـ«نفي الدياسبورا»[1] ، فقد وُجد المستوطن هناك لتدشين المرحلة الصهيونية الجديدة ؛ حيث دمج المستوطن كل الجوانب المختلفة من اليهودية في معنى عضوي موحَّد وفي ممارسة سياسية بسيطة . لقد أصبح المستوطن الترجمة الجديدة والأكثر شعبية لـ«العودة اليهودية للوطن» . من منظور يهودي ، نجح المستوطن في نقل الصهيونية إلى ما وراء مرحلتها الانفصالية ؛ فتحولت الصهيونية إلى أيديولوجيا شاملة «لليهود فقط» ، وهو ما وفّر نوعاً ما أيديولوجيا وحّدت القبيلة على مستويات عدّة . هذه الحقيقة قد توضِّح التصاعد المستمر لليمين في إسرائيل منذ العام ١٩٦٧ .

لكن ثمة هنا تحريفاً مثيراً . فمن خلال ربط **إرتس يسرائيل** (أرض إسرائيل) والدياسبورا (الشتات) في سلسلة يهودية جديدة متّصلة ، يستبدل المستوطن «نفي الدياسبورا» (الذي كان متأصِّلاً في الخطاب الصهيوني القديم) بـ«نفي الأغيار»- أي نفي أو إنكار غير اليهود - (وهو عودة إلى الشرط اليهودي ما قبل الصهيونية) . في صيغة الصهيونية اليمينية ، نضجت هذه الأيديولوجية لتتحوّل إلى القوة السياسية الأكثر تنفذاً في إسرائيل . والسبب في ذلك بسيط - فهي قادرة على ربط السياسة اليهودية والديانة اليهودية والروح القبلية اليهودية معاً .

---

(١) يعد نفي الدياسبورا افتراضاً مركزياً في الاتجاهات الصهيونية الأولى ، وهو موجود لرفض إمكانية الانعتاق والتكامل والاندماج اليهودي في الدياسبورا (أي الشتات) .

ببطء لكن بثبات ، تمكّنت هذه الأيديولوجيا اليمينية ، التي لها جذورها الأيديولوجية في حركة المستوطنين ، من توحيد معظم قطاعات الشعب اليهودي خلف الصهيونية . بيد أن هذه العملية ، التي يُنظر إليها بوصفها صهينة يهود العالم ، ليست خالية تماماً من الأخطاء . فهي تفصل يهود الدياسبورا عن واقعهم الاجتماعي المحيط بهم ، كما توقف عملية الاندماج اليهودي ، وبدلاً من ذلك يصبح اليهودي ثانيةً عضواً في قبيلة متميّزة لها مصالح سياسية وعالمية . كذلك ، تُحوِّل الخطاب اليهودي للدياسبورا إلى خطاب انفصالي وهامشي في الغرب . فما إن يتصهين يهودي الدياسبورا ، حتى يصبح خاضعاً للسياسة الهامشية الصهيونية في مجتمعاته ذات الصلة . إلى درجة ما ، قد ينظر البعض إلى هذا الأمر باعتباره إنجازاً صهيونياً عظيماً . غير أنه أبعد ما يكون عن حل مؤاتٍ للمسألة اليهودية ، حيث يترك يهودي الدياسبورا معلّقاً ؛ فهو ليس مندمجاً في بيئته الاجتماعية المحيطة كما أنه ليس مستقرّاً في دولة يهودية .

أضف إلى ذلك ، وبالنظر إلى الطبيعةالعنصرية التوسّعية المتمحورة حول اليهودية للدولة اليهودية ، فإن يهودي الدياسبورا يجد نفسه مرتبطاً فعلياً بأيديولوجيا متعصِّبة تتّسم بالاستعلاء العرقي ، وبقائمة لا حصر لها من الجرائم ضدّ الإنسانية .

يتضّح لنا أن الخطاب السياسي اليهودي يأخذ دائماً صيغة النفي أو الإنكار . فاليهودي السياسي يقف دائماً ضدّ شيء ما ، أو منفصل عن أي شيء آخر . وهذا الأمر أبعد ما يكون عن وصفة مثالية لحياة أخلاقية ، مسالمة ، مدفوعة بالمصالحة والتآلف .

الفصل ٥
فاغن مقابل آينشتاين

يفتخر اليهود في الغالب بتعريف أنفسهم بأنهم يهود . بعض اليهود ، على سبيل المثال ، يرفعون الراية اليهودية بزهوّ (يهود من أجل السلام ، يهود من أجل العدالة ، يهود من أجل يسوع ، وهكذا) ، كما لو أنهم يعتقدون أن كلمة «يهودي» تنطوي على سمات أخلاقية خاصة . غير أنهم قد يشعرون بإساءة بالغة إذا نعتهم الآخرون بـ«يهودي» . فالإيحاء إلى يهودي بـ«أنّه يهودي» أو «أنّه يتصرف كيهودي» يمكن أن يُنظر إليه كإساءة عنصرية خطيرة .

تجدر الملاحظة ، لغوياً ، أن كلمة «يهودي» (Jew) أو «يهودية» (Jewish) كمحدِّد أو معرِّف رمزي تعمل كاسم وكصفة معاً . وبقدر ما يشير المصطلح إلى «شيء» ما ، فهو أيضاً وصفي . وتميل المحدِّدات الرمزية المقترنة بسياسة الهوية والأيديولوجيا إلى أن تكون لها صيغة صرفية أو دلالية مزدوجة . فكلمات «نسوية» ، و«اشتراكي» ، و«نازي» ، و«استعلائي أبيض» يمكن أن تشير إلى شخص ما ، لكنها يمكن أن تكون أيضاً كلمات وصفية . على سبيل المثال ، فإن الناشطة النسويّة التي ترفع راية النسوية مزهوةً قد تتقبّل أيضاً بأن وصفها بـ«نسوية» ينسب لها سمات ومعتقدات أيديولوجية بعينها . على نحو حاسم ، نقبل أيضاً أن كون المرء نازياً أو اشتراكياً أو كون المرأة نسوية هي مسألة اختيار سياسي . إن الناس لا يولدون اشتراكيين أو نسويّات . لكنهم يتبنّون هذه الأيديولوجيات أو الهويات في وقت لاحق من حياتهم .

من هذا المنظور ، فإن المعنى الدلالي لكلمة «يهودي» أو المعرِّف الرمزي لها مختلف نوعاً ما بالنسبة لليهود المولودين ضمن هوية جمعيّة . وكأي حالة تقريباً

من الشروط المحدِّدة بيولوجياً ، كـ«النساء» ، أو «الرجال» أو «السود» ، فإنّ بعض الناس يولدون يهوداً . على أنه ثمة انعطافة لافتة هنا . أولاً ، يستطيع اليهود الأوروبيون التلاشي بسهولة في حشد غربي أبيض عبر الاندماج والذوبان ، مخلّفين هويّتهم اليهودية وراءهم ، في حين يضطر السود والنساء إلى عيش حياتهم متقبّلين ما هم عليه ومستمتعين به . ثانياً ، لا تثير الازدواجية بين الاسم والصفة في حالة «السود» و«النساء» سوء فهم بالضرورة أو تحدث خلافاً ، كما لا يشعر السود أو النساء بالإساءة إذا وُصفوا بأنهم «سود» أو «نساء» .

وكما ناقشنا آنفاً ، قد يكون من المفيد أن نكتشف أنه ، وإلى حدّ ما ، قد تكون الطريقة التي تعمل بها كلمة «يهودي» كمعنى دلاليّ ضمن الخطاب مشابهة لحالة المعرِّف الرمزي للـ«مثليّ» . فبينما يفخر العديد من المثليين بإظهار هويتهم المثليّة ، إلا أنهم قد يشعرون أيضاً بالإساءة حين يصفهم الآخرون بـ«مثليّين» . وفي حالات مختلفة من سياسة الهوية والهامش ، نستطيع أن نلاحظ ميلاً متزامناً ومتوازياً لـ«الإقرار بالشيء» و«التبرُّؤ منه» ؛ نزوعاً لـ«التماهي» مع الجماعة ، وفي الوقت نفسه رفض «تحديد هويتك» كذلك من قبل الآخرين .

في الواقع ذي التعددية الثقافية ، نميل إلى الاعتقاد بأن هذا الأسلوب المتناقض في السلوك له علاقة باستخدام وسوء استخدام التصوّرات النمطية أو الأفكار المقولبة .

يُعرَّف التصوّر النمطيّ أو المقولب بأنه اعتقاد عام أو شائع بشأن مجموعات اجتماعية محدَّدة ، أو نماذج من الأفراد . هذا التصوّر النمطي هو في الغالب نتاج تعميم جوهري يتأتّى بواسطة الاستقراء ؛ إذ يشتمل على افتراض غير علمي بشأن خصائص طبقة من الرعايا بناء على تراكم ملاحظات أو حكايات ونوادر متناقلة ، تترسّخ مع الوقت والتكرار .

وغالباً ما يتم الخلط بين مفهوم «التصوّر النمطي» وفكرة «التحامل» . ونلاحظ أن التصوّر النمطي المقترن بالإثنية أو الطبقة أو أي جماعة وسيلة لصوغ

رأي ، سلبي في العادة ، مبنيّ على معلومات غير كافية أو مشاعر غير منطقية .

ظاهرياً ، قد يبدو كما لو أن اليهود مفرطو الحساسية إزاء المعنى الضمني التمييزي «العرقي» لكلمة «يهودي» . على أن معظم اليهود ليسوا معنيين تماماً حين يقترنون جماعياً ببعض العقول الفذّة ، أو عازفي كمان رائعين أو قائدي فرق موسيقية . باختصار ، لتطبيق تصنيف «يهودي» على نحو آمن ، عليك أن تحرص على قول الأشياء المناسبة . لن يسبب لك أحد أية مشكلة إذا أتيتَ على ذكر ألبرت آينشتاين(١) في إشارة إلى الذكاء اليهودي أو التطرّق إلى آن فرانك(٢) كمثال نموذجيّ على البراءة اليهودية ، لكنك قد تجد نفسك في ورطة

---

(١) ألبرت آينشتاين : (١٨٧٩- ١٩٥٥) ، عالم يهودي ألماني المولد ، أميركي الجنسية ، يُلقّب بـ«أبو الفيزياء الحديثة» ، حيث طوّر نظرية النسبية العامة ، محدثاً ثورة في الفيزياء . وفي العام ١٩٢١ ، نال جائزة نوبل في الفيزياء عن أبحاثه في الفيزياء النظرية . كان آينشتاين شديد الاعتزاز بأصوله اليهودية ، ولم تخف المؤسسة اليهودية الثقافية والسياسية ، من جانبها ، زهوها بـ«ابنها» العبقري ، كما وصفته . وكان ديفيد بن غوريون ، أول رئيس وزراء لإسرائيل ، قد عرض على آينشتاين منصب «رئيس إسرائيل» وذلك بعد وفاة رئيس إسرائيل في حينه حاييم وايزمان ، لكن آينشتاين اعتذر عن قبول المنصب ، معرباً عن «تأثره العميق» بالعرض . (المترجمة)

(٢) آن فرانك : (١٩٢٩- ١٩٤٥) ، من أشهر ضحايا الهولوكوست أو «المحرقة» ، كما تعرف ، التي ارتكبتها ألمانيا النازية بحق اليهود ، حيث احتلت في الأدبيات اليهودية والعديد من الأدبيات العالمية مرتبة الأسطورة ، على نحو تختلط فيه الحقيقة بالرواية «الرومانسية» المغلفة بهالة «بطولية»! وآن مراهقة يهودية ولدت في فرانكفورت بألمانيا ، وعاشت الشق الأعظم من حياتها في أمستردام بهولندا مع عائلتها . ومع الاحتلال النازي لهولندا ، وارتفاع وتيرة اضطهاد اليهود ، اتخذت العائلة من مبنى سري مخبأً لها ظلت فيه مدة عامين قبل أن يتم اعتقالهم ونقلهم إلى معسكرات اعتقال في أغسطس/آب ١٩٤٤ ، حيث توفيت الأم إديث بعد وقت قليل من اعتقالها جراء الجوع ، ثم لقيت فرانك وشقيقتها مارغوت حتفهما بسبب إصابتهما بالتيفوس وذلك عام ١٩٤٥ . أوتو فرانك ، والد آن ومارغوت ، كان الناجي الوحيد ، حيث عاد إلى أمستردام بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ==

بالغة بمجرد أن تأتي على ذكر القائمة التالية من الشخصيات الحقيقية أو الخيالية : بيرني مادوف ، فاغن[١] ، بول وُلفُويتس ، اللورد ليفي ، شايلوك[٢] ، آلان غرينسبان ، بنيامين نتنياهو ، وناثان روتشيلد[٣] .

== ليعثر على دفتر مذكرات آن في المخبأ السري ، فقام بنشرها في العام ١٩٤٧ ، ثم صدرت المذكرات في نسخة باللغة الإنجليزية في العام ١٩٥٢ بعنوان : **مذكرات فتاة صغيرة** ، علما بأن آن ترصد في مذكراتها حياتها وحياة أسرتها من ١٢ يونيو/حزيران ١٩٤٢ إلى أغسطس/آب ١٩٤٤ ، أي حتى ما قبل اعتقال العائلة . وحظيت المذكرات بشهرة عالمية ، أسهمت فيها الدعاية اليهودية ، وتحولت آن فرانك إلى أيقونة يُحظر المساس بها أو التشكيك بها . (المترجمة)

(١) فاغن : شخصية روائية متخيلة ظهرت في رواية **أوليفر تويست** للكاتب الإنجليزي الأبرز تشارلز ديكنز . وفاغن هو عجوز يهودي ، اجتهد ديكنز في إغداق صفات البشاعة والخسة والشرّ على شخصيته ، يقوم بإيواء أطفال الشارع من البؤساء واللقطاء في بيته ، حيث يعلمهم النشل والقيام بنشاطات إجرامية لحسابه . إلى جانب اسمه ، يُشار إلى فاغن في الرواية في معظم الوقت بـ«اليهودي» . (المترجمة)

(٢) شايلوك : شخصية أدبية خيالية في مسرحية تاجر البندقية للمسرحي والشاعر الإنجليزي الأشهر وليام شكسبير . يجسد شايلوك في المسرحية دور مرابي يهودي ، يقرض المال لمنافسه المسيحي أنطونيو ، مشترطاً أن تكون ضمانة الرهن مقدار رطل من لحم أنطونيو ، وحين يعجز أنطونيو عن سداد الفلوس يطالبه شايلوك برطل من لحمه . ولقد اقترن اسم «شايلوك» بالإقراض الربوي ، ودخل الاسم القاموس أيضاً كفعل ، حيث يعني «to shylock» أن يُقرض المال بفوائد مرتفعة . (المترجمة)

(٣) ناثان روتشيلد : (١٧٧٧- ١٨٦٣) ، سليل عائلة روتشيلد ، وهي من أكبر وأثرى العائلات الأوروبية ، من أصول ألمانية يهودية ، أسست شبكة من المصارف وبيوت التمويل الأوروبية في أواخر القرن الثامن عشر حيث امتد نفوذها الاقتصادي والسياسي عبر أجيال متعاقبة من أبناء وأحفاد آل روتشيلد . تنسب جذور العائلة إلى مائير أمشيل روتشيلد (١٧٤٤- ١٨١٢) ، مؤسس السلالة المصرفية العالمية لآل روتشيلد ، الذي أوكل إدارة نشاطه المصرفي إلى أبنائه الخمسة في خمس دول أوروبية هي : ألمانيا والنمسا وإيطاليا وإنجلترا وفرنسا . ولقد تولى ابنه ناثان روتشيلد نشاط العائلة ==

كل ما تقدَّم يرسم صورةً مبهمةً ، وإن كانت غير مفاجئة على الإطلاق . ويبدو الأمر كما لو أن العديد من اليهود لا يمانعون التعميمات العرقية والخصائص الجوهرية للشخصية مادامت إيجابية .

تبيّن لي مؤخراً أنه عند وضع التصوّرات النمطية اليهودية في مقابل بعضها بعضاً (تلك التي يمقتها اليهود ، على ما يبدو ، مقابل تلك التي يحاول دعاة الإثنية اليهودية الترويج لها) ، قد نتمكّن من تسليط ضوء كاشف على القضايا

== في بريطانيا ، مسهماً في مضاعفة ثروة العائلة من خلال الخداع ، حيث كانت العائلة تملك شبكة معلومات سرية مكنتها من معرفة نتيجة معركة واترلو الشهيرة التي انتصرت فيها بريطانيا على حساب قوات نابليون الفرنسية ، فاستغل ناثان روتشيلد هذه المعلومة التي وصلته قبل الجميع في بيع أسهمه وسنداته ، على نحو أوحى بخسارة بريطانيا في الحرب ، وهو ما أجج حمى بيع مسعورة انتهت بأن قام روتشيلد من خلال وسطاء سريين بشراء هذه السندات بأسعار بخسة ، حتى إذا علم الجميع بهزيمة نابليون ، ارتفعت الأسعار ثانية لتجني عائلة روتشيلد ثروة لا تقدّر بثمن . ولقد تحكم ناثان روتشيلد بالقطاع المصرفي في بريطانيا على نحو غير مسبوق ، وكان المقرض الأبرز والأوحد للحكومة البريطانية ، وهو الذي تنسب له مقولة شهيرة جاء فيها : «لا تهمني الدمية التي تجلس على عرش إنجلترا والتي تحكم الإمبراطورية ، فالرجل الذي يتحكم بإمدادات بريطانيا من المال هو الذي يتحكم بالإمبراطورية البريطانية ، وأنا الذي أتحكم بالمال .» يقال إن عائلة روتشيلد امتلكت في القرن التاسع عشر أكبر ثروة شخصية في العالم ، وهي أيضاً أكبر ثروة شخصية في تاريخ العالم الحديث . سياسياً ، اقترنت العائلة بالصهيونية العالمية واستخدمت نفوذها المالي والسياسي لدعم إقامة دولة يهودية في فلسطين . وكصهيوني نشط وصديق مقرب من حاييم وايزمان ، لعب ليونيل روتشيلد (١٨٦٨-١٩٣٧) ، الحفيد الأكبر لناثان روتشيلد ، المسؤول عن شبكة مصارف آل روتشيلد في إنكلترا ، في صياغة وعد بلفور القاضي بإقامة دولة يهودية في فلسطين . ففي ٢ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٧ ، تلقى ليونيل روتشيلد رسالة من آرثر بلفور ، وزير الخارجية البريطاني في حينه ، وفيها إعلان الحكومة البريطانية دعمها لإقامة «وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين» ، وهي الرسالة التي عرفت فيما بعد بـ«وعد بلفور» . (المترجمة)

المتعلقة بالهوية الجمعية اليهودية . كما قد يوحي لنا كيف ينظر اليهود إلى أنفسهم ، بل والأهم ، قد يساعدنا أيضاً في استيعاب كيف يفضّلون أن يُنظر إليهم .

بعض اليهود يعبّرون عن استيائهم من شخصية فاغن ، التي ابتدعها الروائي الإنجليزي تشارلز ديكنز ، وشخصية شايلوك ، التي صوّرها المسرحي ويليام شكسبير ، حيث ينظرون إليهما باعتبارهما «معاديتين للسامية» . لديّ انطباع بأن المحامي اللندني والمتحمّس الصهيوني البارز أنطوني جوليوس[١] قد يرغب في رؤية هذه الشخصيات الثقافية الأيقونية وقد تم اجتثاثها من الخطاب الشعبي . من جانب آخر ، تمكّنت مؤسسة الهولوكوست التعليمية في بريطانيا (HET)[٢] من اعتماد آن فرانك في منهاج التعليم البريطاني .

لا يحتاج الأمر إلى عبقري لفهم لماذا يبدو جوليوس وآخرون معنيّين بفاغن وشايلوك . ففاغن هو أقصى ما يمكن أن يبلغه محتال ، وهو مراب ، يعتاش على استغلال الأطفال . أما شايلوك فهو التاجر المتعطّش للدماء . ومع استدعاء شخصيتَي فاغن وشايلوك في الأذهان ، تبدو المعاملة الإسرائيلية بحق

---

(١) أنطوني جوليوس : (مولود في ١٩٥٦) محامي بريطاني ، معروف بمعارضته لما توصف بـ«معاداة السامية الجديدة» ، وهو مدافع شرس عن إسرائيل وممارساتها . كما يكرس نفسه للدفاع عن الأفراد والمؤسسات التي تتأثر بما يعرف بـ«المقاطعة الأكاديمية للجامعات الإسرائيلية» ، مقارناً هذه المقاطعة بالسياسات التي تبنتها ألمانيا النازية ضدّ اليهود . (المترجمة)

(٢) مؤسسة الهولوكوست التعليمية : يشار إليها اختصاراً بـ(HET) ، جمعية خيرية بريطانية ، هدفها «تثقيف الفتية من كل الخلفيّات عن الهولوكوست ، والدروس المهمة التي يمكن تعلمها منها» . وتعتبر HET أن أحد أهم إنجازاتها الحرص على أن يشكل تعليم الهولوكوست جزءاً من المنهاج الوطني لمادة التاريخ في المدارس البريطانية . (المترجمة)

الفلسطينيين مجرّد حدث آخر في السلسلة الجهنمية اللانهائية . على أنه من الواضح أيضاً لماذا تبدو مؤسسة الهولوكوست التعليمية مبتهجة بآن فرانك ؛ فظاهرياً ، ولأسباب جليّة ، فإن الغرض من آن هو نقل صورة البراءة . وبالفعل لا يوجد نظام أخلاقي واحد يمكن أن يبرِّر المحنة التي تعرّضت لها هذه الفتاة مع آخرين كثيرين .

ومع ذلك ، لم تكن آن فرانك نابغة أدبية تماماً . فمذكّراتها لا تعتبر قطعةً أدبية قيّمة ، كما لم تكن موهوبة على نحو استثنائي . لقد كانت في الواقع فتاةً عاديةً للغاية ، وهذا بالضبط مكمن نفوذها في الخطاب الثقافي الغربي في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية . لقد كانت مجرّد فتاة بريئة . في الواقع ، قد تكون محاولة تحويل آن فرانك إلى بطلة ثقافية تعبيراً حقيقياً عن النزعة الأيديولوجية اليهودية نحو التماثل . فآن فرانك تعكس المسعى اليائس للبرهنة للعالم بأننا «نحن ، اليهود» أناسٌ كالناس الآخرين . أضف إلى ذلك ، أن نجاح مذكرات آن من شأنه الإيحاء برغبة الغرب لقبول اليهود كشعب بين الشعوب .

على أنه ، مرة أخرى ، يجد الخطاب اليهودي نفسه عالقاً ، فاليهود لا يستطيعون إنجاز مهمّتهم أبداً . وهم لا يستطيعون أن يكونوا مثل «الناس الآخرين» ؛ فأولئك الذين يطالبون بأن يكونوا متساوين عليهم أن يشعروا بأنهم مختلفون على نحو تام ومتأصِّل . ها نحن من جديد نواجه تكراراً في الهوّة الجمعيّة القائمة للهوية اليهودية بين «ما يزعم المرء أن يكون عليه» و«ما هو عليه» .

يهاجم أنطوني جوليوس ، في كتابه **محاكمات الدياسبورا** ، أولئك الذين يصفهم بـ«معادي السامية» ، كونهم مناهضين للصهيونية . إن المشكلة مع مناهضة الصهيونية ، كما يقول جوليوس ، هي أنها «تنكر على اليهود الحقّ الذي تؤيّده لأناس آخرين مشابهين ، فهي تلتزم بالحق في تقرير المصير إلا في حالة اليهود ، وتقرّ بالقانون الدولي باستثناء حالة إسرائيل . كما تنظر إلى القومية اليهودية (أي الصهيونية) بوصفها خبيثة على نحو استثنائي ، بدلاً من التعاطي

معها باعتبارها مجرد قومية أخرى .»[١] إن المطالبة بالشرعية والتماثل في نص جوليوس ليثير الحرج بحقّ ، خصوصاً بالنظر إلى الحقيقة أن «حق تقرير المصير» لليهود يتم الاحتفاء به على حساب حق آخرين (الفلسطينيين) . إن الصهيونية لتعدّ مؤذية بصفة استثنائية ، على الأقل من حيث كونها مدمِّرة للسكان الأصليين في الأرض المقدّسة .

كي يكسب جوليوس حجّته ، يتعيّن على اليهود أن يبرهنوا بأنهم حقاً هم أنفسهم بدلاً من المطالبة بأن يُنظر إليهم بأنهم يشبهون الآخرين . وكي يتم احترام اليهود على نحو حقيقي كجماعة ، فإن تأمّل الذات ليشكّل أهمية قصوى . وبدلاً من الإشارة إلى ما يعدّ خللاً بالغاً لدى **الغوييم** (الأغيار) ، من الأجدى أن يسعى المنظّرون الأيديولوجيون إلى تأمّل أنفسهم في المرآة .

(1) Trials of The Diaspora, Anthony Julius, pg XI, Oxford University Press.

الفصل ٦
فكّر قبلياً وتحدّث عالمياً

في مرحلة معينة ، قرابة العام ٢٠٠٥ ، فكّرتُ بيني وبين نفسي بأنّني قد أكون «ملك اليهود» ، فلقد حققتُ ما لا يمكن تحقيقه ، وأنجزتُ المستحيل . وتمكّنتُ من توحيدهم جميعاً : اليمين ، واليسار ، والوسط ؛ كلّ الجماعات السياسية البريطانية اليهودية بصفة رئيسية : الصهاينة ، ومناهضو الصهيونية ، والاشتراكيون اليهود ، والماركسيون القبليون ، ومجلس ممثلي اليهود البريطانيين ، والتروتسكيون اليهود ، ويهود من أجل هذه القضية ، ويهود من أجل تلك القضية ، للمرة الأولى في التاريخ تكلموا جميعهم بصوت واحد . جميعهم كرهوا جلعاد عتسمون بالقدر نفسه .

قلتُ لنفسي : «يا له من أمر مؤثّر ، لابدّ من أنني قمتُ بشيء صحيح .» ومع ذلك ، كنتُ مشوّشاً بعض الشيء من إنجازي ، فخلاصة الأمر أنني لم أكن العدوّ المتعارف عليه-فقد كنتُ موسيقيَّ جاز ومؤلّفاً . ولم أكن سياسياً ، كما لم أكن عضواً في أيّ حزب . لم أطرح أو أدعم أية أجندة سياسية أو سلطة ، ولم أحظ بدعم أي حزب كذلك . لم أتورّط في أي فعل من أفعال العنف (ولا حتى كجندي إسرائيلي) ، كما لم أدْعُ مطلقاً إلى العنف . لقد كنتُ ما يطلق عليه البعض «مفكّراً نقدياً مستقلاً» ، وقد أكون أيضاً ما يعتبره بعض اليهود «يهودياً كارهاً لذاته ، وفخوراً» . أمن الممكن أن يكون استيعابي للهوية السياسية اليهودية قد جلب هذا الكمّ الهائل من العداء اليهودي إلى بابي؟

في ذلك الوقت ، توصلتُ إلى رؤية لافتة بشأن موضوع معاداة السامية ، مفادها : «بينما كان المعادي للسامية في الماضي شخصاً يكره اليهود ، فإن

الفكرة باتت معكوسة في وقتنا الراهن ؛ إذ بات المعادي للسامية شخصاً يكرهه اليهود أنفسهم .» يمكن لسياسة الكراهية أن تكون فعّالة ، كما يمكن أن تكون شريرة . وقد يخال المرء أن الناشطين اليهود القبليين سيكونون أول من يتفهّمون هذا الأمر . فجميعنا نعرف أن اليهود عانوا من الكراهية والتمييز لقرون ، لكن يبدو أن الناشطين الإثنيين اليهود قد تعلّموا الكراهية من أعدائهم على نحو جيد ، لدرجة أن الكراهية قد صاغت الخطاب السياسي اليهودي العلماني بالكامل .

أضف إلى ذلك أن الكراهية قد أصبحت منظومة النفي الأساسية : فالإسرائيليون يكرهون العرب ، والصهاينة يكرهون الأغيار (عموماً) ، واليهود المناهضون للصهيونية يكرهون أيضاً الأغيار لكنهم يكرهون كذلك إسرائيل كما يكرهون عتسمون (تحديداً) . لكن لماذا يكنّون كلَّ هذا القدر الكبير من الكراهية؟ إن الجواب بسيط . بمجرّد إنكار اليهودية (كديانة) ، فإن ما يتبقّى من الهوية اليهودية يصبح فعلياً مبتذلاً . وما إن يتم تجريدها من الروحية الدينية ، حتى لا يتبقى من اليهودية ، كأيديولوجيا ، سوى قالب عام من النفي يغذّيه التوجّه العرقي ، وتضفي عليه بعض المراجع الثقافية الخفيفة نكهة ما ، مثل كُرات المتساه[1] وحساء الدجاج .

للأسف ، لابدّ من القول إنه على الرغم من أن العديد من اليهود المنعتِقين والمندمجين قد تبنوا أفكاراً إنسانية عالمية وتمازجوا مع البشرية ، فإن الهوية اليهودية الجمعيّة العلمانية لم تنضج أبداً لجهة تبنّي وجهة نظر أيديولوجية إنسانية عالمية أو حتى رؤية فلسفية .

ثمة سببان بسيطان لذلك :

---

(١) كرات المتساه : عبارة عن كرات من خبز الفطير «المتساه» ، المغمورة في مرق الدجاج ، حيث تعد هذه من الوجبات التقليدية التي يشتهر بها يهود الأشكناز ، أي الذين ينحدرون من أوروبا الشرقية . (المترجمة)

أ . إن التوجّه العرقي أو القبلي أو حتى الإثني لا يمكن أن يشكّل أساساً لنقاش أخلاقي كوني .

ب . حساء الدجاج أو حتى حسّ الدعابة اليهودي (الثقافة) لا يصنع أي منهما نقاشاً أيديولوجياً أو أخلاقياً أو سياسياً .

لقد كان موسى مندلسون(1) ، وهو عالم يهودي «تقدّمي» في القرن الثامن عشر ، هو من صاغ المقولة الشهيرة لـ«الهسكلاه» (التنوير اليهودي)(2) : «كن يهودياً في البيت وكن من الأغيار في الشارع» . ولا تترك رؤية مندلسون لليهودي الحديث مجالاً كبيراً للشكّ . فبدلاً من تشجيع اليهودي الحديث على الاندماج بصدق ضمن روح جماعية عالمية وحقيقية ومتجانسة قائمة على المساواة ، فإنّ يهودي الهسكلاه مقدَّرٌ له أن يعيش وفق نمط حياتي مزدوج وخادع ، إن لم يكن يعيش عمليّاً حالة من الانفصام . فهو ممزّق بين المتعة الانعزالية لهوية يهودية حميمية ودافئة ، وبين المظهر العام للواقع المحيط . إن يهودي الهسكلاه يخدع إلهه وهو في بيته ، ويضلّل الأغيار حين يصبح في الشارع .

في الحقيقة ، إنّ ازدواجية القبلية والعالمية هذه هي التي تقع في صُلب الهوية اليهودية العلمانية الجمعيّة ، علماً بأنّ هذه الازدواجية لم تُحلّ أبداً كما

---

(١) موسى مندلسون : (١٧٢٩- ٤ ١٧٨٦) فيلسوف يهودي ألماني أسهمت أفكاره ورؤاه في صوغ «عصر النهضة» للأوروبيين اليهود من خلال اشتقاقه مفهوم «الهسكلاه» ، أي التنوير اليهودي . (المترجمة)

(٢)«هسكلاه» كلمة عبرية تعني «التنوير» . ظهر المصطلح عام ١٨٣٢ كإشارة إلى حركة في الآداب المكتوبة بالعبرية حاول دعاتها أن يبتعدوا عن الأشكال الأدبية التقليدية المرتبطة إلى حدٍّ كبير بالدين ، وأن يستعيروا أشكال الأدب العلماني الغربي . لكن التنوير لم يكن مجرد حركة أدبية بل كان أيضاً رؤية متكاملة تُسمّى «العقلانية المادية» . وتستخدم الكلمة بالمعنى العام للإشارة إلى الحركة الفكرية الاجتماعية التي ظهرت بين يهود غرب أوروبا (في ألمانيا ووسطها) ثم انتشرت منها إلى شرقها . وقد بدأت حركة التنوير في صورة تيار أساسي بين اليهود منذ منتصف القرن الثامن عشر واستمرت حتى عام ١٨٨٠ . (عن **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**- المترجمة) .

ينبغي . وبدلاً من إنقاذ اليهود ، تراها تفرض مستوى معيناً من الخداع .

وقد كانت هناك بضع محاولات للتخلص من الازدواجية ، لكنها فشلت جميعاً . فلقد عرضت الصهيونية ، على سبيل المثال ، القضاء على الوضع «غير السويّ» لـ«الدياسبورا اليهودية» ، بمعنى آخر اقترحت بأنه في وجود «دولة يهودية» (مخصَّصة لليهود فقط) فإن الفروقات بين «البيت» و«الشارع» سوف تتلاشى . وعلى الرغم من أنها نجحت في القيام بهذا الأمر ، لبعض الوقت على الأقل ، فإنه لا أثر للعالمية سواء في «شارع» الصهيوني أو في «بيته» .

ولا تدع المجزرة التي خلّفتها إسرائيل في لبنان (٢٠٠٦) أو في غزة (٢٠٠٨) مجالاً كبيراً للشك - فإسرائيل لا تقدِّم لنا حقيقةً أية دروس في الكوزموبوليتانية العالمية . كذلك سعت الماركسية إلى جعل الناس يبدون متساوين . بكلمات أخرى ، وعدت بأن تجعل كل «البيوت» والناس متشابهين . هذه الفكرة لقيت قبولاً كبيراً لدى حفنة من يهود أوروبا الغربيين والعديد من يهود أوروبا الشرقيين ، بل إنهم شكّلوا «البوند» ، وهو حزب اشتراكي يهودي .[1] ولقد كانت الماركسية ناجحة حقاً لبعض الوقت ، على أن نمط الحياة الاستهلاكي هو ما يجعلنا في

(١) «بوند» Bund ، كلمة ألمانية الأصل وتعني الرابطة أو الاتحاد أو النقابة ، وهي الكلمة الأولى في «الاتحاد العام للعمال اليهود في روسيا وبولندا وليتوانيا» ، وهو حزب اشتراكي يهودي علماني تأسس في الإمبراطورية الروسية ، وكان ناشطاً بين ١٨٩٧ و١٩٢٠ . ويعتبر «البوند» من أهم التنظيمات الاشتراكية اليهودية في أوروبا الشرقية . تأسس الحزب في مدينة فيلنيوس بلتوانيا في ٧ أكتوبر/تشرين الأول ١٨٩٧ ، ساعياً إلى توحيدكل العمال اليهود في الإمبراطورية الروسية تحت مظلة حزب اشتراكي موحد ، علماً بأن الإمبراطورية الروسية كانت تضم آنذاك لتوانيا ولاتفيا وبيلاروس (روسيا البيضاء) وأوكرانيا ومعظم أنحاء بولندا الحالية ، وهي مناطق كانت غالبية يهود العالم يعيش فيها ، ليكون حزب البوند بذلك فعلياً أكبر حزب يهودي من نوعه . ولقد سعى الحزب إلى التحالف مع الحركة الديمقراطية الاشتراكية الروسية الأكبر من أجل تحقيق روسيا ديمقراطية واشتراكية ، إذ كانوا يأملون أن يتمكن اليهود - في روسيا كهذه - من نيل الاعتراف بهم كشعب يتمتع قانونياً بمكانة الأقلية ، وما يترتب على هذه المكانة من حقوق وواجبات . (المترجمة)

الوقت الراهن متجانسين (الآيبود ، والكوكا كولا ، والجينز ، إلخ) . ومن الواضح أنه لا يوجد الكثير مما يستحق أن نحتفي به هناك أيضاً .

من فشل هاتين الأيديولوجيتين الرئيسيتين المتنافستين ، حققت منظومة النفي انتصارها . ويشكّل البحث عن هوية يهودية علمانية ، جمعيّة ، معاصرة مسعىً مربكاً ؛ حيث يهدف ، كما في زمن مندلسون ، إلى دمج فئتي القبلية والعالمية المتعارضتيْن . غير أن هذا لا يمكن تحقيقه مطلقاً ، وهنا بالضبط تبدأ «سياسة الكراهية» بلعب دورها .

إذا كنتَ لا تعرف من أنت ، ما عليك سوى أن تبحث لنفسك عن عدوّ . بكلمات أخرى : «قُلْ لي من تكره أقُل لكَ من أنت .»

لا بدّ من أنّ مندلسون فهم التضارب الجوهري بين «الرجل الكوزموبوليتاني» و«البيت اليهودي» . بالتأكيد أدرك بأن العالمية والقبلية تشكلان فئتين متعارضتين . ولقد قدم مندلسون ، الذي تلقى تدريباً كحاخام ، حلاً عملياً وبراغماتياً - لكن هذا الحلّ قاد إلى سلوك زائف وخادع . فإما أن تتظاهر بأنك كوزموبوليتاني أثناء وجودك في الشارع أو أن تكذب على خالقك داخل مسكنك . هذه المنظومة السلوكية ، وإن بدت براغماتيةً للغاية ، تُعتبر غير أخلاقية في الأساس . فهي مبنيّة على الخداع - خداع الذات وخداع الآخر .

كما نعرف ، لقد كانت رؤية مندلسون هي السبب في تحولّ العديد من اليهود الجرمانيين[1] في النهاية إلى المسيحية ، أو مجرد نأيهم عن أية صلة بالإطار الجمعي اليهودي ، أو الحياة أو الثقافة اليهودية . أخلاقياً ، على الأقل ، فشل الطريق الوسط لمندلسون بين الأرثوذكسية (أي الفكر التقليدي المحافظ) والحداثة في توفير إجابة . وتقع الفئة الثالثة من الناشطين اليساريين اليهود في مصيدة مندلسون . فهم يحاولون بيأس ، ودون نجاح ، جسْر الهوّة بين الالتزام القبلي والدعوة العالمية . لكنهم ، على غرار مندلسون ، تراهم محكومين بالفشل .

(١) الجرمانيون أو الشعوب الجرمانية ، هم جماعات لغوية إثنية تنحدر من شمالي أوروبا . (المترجمة)

الفصل ٧
ديالكتيك النفي

فيما يلي بعض الاقتباسات التي تكشف رأي المنظِّرين الأيديولوجيين الصهاينة الأوائل بأشقائهم ، يهود الدياسبورا (الشتات) ، أولئك الذين كانوا يطوِّرون من أجلهم مشروعاً قومياً مبنياً على فلسفة الهوية الإثنية العرقية :

«إن اليهودي عبارة عن رسم كاريكاتوري لإنسان عادي ، طبيعي ، من الناحية الجسدية والروحية . كفرد في المجتمع ، فإنه يثور على الالتزامات الاجتماعية ويسعى إلى التخلّص منها ، حيث لا يعرف أي نظام أو انضباط .»

(المصدر : **Our Shomer " Weltanschauung" Hashomer Hatzair**, December 1936, p.26. نقلاً عن ليني برينر[١، ٢])

«لا يمكن إنكار الحقيقة أن اليهود ، في مجملهم ، معتلّون وعصابيّون . أولئك اليهود المحترفون الذين يسعون إلى إنكار هذه الحقيقة بغضب ، من منطلق شعورهم بالإساءة ، يشكّلون العدوّ الأكبر لعرْقِهم ، فهم بذلك يقودونهم إلى البحث عن حلول زائفة أو إلى مسكِّنات في أفضل الأحوال . (المصدر : Ben

(1) (http:/www.marxits.de/middleast/Brenner/ch02.htm#n10).

(٢) ليني برينر : (مولود في ١٩٣٧) ، كاتب يهودي أميركي ماركسي تروتسكي . اشتهر في ستينات القرن الماضي كناشط بارز ضد الحرب الأميركية في فيتنام ، وهو من المناوئين للصهيونية ، شارك في التسعينات في تأسيس «لجنة مكافحة الصهيونية والعنصرية» . له العديد من المؤلفات والكتابات ، من بينها كتابه الشهير : **الصهيونية في عصر الطغاة** ، وكتاب **الجدار الحديدي : الحركة التصحيحية الصهيونية من جابوتنسكي إلى شامير** . (المترجمة)

Frommer, **The significance of a Jewish State**, Jewish Call, Shanghai, May 1935, p.10. نقلاً عن ليني برينر[1])

«إن الروح المغامِرة لليهودي لا يمكن كبتها . فهو يرفض أن يظل بروليتارياً . وتراه يتشبّث بأول فرصة تسنح له كي يرتقي درجةً أعلى في السلّم الاجتماعي .» (المصدر : Ber Borochov, **The Economic Development of the Jewish People**, 1916)[2] .

«إن اليهودي المنعتِق لا يشعر بالأمان في علاقاته مع أقرانه من البشر ، كما أنه جبان مع الغرباء ، نزّاع إلى الشك حتى إزاء الشعور السريّ لأصدقائه ، ويتم استنزاف أفضل قواه في قمع شخصيته الحقيقية ، أو على الأقل في إخفائها بصعوبة ؛ إذ يخشى أن يتم التعرّف على شخصيته كيهودي ، وهو ليس لديه الرضا أبداً كي يظهر نفسه كما هو عليه ، في كلّ أفكاره وعواطفه . فيصبح عاجزاً من الداخل ، وغير حقيقي ظاهرياً ، وميّالاً بالتالي للسخرية على الدوام ، وكارهاً للناس من ذوي المشاعر المرهفة أكثر ، تماماً ككلّ شيء غير حقيقي . كل اليهود الأفضل في أوروبا الغربية يئنّون تحت وطأة هذا الأمر ، أو يسعون إلى التخفّف منه . ولم يعودوا يتحلّون بالإيمان الذي يمنحهم الصبر اللازم لتحمل العذابات ، إذ يرى فيهم مشيئة إله غير محبّ ، يوقع عليهم العقاب .» (ماكس نورداو ، خطبة ملقاة في المؤتمر الصهيوني الأول ، ١٨٩٧[3]) .

لقد كان المنظِّرون الأيديولوجيون الصهاينة الأوائل صريحين تماماً في ما يتعلق بيهود «الدياسبورا» ، حيث شخّص بير بوروخوف النزعات غير البروليتارية اليهودية الكامنة على نحو بليغ . ولم يبخل ماكس نورداو ، من جانبه أيضاً ، بالكلمات في مواجهة العجز الاجتماعي اليهودي الجوهري لما بعد الإعتاق . في

(1) (http://www.marxits.de/middleast/brenner/ch02.htm#n10)

(2) (http://www.angelfire.com/il2/borochov/eco.html).

(3) (http://www.geocities.com/Vienna/6640/zion/nordau.html).

نظر هاشومر هاتسائير[١] ، فإن يهودي الدياسبورا ليس سوى صورة كاريكاتورية ، وبالنسبة لبن فرومر[٢] ، فنحن نتعامل مع شخص عصابي وحسب . ومع ذلك ، كانوا متفائلين ، إذ آمنوا بطريقة ما بأن «بدايةً جديدةً» قد تعالج اليهودي المنعتِق مما بدا للبعض بأنه قدَرٌ «شائن» . لقد آمنوا بـ«عودة» يهودية عالمية «إلى الوطن» ، وكانوا مقتنعين بأنّ مثل هذه المحاولة قد تشفي اليهود من الأعراض الملازمة لهم .

في مقالة نُشرت مباشرة بعد المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، كتب أحاد هعام[٣] ، وهو من أبرز المنظِّرين اليهود في ذلك الوقت ، يقول : «لقد عنى المؤتمر (الصهيوني الأول) ما يلي : أنه ولتجنّب كل هذه المشكلات [الأعراض اليهودية اللااجتماعية كما وصفها نورداو] من الضروري إقامة دولة يهودية .»[٤]

مستلهمين أيديولوجيات القرن التاسع عشر ؛ كالقومية ، والماركسية ،

---

(١) هاشومر هاتسائير Hashomer Hatzair : أي «الحراس الشباب» ، هي حركة شبابية صهيونية اشتراكية ، تأسست في العام ١٩١٣ في إقليم غاليسيا التاريخي في أوروبا الشرقية ، وهو الاسم الذي حمله الحزب السياسي للحركة في التجمعات اليهودية في فلسطين قبل نكبة ١٩٤٨ ، إبان الانتداب البريطاني . (المترجمة)

(٢) بن فرومر : كاتب أميركي ، كتب في صفوف التصحيحيين الصهاينة في اليمين المتطرف ، ظهرت له مقالة ، أشار لها المؤلف أعلاه ، بعنوان : «مغزى الدولة اليهودية» في مجلة **جويش كول** ، التي كان التصحيحيون الصهاينة يصدرونها في شنغهاي بالصين . (المترجمة)

(٣) أحاد هعام : (١٨٥٦-١٩٢٧) ، كاتب ومفكر ومنظِّر يهودي صهيوني . «أحاد هعام» اسم عبري معناه «واحد من الشعب» ، وهو «اسم أدبي» اشتهر به ، أما اسمه الحقيقي فهو أشر غنزبرغ . عرف أحاد هعام بأنه مؤسس «الصهيونية الثقافية» أو «الصهيونية الروحية» ، التي تذهب إلى أنه يتعين على المشروع الصهيوني أن يكون ذا بعد روحي وثقافي وإثني ، بالمعنى العلماني للكلمة . ولقد نظّر أحاد هعام ، من خلال كتاباته وطروحاته ، إلى «دولة يهودية وليست مجرد دولة لليهود» . (المترجمة)

(4) (http://www.geocities.com/Vienna/6640/zion/jewishproblem.html.)

والرومانسية الأولى ، والداروينية وفلسفة الحياة ، عمد الصهاينة الأوائل إلى التبشير بنشوء رابطة بين اليهودي و«أرضه» . وآمنوا بسذاجة أن حبّ الزراعة والفلاحة والطبيعة من شأنه أن يحوِّل اليهودي المنعتِق إلى كائن بشري متحضِّر وعادي . لقد تنبّأ الصهاينة الأوائل بأن الصهيونية سوف تخلق شكلاً جديداً أكثر حقيقيةً من اليهوديّة (كأيديولوجيا) ، يكون اليهود فيها مؤهّلين كي يحبوا أنفسهم لما هم عليه وليس لما يدّعونه . وبينما كان الاشتراكيون من بينهم يتحدثون عن التزام جديد إزاء أيديولوجيا الطبقة العاملة (بيرل كاتزنلسون[١] ، بوروخوف ، إيه . دي . غوردن[٢]) ، فإن أولئك في جناح اليمين (مثل جابوتنسكي وفرومر) ، حلموا بعِرْق متفوّق ، له الغلبة ، سوف يظهر ويحكم الأرض .

لقد آمن كلٌّ من أنصار اليمين واليسار بحقّ أن اليهود ، وبسبب عودتهم إلى الوطن ، سوف يكونون قادرين على استبدال «سماتهم التقليدية» بتطلّعات نحو التماثل . آمنوا بصدق أن الصهيونية سوف تحوِّل اليهود إلى «بشر ككلّ البشر» . وفشلوا في فهم أن الفرضيّة مغلوطة تماماً ، ذلك أن «الناس الآخرين» لا يرغبون في أن يكونوا «مثل الناس الآخرين» . بمعنى آخر ، مادام اليهود يصرّون بأن يكونوا مثل «كلّ الناس» ، فسوف يفشلون على الدوام في أن يكونوا أنفسهم .

وكما لم يسْعَ الصهاينة الأوائل أبداً إلى إخفاء حجم حلمهم النبوئي ، فإنهم لم يقوموا أيضاً بأية محاولات لإخفاء ازدرائهم تجاه أشقائهم من يهود «الدياسبورا» (يهود الشتات) . في تصوّرهم الفانتازي ليقظة قومية ، ينأى اليهود بأنفسهم عن الجشع والسعي وراء المال ، إلى جانب نأيهم عن النزعات

---

(١) بيرل كاتزنلسون : (١٨٨٧-١٩٤٤) ، صحفي وزعيم صهيوني ، أحد مؤسسي «الحركة العمالية الصهيونية» ، التي لعبت دوراً حيوياً في قيام إسرائيل . (المترجمة)

(٢) آرون ديفيد غوردن : (١٨٥٦-١٩٢٢) ، منظّر أيديولوجي صهيوني ، يعتبر القوة الروحية وراء ما يعرف بـ«الصهيونية العملية» و«الحركة العمالية الصهيونية» . (المترجمة)

الكوزموبوليتانية . ووفق رؤيتهم فإن صهيون موجودة هناك لتحويل اليهودي إلى إنسان عضوي عادي . ولقد جاء الانتقال إلى صهيون لسدّ الهوّة التي أوجدها الانعِتاق . ووُجد الاستيطان في صهيون من أجل ولادة إنسان جديد ؛ يهودي ينظر إلى نفسه باعتداد ، يهودي يملأ اليهودية بالمعنى ؛ يهودي تعرِّفه خصائص إيجابية بدلاً من مجرّد النفي .

المنعتِق والمندمج والصهيوني

حين يتعلّق الأمر باليهود العلمانيّين ، فإن الأشياء تأخذ منحى معقّداً . فبينما يستطيع اليهود الملتزمون دينياً أن يحدِّدوا بضع خصائص يمكن أن يتماهوا معها ؛ حيث يتبعون على سبيل المثال الديانة اليهودية ، ويتقيدون بالقوانين اليهودية ، ويتبعون التلمود ، ويلتزمون بالقيود الخاصة بطعام الكوشير[1] ، وما إلى ذلك ، فإنّ اليهود العلمانيين المنعتِقين لديهم القليل جداً ليقدِّموه بخصوص مزايا إيجابية يمكن التماهي معها . عندما تسأل يهودياً علمانياً ما الذي يجعله يهودياً قد تتلقى الجواب التالي : «أنا لستُ مسيحياً ، كما أنني لستُ مسلماً .» حسناً إذن ، لكن ما الذي يجعلك يهودياً على وجه التحديد؟ قد يقول : «أنا لستُ أميركياً ، أو فرنسياً ، أو بريطانياً . أنا مختلف نوعاً ما .» في الحقيقة ، قد يجد من يوصفون باليهود المنعتِقين أو المندمجين أو العلمانيين صعوبةً في تحديد أية سمة إيجابية يمكن أن يتماهوا معها كيهود . إن اليهود المنعتِقين يتم تعريفهم بالنفي - فهم يُعرَّفون بالأشياء الكثيرة التي ليسوا عليها .

وهنا بالضبط تدخّلت الصهيونية ، التي وُجدت بغية تجميع اليهود في مشروع سعى إلى تحقيق تماهٍ أصيل . لقد وُجدت الصهيونية كي تجعل اليهودي يفكِّر من منطلق «الانتماء» . ضمن الواقع الخيالي الصهيوني ، فإن الأجيال

---

(١) الكوشير : أو أطعمة الكوشير ، هي تلك الأطعمة المسموح تناولها ، وفق ما تبيحه الديانة اليهودية . (المترجمة)

العائدة للوطن تستطيع أن تعلنها قائلةً : «نحن اليهود الجدد ، نحن إسرائيليون ، نحن بشر ككلّ البشر الآخرين ، نعيش على أرضنا ، أرض أجدادنا . نتكلم العبرية ، لغة أسلافنا ، نأكل الفاكهة والخضراوات التي زرعناها بأنفسنا في أرضنا .»

لكن الصهيونية فشلت لأسباب عديدة . فالصهيونية لم تكن لتسود ؛ إذ تورّطت في عدد لا نهائي من الخطايا منذ اليوم الأول . على أنه ، وبقدر ما تمكّنت الصهيونية من ترسيخ نفسها بسرعة كممارسة إجرامية ، حريٌّ بنا أن نتأمّل بعضاً من نقدها للهوية اليهودية الدياسبورية المنعتِقة . ففي نهاية المطاف ، لا يزال ما يوصف بيهودي الدياسبورا المنعتِق يُعرَّف بالنفي ، وهذه الحقيقة وحدها تنطوي على الكثير من الدلالات الخطيرة .

سياسة النفي

لكي ندرك ما الذي تعنيه هوية الدياسبورا اليهودية في القرن الحادي والعشرين ، من الأفضل أن نحاول أن نكتشف ما إذا كانت فكرة الهوية اليهودية المنعتِقة قد لحق بها أيّ تغيير منذ أن أماط الصهاينة الأوائل اللثام عن شخصيّتها الإشكاليّة قبل أكثر من قرن من الزمان . فعلى سبيل المثال ، كيف يعبِّر «ماركسي يهودي» عن يهوديته .

خلال السنوات التي أمضيتُها في أوروبا ، التقيتُ جماعات من الناس يطلقون على أنفسهم أسماء وأوصاف من نوع «يهود من أجل السلام» ، و«يهود من أجل العدالة في فلسطين» و«يهود ضدّ الصهيونية» ، و«يهود من أجل هذا» و«يهود من أجل ذاك» . وسمعتُ مؤخراً عن جماعة «يهود لمقاطعة البضائع الإسرائيلية» . من حين لآخر ، أسأل نفسي في النهاية ما الذي يقع في صلب هذا المسعى المتمحور إثنياً ، والانفصالي ، والمحبّ للسلام . أعترف أيضاً أنني وإن كنتُ قد صادفتُ العديد من ناشطي السلام الألمان ، إلا أنّني لم ألتق حركة «تضامن فلسطينية آرية» أو جماعة «آريّون من أجل السلام» أو حتى منظِّمي

حملات قوقازيين مناهضين للحرب . فالأمر يقتصر نوعاً ما على اليهود ؛ فاليهود فقط هم الذين يشاركون في حملات عرقيّة التوجّه ، أو حملات تضامن وسلام إثنيّة التمحور .

لقد زوّدنا بوروخوف ونورداو بجواب محتمل . ففي خضمّ بحثه عن «هوية سياسية» ، ينتهي المقام باليهودي المنعتِق خاضعاً لديالكتيك النفي ، حيث تُحدَّد هويته السياسية بما هو ليس عليه ، وليس بما هو عليه . كجماعة متحدّين ، هم ليسوا ألماناً ، وهم ليسوا بريطانيين ، وهم ليسوا آريين ، وهم ليسوا مسلمين ، كما أنهم ليسوا مجرّد بروليتاريين عاديين أو حتى محبي سلام مملّين ، وهم ليسوا طبقةً عاملةً عامة من الناس . إنهم يهود لأنهم ليسوا شيئاً آخر . للوهلة الأولى ، لا يبدو أن ثمة خطأ بأن يتم تعريف المرء بالنفي . غير أن نظرة نقدية أكثر عمقاً في فكرة النفي قد تكشف بعضاً من الجوانب المدمِّرة لهذا الشكل من ديالكتيك الإعتاق .

قد يكون التفكير الأخلاقي الضحيةَ الأولى لديالكتيك النفي . فلكي نفكِّر أو نحكم بصورة أخلاقية ، يعدّ التفكير العضوي الأصيل والحقيقي هنا أمراً جوهرياً . هذا ويعمل مبدأ الأمر الأخلاقي المطلق الذي صاغه الفيلسوف الألماني إيمانويل كانْط (القائل : «تصرّف فقط بناء على ذاك المبدأ الأساسي بحيث يمكن لسلوك ما ، بل يجب ، أن يصبح قانوناً عاماً») على تحديد التفكير الأخلاقي ضمن توجّه يجعل المرء ينطلق في بحث ذاتي عن رؤية «كونية» . من الواضح أن مثل هذه العملية تشتمل على تأمّل ذاتي شامل . أما النفي ، من جهة أخرى ، فيتطلب العكس ؛ إذ يشتمل على استطلاع واستكشاف عادات الآخرين وممارساتهم . من جديد ، بدلاً من فهم ماهيّتك ، فإن المرء ليستثمر بعض الجهد في تمييز ذاته وتفريقها عن الآخر وعن الكوني . وبدلاً من إنصات المرء لضميره والانخراط في حكم أخلاقي أصيل ، فإن الرعيّة النزّاع إلى النفي يحدِّد علاقاته مع البيئة المحيطة به بناء على مقايضات واتخاذ قرارات عملية وبراغماتية . وعلى أقصى تقدير ، قد يقدم المرء ذريعةً للتفكير الأخلاقي ، لكن ليس أكثر من ذلك .

هذا ويُفاخر الإسرائيليون تحديداً بما يسمونها «مدوّنة السلوك والمبادئ الأخلاقية» للجيش الإسرائيلي (وهي مجموعة من المبادئ التي تحدد «روح الجيش الإسرائيلي : القيم والقواعد الأساسية») . ويزعم الإسرائيليون بأن الجيش الإسرائيلي هو الجيش الوحيد في العالم الذي لديه «مدونة سلوك ومبادئ أخلاقية» . لابدّ من أن آسا كاشر[١] ، الفيلسوف الإسرائيلي الذي وضع مدوّنة السلوك والمبادئ الأخلاقية ، قد حذف مساهمة كانْط في الأخلاق . بالنسبة لكانط ، فإنّ الأخلاق مسألة حُكم بدلاً من إرساء «مجموعة مبادئ» أو قواعد أخلاقيّة بعينها . إنّ ما يميز الكائن الأخلاقي ، وفقاً لكانط ، هو مقدرته على الحُكم على نحو أخلاقي ، حيث ينخرط الرعيّة الأخلاقي في تمرين أخلاقي ديناميكي مستمرّ بدلاً من القبول الرمزي بقاعدة بعينها .

على نحو مماثل ، تبدو العديد من المؤسسات السياسية أيضاً مفتونة بـ«الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ١٩٤٨»[٢] ، إذ تؤمن هذه المؤسسات بأن الإعلان يشكّل «معياراً أخلاقياً كونياً» مطلقاً يتخطى الزمان والمكان . بيد أن هذا في الواقع ليس هو الحال بالضرورة . فإعلان ١٩٤٨ مجرد تمثيل لمجموعة من

---

(١) آسا كاشر : (مولود في ١٩٤٠) ، فيلسوف وعالم لغة إسرائيلي يعمل في جامعة تل أبيب . اكتسب شهرته كونه وضع ما يعرف بـ«مدونة السلوك والمبادئ الأخلاقية» للجيش الإسرائيلي . وهو من مؤيدي «القتل المستهدف» في الحالات التي يقوم فيها الجيش الإسرائيلي بقصف مواقع «العدو» حتى مع علمه بوجود مدنيين أبرياء بالقرب من المكان ، وهو صاحب مقولة إنه «يمكن تبرير قتل طفل فلسطيني برفقة مئة إرهابي لأن الإرهابيين قد يقتلون الأطفال»! وقد وصفه الكاتب الإسرائيلي أموس هاسل في مقال في صحيفة هآريتسفي ٦ فبراير/شباط ٢٠٠٩ ، بأنه «الفيلسوف الذي منح الجيش الإسرائيلي المبرر الأخلاقي للحرب على غزة» (الرصاص المصبوب) . (المترجمة)

(٢) الإعلان العالمي لحقوق الإنسان : هو إعلان تبنته الجمعية العامة للأمم المتحدة في العاصمة الفرنسية باريس في ١٠ ديسمبر/كانون الأول ١٩٤٨ ، حيث جاء الإعلان كنتيجة لما تمخضت عنه الحرب العالمية الثانية ، ويعد أول تعبير عالمي عن الحقوق المكفولة لجميع البشر في العالم . (المترجمة)

الأحكام العالمية التي تم اتّخاذها في مكان وزمان محدّدين (١٠ ديسمبر/كانون الأول ١٩٤٨ ، باريس) على يد جماعةٍ من الناس . لأسباب جليّة ، يفشل الإعلان في توفير إجابات عن بعض الأسئلة المختلفة التي تطرأ مع مضي الزمن ، ومع ما نشهده من تغيرات دراماتيكية .

على النقيض من الرؤية الكانطية للأحكام الأخلاقية التي تتّسم بالصراحة والوضوح ، يُترجم البعض الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بأنّه مجموعة من القواعد الأخلاقية ، وهو ما يعوق بحدّ ذاته إمكانية ممارسة أخلاقية حقيقية . لذا ، ليس مُستغرباً أن تعمد المراكز البحثيّة التي يديرها المحافظون الجدد ، ودعاة التدخّل الأخلاقي ، وجماعات الضغط الإسرائيلية ، ومؤيدو الحرب ضد الإسلام ، إلى بناء حجّتهم على أساس هذا الإعلان ؛ ذلك أنه يعكس صورة حجّة أخلاقية ما .

إن معاينة الهاسباراه (الدعاية) الإسرائيلية بالإضافة إلى سياسة المحافظين الجدد حول العالم ، وخاصةً في أميركا وبريطانيا ، لتكشف عن الحقيقة المُرّة في الموضوع . فدائماً ما يقدِّم المحافظون الجدد والهاسباراه حُجّة «أخلاقية» في الظاهر ، حيث يوظفون ما يبدو أنه مبرر أخلاقي بغية توفير ذريعة للحرب . وكما نعرف ، فإن «الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط» كما يُزعم هي الدولة ذاتها أيضاً التي تحبس الشقّ الأعظم من الشعب الفلسطيني خلف الجدران والأسلاك الشائكة لعقود . بالمثل ، فإنّ أناساً مثل وُلفُويتس وبيرل[1] قد جرّوا

(١) ريتشارد بيرل : (مولود في ١٩٤١) سياسي أميركي ، يعتبر من أبرز المحافظين الجدد ، عضو في العديد من المراكز البحثية من بينها «مشروع القرن الأميركي الجديد» (PNAC) ، و«المعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي» . كان أحد دعاة تغيير النظام في العراق بالقوة . عام ١٩٩٦ ، أثناء إدارة الرئيس الأميركي بيل كلينتون ، قاد بيرل جماعة بحثية قدمت تقريراً يتعلق بتوازن القوى في الشرق الأوسط على نحو يميل إلى صالح إسرائيل . وخلص التقرير إلى جملة توصيات من بينها العمل على إيجاد بديل للرئيس الفلسطيني الراحل عرفات ، للتخفيف مما وصف بـ«قبضته» على الشعب الفلسطيني . (المترجمة)

أميركا وبريطانيا إلى حرب إجرامية عقيمة في العراق باسم «التدخّل الأخلاقي» ، و«الديمقراطية» ، و«التحرير» . ومن الواضح أن الفلسطينيين والعراقيين يدفعون ثمناً باهظاً كضحايا لسياسة النفي ، وهي سياسة تنقل صورةً مخادعةً للاستقامة الأخلاقية عن طريق الاستنساخ . لكن الفلسطينيين والعراقيين ليسوا وحيدين في ذلك .

إن المواطن الغربي الملطّخ بجريمة الإبادة الجماعية ضحيةٌ هو الآخر لتحوّل الغرب نحو سياسة النفي . فبدلاً من أن نعرِّف أنفسنا بما نحن عليه ، ترانا نعتاد على تعريف السياسيين لنا من خلال أولئك الذين يُفترض أن نكرههم : ففي ما مضى كانوا «النازيين» ، ثم أصبحوا «الشيوعيين» ، ثم تحولوا إلى «محور الشرّ» ، واليوم علينا أن نكره «الفاشيين الإسلاميين» . ومن الواضح أن القائمة مرشحة لتغييرات .

ما يثير الجزع أكثر الحقيقة التي تفيد بأن الناس الذين يخضعون لديالكتيك النفي لا يستطيعون الانخراط في صنع السلام والمصالحة . والسبب بسيط : ففكرة السلام والمصالحة والتوافق توجب انهيار سياسة النفي . من وجهة نظر النفي ، فإنّ المصالحة تعني الإقصاء أو الإلغاء . وحبّك لجارك قد يقود إلى فقدان الهوية . ولا حاجة بنا للقول إنه في القرون الأخيرة ، اختار ملايين اليهود الأوربيين والأميركيين السلام والاندماج الكامل . لقد اكتشفوا هويتهم اليهودية ومن ثم تلاشوا وسط الجماهير .

غير أن الحقيقة التي تفيد بأن الهوية اليهودية المنعتِقة معرَّفة بالنفي قد تساعدنا أيضاً في فهم لماذا يكون اليهود المنعتِقون في الغالب جزءاً من الحملات السياسية والحركات الثورية : فأولئك الذين يُعرَّفون بالنفي دائماً ما يناهضون شيئاً ما ؛ قد تكون البرجوازية ، والرأسمالية ، والكولونيالية ، وقد يكونون ضدّ الفلسطينيين ، والعراق ، وإيران ، والإسلام ، والغوييم (الأغيار) ، وانتهاك حقوق الإنسان ، والتصحيحية التاريخية ، والصهيونية وما إلى ذلك . على ما يبدو ، فإن الرحلة بين «ديالكتيك النفي» و«سياسة الكراهية» قصيرة نوعاً ما .

اللاوعي هو خطاب الغوييم

الفصل ٨
مئة عام من العزلة اليهودية

لم تعد الصهيونية حركة فتيّة . فقد مرّ أكثر من مئة وعشرة أعوام منذ أن انعقد المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، كما مرّ أكثر من تسعين عاماً منذ إصدار وعد بلفور (١٩١٧) ، وهو وعد قدمته الحكومة البريطانية للزعماء الصهاينة لإقامة «وطن قومي لليهود» في فلسطين . لقد انقضى أكثر من ستة عقود منذ قيام الدولة اليهودية والتطهير العرقي الجماعي للغالبية العظمى من السكان الأصليين الفلسطينيين . لم تعد الصهيونية غير فتية فحسب ، وإنما باتت أبعد ما تكون عن حركة أيديولوجية موحَّدة . وفي الحقيقة ، من شبه المستحيل تحديد العناصر الأساسية هذه : ما الذي تهدف إليه الصهيونية ، ومن هو زعيمها؟ هل ثمة صلة أيديولوجية بين الرؤية الإسرائيلية لمصالح الشرق الأوسط والقائمين على مشروع القرن الأميركي الجديد؟ هل ثمة علاقة متصلة بين الجريمة التي ارتُكبت بحق الفلسطينيين في غزة ، باسم الحرب على الإرهاب ، والجريمة ضد الشعب العراقي التي ارتُكبت باسم «الديمقراطية»؟ من الصعب أيضاً العثور على خط فاصل بين الأيديولوجيا اليهودية والصهيونية . فنحن نتعامل هنا مع هويات متداخلة ومتشابكة على نحو كبير .

أشرتُ سابقاً إلى أنه من الممكن استيعاب موضوع الصهيونية بالنظر إليها كنظام ، يسهم كل عنصر من عناصره في الحفاظ عليه ككل . داخل الشبكة الصهيونية لا توجد حاجة لنظام هيمنة جليّ . ففي شبكة كهذه ، يلتزم كل عنصر بالقيام بدوره . والحقّ أن نجاح الصهيونية يكمن في أن الكل أكبر من مجموع أجزائها .

على مدى السنوات ، أصبحت الصهيونية نظاماً فعّالاً يخدم ما تُعرِّفها الصهيونية بالمصالح اليهودية الرئيسية . ضمن البنية الصهيونية ، يستعمر الصهاينة فلسطين ، في حين تقوم الدياسبورا اليهودية بتعبئة جماعات الضغط عبر تجنيد دعم دولي . ويقوم المحافظون الجدد بتحويل الجيش الأميركي إلى قوة مهمات إسرائيلية . أما المناهضون للصهيونية من أصول يهودية (وقد يشمل هذا أيضاً كارهين للذات فخورين مثلي) فهم موجودون كي ينقلوا صورة من التعددية الأيديولوجية والاهتمام الأخلاقي .

بيد أنه داخل هذه الشبكة ، حتى «أعداء الشعب اليهودي» المزعومون لديهم دور واضح . فالرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد هو «هتلر» الحالي ، وبقية ما يوصفون بـ «الفاشيين الإسلاميين» موجودون لاستكمال «الإبادة النازية لليهود» . بمعنى آخر ، فإن الغرض من الرؤية الصهيونية هو تقديم رؤية حاسمة ومتماسكة لقضية الهوية اليهودية المعاصرة والشؤون اليهودية . أضف إلى ذلك أن الصهيونية موجودة لطرح «نظام عالمي» جديد ، تكون فيه الإمبراطورية الناطقة باللغة الإنجليزية بمنزلة القوة الشرطيّة العالمية والمدافعة عن المصالح اليهودية .

على الرغم من أننا نميل تقليدياً إلى ربط الصهيونية بمطمح قومي يهودي بعينه ، بالإضافة إلى دعوة يهودية للعودة إلى صهيون (فلسطين) ، فإن هذا ليس بالضرورة التأويل التاريخي أو الفلسفي العملي الوحيد للمسعى الصهيوني . أقترح أنه من المنطقي أكثر النظر إلى الصهيونية بوصفها مشروعاً قبلياً للمحافظة على اليهودية . بكلمات أخرى ، يمكن ترجمة الصهيونية كحركة عالمية يهودية تضع نصب أعينها منع الاندماج ؛ فهي موجودة هناك للحيلولة دون اختفاء يهود العالم . تبعاً لذلك ، يجب النظر إلى الصهيونية باعتبارها خليطاً من فلسفات مختلفة مختصة بأشكال مختلفة من الانفصالية القبلية والانسحاب من المجتمع والفصل العنصري . فهي موجودة كي تضفي معنى على هوية الفئة الثالثة .

مثل هذا التأويل قد يسلط ضوءاً جديداً على النفوذ اللافت للصهيونية

العالمية ، المتمثل في الدعم العام ليهود العالم للدولة الإسرائيلية . وقد يسلّط بعض الضوء على دور تلك الأصوات اليهودية المتفرقة ، وإن كانت مرتفعة جداً ، التي يحدث وأن تعارض الصهيونية . هذا التحوّل المصطلحي في فكرة الصهيونية من شأنه أن يؤكد علاقة أيديولوجية متّصلة بين موقف هرتسل إزاء الاندماج و«فكّ الارتباط أحادي الجانب» لشارون[1] ، لكنه سيكشف أيضاً صلةً محرجةً للغاية بين الصهيونية اليمينية المتطرِّفة وما يعرف باليسار اليهودي واليهودية المناهضة للصهيونية .

التخلي عن الله

إن اليهود ، ككل الناس ، مخوّلون لترك الله والتخلّي عن إيمانهم وتطليق الدين . على أن التخلي عن الإله ليس نقاشاً فلسفياً كما أنه ليس شكلاً من أشكال التفكير الأخلاقي . ولا يعني هجر الدين بالضرورة أن يصبح المرء إنسانياً ، كما أن العلمَنة لا تتضمن العالمية أو أي موقف أخلاقي آخر . ورفض مفهوم الله ليس فلسفة ، بل إنه ليس طرحاً ؛ فهو مجرّد ممارسة . وفي الحقيقة ، فإن استبدال الله بطرح أخلاقي ينظر إلى الإنسان باعتباره محور الكون ليشكِّل فحوى العلمنة .

---

(١) خطة فك الارتباط أحادي الجانب تعرف أيضاً «بالانسحاب الأحادي» ، وهي الخطة التي اقترحها رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق أريل شارون ، حيث تبنتها الحكومة الإسرائيلية في ٦ يونيو/حزيران ٢٠٠٤ ، وتم تطبيقها في أغسطس/آب ٢٠٠٥ ، وذلك لإخلاء جميع الإسرائيليين من قطاع غزة ومن أربع مستوطنات كائنة شمالي الضفة الغربية . وتم استكمال إجلاء كل المستوطنين الإسرائيليين وهدم المباني السكنية ، وإخلاء الوحدات الأمنية الإسرائيلية من قطاع غزة في ١٢ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٥ . في حين تم تفكيك وإخلاء المستوطنات الأربع في الضفة الغربية بعد عشرة أيام أخرى . (المترجمة)

تاريخياً ، فإن سبينوزا[1] هو من شنّ الهجوم الحداثي على الأرثوذكسية التوراتية اليهودية . وكان هدف سبينوزا استبدال إله إبراهيم بالعقل . وبينما كان المفكرون اليهود ما قبل الحرب العالمية الثانية ، مثل فرانز روزنتسفيغ[2] وهيرمان كوهين[3] وغيرشوم شوليم[4] وغيرهم ، يحاولون رأب الصدع الذي أحدثه سبينوزا من خلال تطبيق حجة فلسفية ، فإن المواجهة الفلسفية اليهودية مع الحداثة ما بعد الحرب العالمية الثانية قد تم استبدالها بشكل سطحيّ من سياسة الهوية اليسارية والتطبيق العملي الصهيوني .

وكانت صحيفة جويش كرونيكل اليهودية اللندنية قد نشرت قبل بضع سنوات مقالةً مثيرةً بحقّ ، قدّمت لمحةً عن المبادئ الفلسفية والسياسية لزوجين يهوديين اشتراكيين ، مناهضين للصهيونية ، تخليا عن إله إبراهيم . وعلى الرغم من حقيقة أنهما فخوران بتخليهما عن الله ، فإنهما لا يزالان يقيمان الـ«سيدر»

---

(١) باروخ سبينوزا : (١٦٣٢-١٦٧٧) ، فيلسوف يهودي هولندي ، وضع الأساس لحركة التنوير في أوروبا في القرن الثامن عشر والنقد الحديث للنصوص الدينية . يعتبر أحد أبرز «العقلانيين» في فلسفة القرن السابع عشر . نشأ في مجتمع يهودي هولندي ، متبنياً مع الوقت أفكاراً وآراء مثيرة للجدل تشكك بمصداقية التلمود وبالطبيعة الإلهية ، ما دعا السلطات الدينية اليهودية إلى إصدار «مقاطعة» بحقه ، ليتم على الإثر طرده من المجتمع اليهودي وهو في الثالثة والعشرين من عمره . (المترجمة)

(٢) فرانز روزنتسفيغ : (١٨٨٦- ١٩٢٩) : فليسوف وعالم لاهوت يهودي ألماني .

(٣) هيرمان كوهين : (١٨٤٢- ١٩١٨) : فيلسوف يهودي ألماني ، ينظر إليه البعض بوصفه أهم فيلسوف يهودي في القرن التاسع عشر .

(٤) غيرشوم شوليم : (١٨٩٧- ١٩٨٢) : مؤرخ وفيلسوف يهودي ألماني المولد ، يعتبر مؤسس الدراسة الأكاديمية الحديثة للقبالة والتصوف اليهودي .

في عيد الفصح اليهودي[1] ، كما ختنا ولديهما التوأمين ، وأقاما لهما أيضاً حفل «بار متسفا»[2] غير ديني الطابع . إلى حدٍّ ما ، تقيم تلك المقالة حواراً بين صوت «المجتمع اليهودي» السائد وما يطلق عليه «الصوت اليهودي المنشقّ» . هذه قصة الصحفية اليهودية جوليا بارد (٥٦ عاماً) والمدرِّس ديفيد روزنبيرغ (٤٨ عاماً) ، وكلاهما عضو مؤسس في جماعة الاشتراكيين اليهود في بريطانيا . ففي المقالة نظرة مختلسة إلى العالم الغريب المشوب بالتناقض لليسار القبليّ اليهودي . أعترف أن جوليا هي التي فتحت عينيّ وقادتني إلى تحوّل مصطلحيّ يطرح الصهيونية في ضوء جديد .

وفقاً لصحيفة **جويش كرونيكل** اللندنية : «جوليا بارد وديفيد روزنبيرغ يهوديان ملتزمان ، إذ يقاربان التاريخ اليهودي بعاطفة متّقدة ، كما تنطوي حياتهما الاجتماعية على عنصر يهودي قوي ، ولقد ورّثا طفليهما عشقاً للثقافة اليديشية والعبرية . ولا ينتمي ديفيد وجوليا إلى كنيس ، كما لا يؤمنان بالله ، وهما مناهضان للصهيونية . على أن لديهما شعوراً قوياً بأن هذه العوامل يجب ألا تستثنيهما من القبول الكليّ كجزء من المجتمع اليهودي العام .

---

(١) السيدر : كلمة عبرية تعني «ترتيب» أو «نظام» ، وسيدر عيد الفصح ، هو عشاء عيد الفصح اليهودي ، الذي ينظم عشية اليوم الـ١٤ من شهر إبريل/ نيسان في التقويم العبري ، وعشية اليوم الـ١٥ من الشهر نفسه لليهود الملتزمين دينياً خارج إسرائيل ، حيث يقام السيدر ، أو العشاء وفق طقوس دينية معينة . (المترجمة)

(٢) بار متسفا أو برمتسفاه : هو سن البلوغ وفق الشريعة اليهودية ، وتعني «برمتسفاه» حرفياً «بلوغ سن التكليف الديني» ، وهي عبارة آرامية الأصل ، حيث تشير «بر» إلى «الابن» المسؤول عن تنفيذ الـ«متسفاه» أي الأوامر والنواهي . ويطلق هذا المصطلح على اليهودي عند بلوغه سن النضج واكتسابه الهوية اليهودية (الثالثة عشرة ويوماً بالنسبة إلى الذكور ، والثانية عشرة ويوماً للإناث «بت متسفاه») . ويقام بهذه المناسبة احتفال ديني في المعبد يعقبه احتفال عائلي في المنزل . (عن **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**- المترجمة) .

وكالعديد من اليهود المندمِجين ، يصرّ كل من ديفيد وجوليا على تقليص اليهودية بحيث تقتصر على توجّه قبلي تعزّزه بعض الجوانب الثقافية ؛ فهما يحبان اللغة اليديشية ، كما يحبان «التاريخ اليهودي» . وعلى غرار الإسرائيليين واليهود المندمجين في العصر الحديث ، لعلّهما ينظران إلى الكتاب المقدّس كنصّ تاريخي شعبوي بدلاً من كونه دليلاً روحياً نخبويّاً . وهذه ليست جريمة .

وعلى الرغم من أن ديفيد وجوليا لا يكنّان حباً كبيراً لله ، وعلى الرغم من حقيقة أنهما ليسا مفتونين تماماً باليهودية ، فإنهما واصلا اتباع طقس الدم اليهودي ، حيث ختنا طفليهما . وعلى الرغم من نبذ جوليا وديفيد الإيمان اليهودي ، فإنهما لا يزالان يتوقان بشدّة كي يكونا جزءاً من المجتمع اليهودي . أتساءل لماذا؟ فما الذي يحتاجان إليه من المجتمع اليهودي؟ لماذا لا يمضيان قدماً بـ«أجندتهما الاشتراكية» وينضمّان إلى الأسرة البشرية كشخصين عاديين؟ العديد من الناس في مختلف أنحاء العالم لا يؤمنون بالله ، وملايين الغربيين تخلوا عن إيمانهم ، ومع ذلك لا يصرّون على وصف أنفسهم بكاثوليكيين ، أو هندوسيين ، أو بروتستانتيين ، أو مسلمين . تراهم ينخرطون في حياة جديدة في مجتمع متعدد الثقافات ومتعدد الإيمان .

تؤمن جوليا ، من ناحيتها ، بتعدّد الثقافات ، لذا تجيب بالقول : «أردتُ أن أظل يهودية . . . . أريد أن أبرهن بأن هناك طريقة يكون فيها المرء يهودياً لا تتضمن تلاوة الصلوات لإله لا تؤمن به .»

من الواضح أن جوليا ، كالعديد من اليهود الآخرين المنعتِقين ، تتوق لهوية حقيقية ؛ حيث تبحث عن صوتها العلماني الفردي مع الحفاظ على روابطها مع تراثها اليهودي . مرة أخرى ، هذه ليست جريمة ، ومع ذلك أتساءل لماذا لا تنظر إلى نفسها فقط كيهودية أو حتى كيهودية علمانية دون التماس «القبول» من «المجتمع اليهودي»؟ على سبيل المثال ، أعتبر نفسي «فلسطينياً يتحدث العبرية» ، ولا أسعى إلى التماس موافقة أحد للقيام بذلك . كما أعتبر نفسي «يهودياً كارهاً لذاته وفخوراً بذلك» ، ومن جديد ، لا أحتاج إلى موافقة أحد . أما

جوليا فتحتاج إلى موافقة ، حيث تتوقع أن يقبلها المجتمع اليهودي على الرغم من الحقيقة بأنها ترفض الله والإيمان باليهودية .

وتقترح جوليا جواباً ، إذ تقول : «أفهم هويّتي اليهودية بوصفها هوية إثنية . . .»

لعلنا نصل إلى شيء ما هنا . فقد طُرحت كلمتا «الإثنية» و«الهوية» السحريتان في الخطاب . فما الذي تعنيه جوليا حين تشير إلى «الهوية الإثنية»؟ أتقصد حساء الدجاج الشهير أم لعل المقصود سمك الغيفيلت[1] هذه المرة؟ هل «الهوية الإثنية اليهودية» أحد أشكال الانتماء إلى التراث والتاريخ اليهودي؟ مرة أخرى ، أنا واثق تماماً أنه لا يوجد أحد قد يمنع جوليا وديفيد من الابتهاج من خلال قراءة فصول من التاريخ اليهودي ، وهو عبارة عن سلسلة لا نهائية من الكوارث . في الحقيقة ، لا أحد سيمنع جوليا وديفيد من الاحتفاء بأيٍّ من أعراضهما الثقافية . ومع ذلك ، يتطلع ديفيد وجوليا إلى ما هو أكثر قليلاً من الاحتفاء ، فمن الواضح أنهما يريدان أن يحظيا بالاعتراف .

ها أنذا ثانيةً أجد نفسي مشوّشاً بعض الشيء . فالاعتراف أمرٌ قد تسعى إلى تحقيقه ، ومع ذلك هو ليس شيئاً تستطيع أن تطالب به أبداً . من بين خطاياي أنني أعزف الجاز . وأودّ فعلياً أن أحظى باعتراف واسع النطاق كعازف ساكسفون بارز ، وكصوت أصيل ، لكنني لن أفكر أبداً بأن أصرّ في مجلة للجاز بأنه يتعين على مجتمع الجاز أن يقبلني أو يعترف بإسهامي بصرف النظر عن مزاياي . فـ«قبولي» كفنان يخضع بالتأكيد لإنجازي وإسهامي في الشكل الفني . إلى ذلك ، تصر جوليا بأن يتم الاعتراف بها كيهودية ، دون أن تشير أو تحدِّد ما هو إسهامها بالضبط في الخطاب والتجربة اليهوديين .

فيما يبدو ، فإن الهوية بدلاً من المنطق هي ما تعني جوليا بارد وصحيفة

---

(١) سمك الغيفيلت : طبق سمك أشكنازي يهودي ، يؤكل في العادة يوم السبت (يوم الراحة عند اليهود الذي يُحرّم فيه العمل) وفي الأعياد والعطلات الدينية .

جويش كرونيكل . على أنه من الواضح أن جوليا تؤمن بأنّ هويةَ المرء تنعكسُ على مصداقيته أو أصالته . لكن من الجليّ أن جوليا ، على غرار آخرين عديدين ، مخطئة . وكما شرحتُ آنفاً ، فإنّ العكس هو الصحيح . فالهوية وسياسة الهوية تبعدان المرء عن أي مفهوم للأصالة أو المصداقيّة . إذ تهدف سياسة الهوية إلى وضع معايير للتماهي ، وفئات الانتماء ، حيث تطالب بالاعتراف . كما تفضّل التحشيد والتجميع بدلاً من تأمّل الذات أو أي شكل من أشكال التفكير الحقيقي . في الواقع ، معظم الناس الذين لديهم فكرة صادقة عن الذات لا يتوسّلون القبول من أي مجتمع ، سواء أكان يهودياً أم خلاف ذلك ؛ إذ يتم الاعتراف بهم لما «هم عليه» ، بدلاً من قبولهم لما يزعمون أنهم يكونونه .

وتؤمن جوليا ، التي تعتبر نفسها يهودية «تقدميّة» ، بأن «المستقبل اليهودي يعتمد على كون المجتمع شاملاً للجميع بدلاً من كونه إقصائياً .»[١] وكون جوليا جزءاً من جماعة إثنية ، فإنها معنيّة بصدق بالقضايا المتعلقة بالاندماج والحفاظ على الشعب اليهودي . على أنها ، وخلافاً للتعاليم الحاخامية ، ترحّب بتهجين جماعة يهودية ما بدلاً من التماثل الصارم . «هؤلاء الناس الذين يشكون من تقلّص المجتمع اليهودي ينطلقون من فرضية خاطئة - مفادها أن اليهودية تظل غير متغيِّرة وأنك لا تستطيع أن تكون يهودياً دون أن تكون متديِّناً .»[٢]

(1) Women Against Fundamentalism and the Jewish community, journal no.4 1992/1993. Pp.3-5

(٢) خلافاً للمسيحية والإسلام ، فإن اليهودية ديانة غير إصلاحية . لا يوجد مجال في اليهودية لأي تعديلات حتى وإن كانت طفيفة . فاليهودية عبارة عن قائمة من الوصايا المُحكمة ، البالغ عددها ٦١٣ ، والتي يجب اتباعها بصرامة . من وجهة نظر يهودية (أي دينية) ، فإن الابتعاد عن اليهودية يعني ، عملياً ، تشكيل كنيسة جديدة . لو كانت جوليا أكثر اطلاعاً بعض الشيء على اليهودية ، لتمكّنت من التعبير عن رأيها بأسلوب علمي أكاديمي ، قائلة : «بينما تظل اليهودية غير متغيِّرة ، تستطيع مع ذلك أن تظل يهودياً دون أن تكون يهودياً متديِّناً . إن اليهودية (كديانة) واليهودية (كأيديولوجيا) أمران مختلفان . فبينما اليهودية (كديانة) هي جوهر ديني غير متغيِّر ، ==

لكن ثمة قلقاً أعظم تثيره جوليا . فاليهودي «المتحرِّر» ، فيما يبدو ، لينزعج من الحقيقة بأن المجتمع اليهودي يشهد «تقلّصاً» أو «انكماشاً» . وقد يتساءل المرء لماذا يبدو كائن متحرِّر ، يهودي «تقدمي» و«اشتراكي» ، معنياً بقضايا تتعلّق باندماج وتفسّخ مجتمع قبلي «رجعي» ، موجّه عرقياً .

قد يوفِّر مفهوم الاشتراكية اليهودية الجواب . فالاشتراكية اليهودية ، على غرار الديانة اليهودية ، تعدّ أيديولوجيا بالغة الخصوصية ، فريدة من نوعها ، معنية بصفة أساسية بالمصالح اليهودية واليهودية عموماً . هذا ما عثرتُ عليه في موقع «من نحن» على شبكة الإنترنت ، وهو الموقع الذي ينضمّ إليه الزوجان الاشتراكيان اليهوديان : «نحن (جماعات الاشتراكيين اليهود) نتوحّد حول القضايا التي نعتبرها حاسمةً في ما يتعلق بمستقبل المجتمع اليهودي .» على ما يبدو فإنّ جوليا بارد ورفاقها اليهود جزء من المجتمع اليهودي ، والموضوعات التي تعنيهم هي مسائل تتعلّق بمستقبل القبيلة اليهودية . ومن شأن قراءة هذه الأسطر أن يذكِّرني بشيء ما . ففي الواقع كان جدّي ، اليميني ، العنصري ، الإرهابي ، أحد قادة منظمة **الإرغون** ، هو الذي أصرّ بأن «الاشتراكية اليهودية» ليست متناقضة فحسب ، وإنما خادعة حتى النّخاع .

قد يتساءل الماركسي العادي لماذا تردِّد جوليا بارد وديفيد روزنبيرغ ورفاقهما الكلمات التي أطلقتها الصهيونية المتطرفة غولدا مائير ، رئيسة وزراء إسرائيل في سبعينات القرن الماضي ؛ إذ تقول مائير : «بالنسبة لي أن يكون المرء يهودياً

== فإن الأيديولوجيا اليهودية مفهوم ديناميكي يشهد تغيّراً متواصلاً . والحقّ أن هذا هو واقع الحال مع الصهيونية . فالصهيونية تتمة ديناميكية للأيديولوجيا اليهودية : فهي عنصرية ، وإقصائية ، واستعلائية ، وأنانية ، ومع ذلك هي ليست يهودية ؛ إذ لا علاقة كبيرة لها بالديانة اليهودية . قد تكون مشيحانية بالمعنى المحلي أو الإقليمي ، لكنها تفتقر إلى الألوهية اليهودية . في الحقيقة ، وبهذا المفهوم ، فإن الصهيونية تعارض الديانة اليهودية .

يعني ، كما عنى على الدوام ، أن يكون فخوراً لأنه جزء من شعب حافظ على هويته المميزة لأكثر من ألفي عام ، مع كل الألم والعذاب الذي تعرض له .» (غولدا مائير ، حياتي) . ولقد عُرف عن مائير أيضاً قولها بأنّ الزيجات المختلطة تشكِّل التهديدَ الأكبر للشعب اليهودي . مثل جوليا ، كانت مائير معنيّة بسياسة الهوية . ومثل جوليا ، كانت مائير عضواً في ناد . ومثل جوليا ، كانت مائير قلقةً بشأن الاندماج الذي اعتبرته «التهديد الأكبر على المستقبل اليهودي .»

أمن الممكن أن تكون جوليا بارد وغولدا مائير وجهيْن لعملة الصهيونية؟ قطعاً ثمة فرقٌ واحد بيِّن . فبينما كانت مائير صقراً حقيقياً ، حيث تحدثت على نحو قبليّ وفكرت بصورة قبلية ، فإن جوليا وأصدقاءها يتحدثون «عالميّاً» ، لكن يبدو لي أنهم يفكّرون على نحو قبليّ .

استحضار الصهيونية

لا يُعتبر ديفيد روزنبيرغ وجوليا بارد وغولدا مائير مجدِّدين تماماً هنا ، حيث أظهر كلٌّ واحد منهم الهدف الأساسي الأصلي للصهيونية ، ألا وهو : مواجهة اندماج وانحلال الهوية اليهودية . وكان هرتسل ونورداو قد أثارا من قبل ، في العام ١٨٩٧ ، مخاوفَ مشابهةً لتلك التي عبرت عنها غولدا مائير وجوليا بارد .

إذا أعدنا تعريف الصهيونية كشكل حديث من الحركة الناشطة اليهودية ، التي تسعى إلى إيقاف الاندماج ، نستطيع عندئذ إعادة تقييم كلّ النشاط القبلي اليهودي كنقاش داخلي ضمن حركة سياسية صهيونية متنوِّعة - ويمكن النظر إلى استعمار فلسطين حينئذ باعتباره مجرَّد وجه آخر من وجوه الصهيونية . وتلتقي الاشتراكية اليهودية والحركة التقدمية اليهودية مع المشروع الصهيوني على نحو تام . كجزأين متمِّمين في الشبكة الصهيونية ، تراهما معنييْن بمستقبل القبيلة العلمانية اليهودية - فهما موجودتان لجمع الأرواح الضائعة بين اليهود الإنسانيين ، وإرجاعهم إلى الوطن/البيت للاحتفال

بالحـــانوكـــاه[1] . ويشكّل لوبي إســـرائيل وكل من هم على شـــاكلة ألان ديرشُويتس[2] في العالم أصوات الصهيونية ؛ أما الاشتراكيون من الفئة الثالثة فهم موجودون لمنع اليهود الكارهين لذاتهم ، بفخر ، من فضح المستور وكشف الحقائق .

هل جوليا بارد وديفيد روزنبيرغ والرفاق مدركون للدور الصهيوني الذي قد يُنظر إليهم بأنهم يمارسونه؟ هل يتصرفون بوعي بالنيابة عن شبكة قبلية مجرَّدة أو «مؤامرة يهودية»؟ لا أعتقد ذلك . كما ذكرتُ سابقاً ، لا أؤمن بالمؤامرات اليهودية : فكل شيء يتم القيام به على المكشوف . كذلك ، لا أؤمن بأن من يوصفون باليهود «التقدّميين» على دراية بالمشروع القبلي الكبير الذي يشاركون به بحماسة شديدة . على أنه مرة أخرى ، فإن معظم الإسرائيليين أنفسهم ليسوا مدركين تماماً للهدف الأكبر للمشروع الصهيوني الذي يخدمونه ، بمن في ذلك جنود الجيش الإسرائيلي الذين ينتشرون في حواجز الطرقات في الأراضي المحتلة ، بل وحتى الطيارون الذين يلقون القنابل على أحياء ومناطق غزة المكتظة بالسكّان . بل من المحتمل أن أشخاصاً على شاكلة وُلفُويتس وشارون ونتنياهو عاجزون عن فهم أدوارهم .

---

(١) الحانوكاه : عيد يهودي ، يعرف أيضاً بعيد الأنوار ، ويحتفل به اليهود سنوياً في وقت محدد من السنة العبرية (تقع في السنة الميلادية بين أواخر نوفمبر/تشرين الثاني وأواخر ديسمبر/كانون الأول) من كل عام ، وتستمر الاحتفالات التي تتخللها بعض الطقوس الدينية مدة ثمانية أيام . (المترجمة)

(٢) ألان ديرشُويتس : (مولود في ١٩٣٨) محام أميركي ، وقانوني ومعلّق سياسي . يعد ديرشويتس داعماً صريحاً لإسرائيل . في العام ٢٠٠٣ ، نشر كتاباً بعنوان **The Case for Israel** ، يدافع فيه عن القضية الصهيونية والسياسات الإسرائيلية . في مارس/آذار ٢٠٠٦ ، أشار ميرشايمر ووالت ، مؤلفا دراسة «اللوبي الإسرائيلي والسياسة الخارجية للولايات المتحدة» (نشرت الدراسة في دورية لندن ريفيو أوف بوكس) إلى ديرشويتس تحديداً بوصفه «اعتذارياً» للوبي الإسرائيلي .

إن الصهيونية ناجحة للغاية لأنها مشروع عالمي لا رأس له ، لكن له أيدٍ كثيرة . وتضع الصهيونية إطاراً حديثاً أو قالباً للقبليّة اليهودية من خلال دمج كل العناصر في قوة ديناميكية ، وتقوم بتحويل المعارضة لها إلى قوّة منتِجة .

السلام، شالوم والغيتو

في يونيو/ حزيران ٢٠٠٤ ، غيّر أرييل شارون[1] ، الرجل الذي أنفق الشق الأفضل من حياته يقتل أعداء إسرائيل ، محولاً الدعوة للحرب إلى شكل من أشكال الفن ، مواقفَهُ على نحو مفاجئ . فأثناء أيامه الأخيرة في السلطة ، كما تبيّن ، أصبح شارون محبّاً للسلام ، حمامة صهيونية ؛ حيث قدّم هذا العلاّمة في سياسة الدم مبادرةً عُرفتِ باسم «فكّ الارتباط الأحادي» .

تُعدّ **شالوم** (أي سلام بالعبرية) ، كلمةً مربكةً نوعاً ما ، فهي لا تُترجم إلى سلام بالضرورة . بمعناها العبري المعاصر ، تشير إلى الظروف والشروط اللازمة لضمان أمن الشعب اليهودي في إسرائيل . وحين يستخدم مسؤولون إسرائيليون

---

(١) أرييل شارون : (مولود في ١٩٢٨) ، رئيس وزراء إسرائيل الأسبق ، يرقد منذ ٤ يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٦ في غيبوبة جراء إصابته بجلطة في الدماغ . يضم سجله العسكري مشاركته في الحرب الإسرائيلية التي نتجت عنها نكبة ١٩٤٨ ، وفي مجزرة قبية عام ١٩٥٣ ، وهي المجزرة التي أشرف عليها بنفسه وقتل خلالها مع عناصر من الجيش الإسرائيلي نحو ٧٠ مواطناً فلسطينياً ثلثاهم من النساء والأطفال وذلك في قرية قبية الواقعة في الضفة الغربية . كما أدين عن دوره في مجزرة صبرا وشاتيلا في لبنان عام ١٩٨٢ ، والتي تعد الأفظع من نوعها في تاريخ المجازر الفلسطينية . في العام ٢٠٠٠ ، استفز مشاعر الفلسطينيين بزيارة المسجد الأقصى ، لتكون زيارته الشرارة التي فجرت الانتفاضة الثانية . ترأس شارون حزب الليكود اليميني عام ٢٠٠٠ ، وتولى رئاسة وزراء إسرائيل في الفترة من ٢٠٠١ إلى ٢٠٠٦ ، ليختم سجله في المجازر بمجزرة جنين في العام ٢٠٠٢ ، ضمن عملية اجتياح شاملة للضفة الغربية . (المترجمة)

كلمة **شالوم** ، تراهم دائماً ما ينتهي بهم المطاف نوعاً ما يتحدّثون عن أمن شعب واحد فقط ، وهم اليهود .

وكان شارون ، وهو الجندي المخضرم المنهك ، قد أدرك أن أفضل استراتيجية لتأمين مستقبل دولة مخصَّصة لليهود فقط هي سحب المستوطنين اليهود القليلين نسبياً من أراضي قطاع غزة وشمالي الضفة الغربية ذات الهيمنة السكانية الفلسطينية ، ودعْم نسخة معتدلة من التوسّعية القومية اليهودية . لقد فهم شارون أنه ، على الرغم من وجود كل أنواع الأسلحة تحت تصرّف إسرائيل- أسلحة تقليدية ونووية ، بالإضافة إلى أسلحة دمار شامل أخرى - فإن الفلسطينيين لديهم سلاح واحد فقط : القنبلة الديمغرافية ؛ والحقّ أن الفلسطينيين يشكّلون حالياً أغلبية السكان في المنطقة الكائنة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط .

كما هو متوقَّع ، رُفضت مبادرة شارون تماماً من قبل صقور حزب الليكود اليميني . غير أنه لم يضيِّع أي وقت ، فترك في العام ٢٠٠٥ الحزب الذي شكّل بيته السياسي لأكثر من ثلاثة عقود ، وشكّل حزب كاديما («إلى الأمام» بالعبرية) ، وهو حزب جديد أيّد عملية إخلاء جزئية ، أحادية الجانب ، فورية من الأراضي المحتلة . وقد صوّت الناخبون الإسرائيليون للجنرال المخضرم في انتخابات ٢٠٠٦ ، والتي حلّ حزب كاديما فيها في المركز الأول . من الواضح أنهم اتفقوا مع الخطوة السياسية الحاذقة لشارون ، فاختفى منافسو الحزب الجديد ، على الأقل مؤقتاً .

إن الديمقراطية الليبرالية لتفي بوعدها ما إن تنعكس إرادة الناخبين في شؤون الدولة . لقد نجح شارون في العزف على الوتر الصحيح ، موقظاً الحنين النوستالجي اليهودي للغيتو ، حيث وعد بتشييد جدار ضخم يعمل على فصل الفلسطينيين . فهم شارون توْق نورداو الأصيل للـ«شْتَتْل» على نحو يفوق أياً من معاصريه . من هنا ، يمكن اعتبار الصهيونية إعادة قراءة لرواية الغيتو بمعانٍ إيجابية برّاقة . لقد كان الغيتو ، كما يقول نورداو «بالنسبة ليهودي الماضي ليس

سجناً وإنما ملاذ . . . ففي الغيتو ، يوجد لليهودي عالمه الخاص به ؛ حيث كان الملجأ الآمن ، الذي تجسّدت فيه ، بالنسبة له ، القيمة الروحية والمعنوية للبيت الأبوي .»[١]

لقد استوعب شارون رسالة نورداو الخاصة بالتوْق اليهودي : فالصهيونية تدور حول إلغاء الآخر ، وإعادة خلق الظروف التي يستطيع فيها اليهود الاحتفاء بسماتهم وخصائصهم ، ويمكنهم من خلالها أن يحبّوا أنفسهم لما هم عليه - أو ، على الأقل ، لما يعتقدون أنهم عليه .

وعد شارون بإقامة جدار ، بيد أنه كانت ثمّة هُوّة ديالكتيكية تتسع . فبقدر ما كانت الصهيونية تعِدُ باستبدال الاندماج بإطار حديث التشكُّل من الانفصال والعزلة ، فإنها وعدت كذلك بخلق يهودي إنساني ، متنوِّر ، مختلف تمام الاختلاف عن بني جلدته من يهود الدياسبورا . وبقدر ما يريد اليهود الصهاينة أن يكونوا محميّين بواسطة الأسوار والردع النووي ، فإنهم يريدون أيضاً أن يكونوا «مواطنين عالميين» . كذلك ، يريد الإسرائيلي أن يسافر في رحلات رخيصة على متن خطوط «إيزي جيت» الجوية[٢] ، وأن يتناول الحمّص في شارع إدجْوير عشية الكريسماس ، علاوة على الحرص على التبكير بما يكفي كي يكون أول الوافدين إلى شارع أكسفورد في موسم التنزيلات في عطلة «يوم

(١) ماكس نورداو ، خطابه الذي ألقاه في المؤتمر الصهيوني الأول ، بال ، سويسرا ، ٢٩ أغسطس/آب ١٨٩٧ . انظر : (http://www.jewishvirtuallibrary.org/jsource/Zionism/nordau1.html) ، (تمت زيارة الموقع في ٢٠٠١/٠٦/١٥) .

(٢) إيزي جيت : شركة طيران بريطانية ، مقرها مطار لوتون اللندني ، تعمل بنظام الطيران الاقتصادي أو منخفض التكلفة ، تأسست عام ١٩٩٥ . (المترجمة)

الصناديق»[1] . باختصار ، يريد الإسرائيلي المستحيل ؛ وهو أمر ليس سيئاً بالنسبة لهوية قومية فتيّة!

نظرياً ، يمكن وصف الصهيونية كحركة بوصفها صراعاً جدليّاً أو ديالكتيكياً بين التطبيق القبلي الذي يهدف إلى الانعزالية ، والوعد العالمي بالانفتاح والتسامح . إنه جدلٌ مستمرّ بين القدس وأثينا[2] ، يحاول أن يتعهّد بالاثنين ، لكنه محكومٌ بالفشل ، لأن القبلية والعالمية أشبه بالزيت والماء ، فهما لا يمتزجان معاً . ويجد اليهود المعرَّضون لهذه الأيديولوجية الفصامية أنفسهم يتأرجحون بين وعدين متضاربين . فبقدر ما يصّرون على حبّهم لأنفسهم لما يعتقدون أنهم عليه ، تراهم يكرهون أنفسهم لما يصبحون . مثل هذه الظروف يمكن النظر إليها باعتبارها قمة المأساة ، وبرزخاً ميتافيزيقياً ؛ ومع ذلك يمكن أن يتمخّض عنها وضعٌ قوي .

---

(١) يوم الصناديق Boxing Day : هو عطلة رسمية في بريطانيا ، يقع في ٢٦ ديسمبر/كانون الأول ، أو في أول أو ثاني يوم من أيام الأسبوع غداة عيد الميلاد . إلى جانب بريطانيا ، يتم الاحتفال بهذا اليوم في أستراليا وكندا ونيوزيلندا ، وبعض دول الكومنويلث الأخرى . في هذا اليوم ، يقوم الأغنياء وصفوة المجتمع البريطاني بتقديم صناديق فيها هدايا لخدمهم والعاملين لديهم ، كتقليد متداول منذ قرون حين كان أبناء الطبقة الأرستقراطية يضعون بقايا طعام ليلة الميلاد وبعض الهدايا في صناديق يمنحونها للفقراء والمحتاجين . (المترجمة)

(٢) القدس وأثينا : تعبير يشير إلى صراع أو شقاق رمزي قيمي أو ثقافي ؛ فبينما ينظر الفلاسفة إلى اليونان وروما القديمتين باعتبارهما الدعامتين المؤسستين للحضارة الغربية ، يميل المحافظون إلى «توليفة ثقافية» تعترف بأثينا وفي الوقت نفسه ترسخ المسيحية كمكون أساسي في الحضارة الغربية . فالعلاقة بين القدس ، ذات المكانة الدينية الروحية ، وأثينا ، موطن الفلسفة ، علاقة تقابلية ، شبه تضادية ؛ فأثينا ترمز إلى الحقيقة المكتشفة من خلال العقل ، في حين تمثل «القدس» وجهة النظر القائلة بأنه يمكن التوصل إلى الحقيقة من خلال الوحي . أثينا تجسد المعرفة والعلم ، بينما تشير القدس - بما تطويه من معاني القداسة - إلى الإلهام الروحي . (المترجمة)

وشاءت الظروف ألا يتمكن شارون من خوض الانتخابات ؛ فقد أدخلته جلطة دماغية أصيب بها أوائل عام ٢٠٠٦ في غيبوبة دائمة ليحلّ إيهود أولمرت[١] مكانه . بعد بضعة أسابيع ، فاز أولمرت بالانتخابات ، وإن لم يكن فوزه سهلاً على النحو الذي كان يمكن لشارون أن يحققه . فشكّل حكومة وحدة وطنية وسطيّة مع حزب العمل ، ووفّر المناخ السياسي اللازم لتطبيق أجندة شارون أحادية الجانب . لكن المحتوم وقع ، فما إن وقعت حادثة طفيفة نسبياً لها علاقة بحزب الله على الجانب اللبناني من الحدود الشمالية لإسرائيل ، حتى قام أولمرت – بدعم من «حكومة الوحدة الوسطيّة» الساعية إلى السلام- بإطلاق القوة العسكرية من عقالها ، لتدكّ لبنان دكاً ، مسوِّية بنيتها التحتية بالأرض . تجدر الإشارة إلى أن عدوان أولمرت كان استمراراً طبيعياً في الواقع لمبادرة شارون للسلام ، وتجسيداً لفلسفة الغيتو التي تبناها الجنرال . (على أن الغيتو الجديد يشبه حصناً معادياً فيه ما يكفي من القوة النووية لتحوِّل الشرق الأوسط إلى رماد .)

مع بدء العدوان ، استسلم الإسرائيليون – الذين كانوا حتى قبل بضعة

(١) إيهود أولمرت : (مولود في ١٩٤٥) ، سياسي إسرائيلي ، كان رئيساً للوزراء في إسرائيل من ٢٠٠٦ إلى ٢٠٠٩ ، وكان وزيراً من ١٩٨٨ إلى ١٩٩٢ ، ثم من ٢٠٠٣ إلى ٢٠٠٦ ، كما كان عمدة للقدس من ١٩٩٣ إلى ٢٠٠٣ ، في ٤ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٦ ، وبعد إصابة آرييل شارون بجلطة دماغية دخل على أثرها في غيبوبة ، تولى أولمرت صلاحيات رئيس الوزراء . وفي مارس/آذار ٢٠٠٦ ، قاد أولمرت حزب كاديما ، الذي أسسه مع شارون وتولى رئاسته لاحقاً ، إلى الفوز بانتخابات الكنيست . وبعد أسبوعين من الانتخابات ، أعلن رسمياً أن شارون عاجز عن أداء مهامه كرئيس وزراء ، ليصبح أولمرت ، قانونياً ، رئيس وزراء بالوكالة ، ومن ثم بعد أقل من شهر أصبح أولمرت رسميا رئيس وزراء إسرائيل . أثناء توليه منصب عمدة بلدية القدس ، دشن مشاريع تهويد القدس الشرقية ، وشنت حكومته عملية «أمطار الصيف» العدوانية على غزة عام ٢٠٠٦ ، وفي العام نفسه قامت بشن حرب على لبنان . (المترجمة)

شهور خلت يباركون مبادرة شارون للسلام - للروح البطولية المعهودة للهيب والموت . وما إن اندلعت الحرب ، حتى وقفوا خلف حكومتهم ، داعمين لها ، من بينهم بالطبع المفكرون والمثقفون المحسوبون على اليسار الإسرائيلي . في هذا الصدد ، كتب ناشط السلام الإسرائيلي المخضرم يوري أفنيري[1] ، يقول : «حين بدأت الحكومة هذه الحرب ، أيدتها لائحة مثيرة للإعجاب من الكتّاب . فمن جديد ، توحّد كل من عاموس عوز[2] و أ . ب . يهوشواع[3] ، وديفيد

---

(١) يوري أفنيري : (مولود في ١٩٢٣) ، كاتب وصحفي إسرائيلي ، مؤسس حركة السلام «غوش شالوم» (كتلة السلام) . اشتهر إبان الاجتياح الإسرائيلي للبنان حين تجاوز حصار بيروت للقاء الزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات في ٣ يوليو/تموز عام ١٩٨٢ ، ليكون أول إسرائيلي يلتقي الزعيم أبو عمار . لأفنيري العديد من الكتب والمؤلفات من بينها : **حكاية جندي ؛ والطريق الدموي إلى القدس ؛ والدائرة الشريرة لإسرائيل ؛ وصديقي ، العدو** . (المترجمة)

(٢) عاموس عوز : (مولود في ١٩٣٩) كاتب إسرائيلي ، روائي وصحفي ، يعمل أستاذاً للأدب في جامعة بن غوريون في بئر السبع بفلسطين . دعم علناً حل الدولتين لحل الصراع العربي الإسرائيلي . كان أحد مؤسسي حركة «السلام الآن» في ١٩٧٨ ، ومع ذلك شهدت مواقفه تبدلاً وتأرجحاً ، إذ لم يخجل من إعلان تأييده ومناصرته للعدوان الإسرائيلي على لبنان عام ٢٠٠٦ . وفي ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٨ ، قبل يوم من العدوان الإسرائيلي على غزة فيما عرف بعملية «الرصاص المصبوب» ، وقع عوز على إعلان نشر في صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية يدعم فيه هجوماً عسكرياً ضد حركة حماس في غزة . (المترجمة)

(٣) أ . ب . يهوشواع : (مولود في ١٩٣٦) ، روائي إسرائيلي ومسرحي وكاتب مقالات . على الرغم من أنه يطرح نفسه كناشط متحمّس في حركة السلام الإسرائيلية ، فإنه لم يتردد في تبرير العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة في أواخر العام ٢٠٠٨ ، محملاً مسؤولية قتل الأطفال الفلسطينيين إلى حركة حماس! لا يتردد يهوشواع في تقمص دور الضحية ، متسائلا ذات مرة : «ما الذي جعل الألمان وما الذي جعل الفلسطينيين يكرهوننا؟» كما لو أن الفلسطينيين فعلوا باليهود كما فعل الألمان بهم! (المترجمة)

غروسمان[١] ، الذين يظهرون في العادة كثلاثي سياسي ، في دعمهم للحكومة ، حيث استخدموا كل مواهبهم الكلامية الهائلة لتبرير الحرب . غير أنهم لم يكتفوا بذلك : فبعد أيام من بدء الحرب ، نشر ثلاثتهم إعلاناً مشتركاً في الصحف ، عبروا فيه عن تأييدهم الحماسيّ للعملية .»[٢]

لم تحقق الحملة العسكرية على لبنان في العام ٢٠٠٦ نجاحاً كبيراً - بل كانت ، في الحقيقة ، كارثة بالمطلق . لقد مني الجيش الإسرائيلي بالفشل . ونزلت صواريخ حزب الله كزخات المطر على شمالي إسرائيل ، حيث تحولت المدن والبلدات الإسرائيلية إلى الشمال من مدينة الخضيرة إلى مدن أشباح . ولم يستغرق الأمر طويلاً قبل أن يغير كل من عوز ويهوشواع وغروسمان رأيهم . في هذا الصدد ، يقول أفنيري بغيظ : «بعض الناس يدّعون الآن بأن هذه المجموعة كانت حقاً ضد الحرب . . . قبل بضعة أيام من نهاية الحرب ، نشروا إعلاناً ثلاثياً آخر ، يطالبون فيه هذه المرة بوقفها . في الوقت نفسه ، غيَّر كلٌّ من حزب ميريتس[٣] وحركة السلام الآن (وهما جماعتان ناشطتان ينتسب لهما عوز) موقفهما . لكن أيّاً منهم لم يعتذر أو يعبِّر عن ندمه لتأييده السابق للقتل

---

(١) ديفيد غروسمان : (٢٥ يناير/كانون الثاني ١٩٥٤) كاتب وروائي إسرائيلي . يعتبر من نشطاء السلام - المزعومين - في إسرائيل ، وهو محسوب على اليسار . ومثل عوز ، من مؤيدي حل الدولتين لوضع نهاية للصراع العربي الإسرائيلي ، كذلك أعلن تأييده للحرب التي شنتها إسرائيل على لبنان في العام ٢٠٠٦ تحت ذريعة الدفاع عن النفس . (المترجمة)

(2) Avnery, Uri, I m a Lefitst, but., Counterpunch, 8 September 2006; see (www.counterpunch.org/avnery09082006.html)

(٣) حزب ميريتس : «حزب سياسي ديمقراطي اشتراكي صهيوني يساري» في إسرائيل كما يُعرِّف نفسه ، تأسس في العام ١٩٩٢ ، ويعتبر نفسه ممثلاً لحركة «السلام الآن» في الكنيست الإسرائيلي وفي مجالس البلديات والهيئات السياسية المحلية . وتدعم «أدبياته» السلام مع الفلسطينيين من منطلق حل الدولتين . (المترجمة)

والدمار . أما موقفهم الجديد فكان على النحو التالي : لقد كانت الحرب فعلياً جيّدة ، لكن آن الأوان كي نضع نهايةً لها .»[1]

لم يغيِّر اليسار الإسرائيلي رأيه فحسب ، بل انقلب الجمهور الإسرائيلي بأسره على قيادته : إذ شهدت شعبية أولمرت انخفاضاً حاداً ، وأصبحت المسيرة السياسية لوزير الدفاع الإسرائيلي عن حزب العمل عامير بيريتس موضوعاً ذا صلة لدى المؤرخين فقط . وتعرض جنرالات الجيش الإسرائيلي للسخرية في وسائل الإعلام .

هذا النوع من التغيّرات المعتادة في مزاج الجمهور الإسرائيلي يعدُّ محصِّلةً أخرى للاضطراب العصابي الجمعي الصهيوني . على أنه مرة أخرى ، تراهم يحبّون أنفسهم لما يعتقدون أنهم عليه ، ومع ذلك فإنهم يكرهون أنفسهم لما أصبحوا عليه .

---

(1) Avnery, Uri, I m a Lefitst, but., Counterpunch, 8 September 2006; see

(www.counterpunch.org/avnery09082006.html)

الفصل ٩
اللاوعي اليهودي هو خطاب الغوييم

ما يخاله اليهود بشأن أنفسهم ليس مثيراً للغاية ؛ والأكثر إثارةً تلك الازدواجية المشار إليها أعلاه ، أيّ الهوّة بين ما يخالون أنهم عليه وما هم عليه فعلياً ، بين الصورة الذاتية والصورة العامة ، بين الوعي واللاوعي . إن اللاوعي ، كما يقول جاك لاكان ، هو «خطاب الآخر» ، وهو شبيه إلى حدٍّ كبير بخوف الذكر من العنّة . فبدلاً من القلق جرّاء الخوف من أن يُقبَض عليك مقصِّراً في أدائك ، فإنّ الخوف يكمن في أنْ تُعرف بأنّك عاجز . فالرعب الحقيقي هنا يتمثّل في التهديد الذي لا يُحتمل بأن يصبح الفشل التام معروفاً على نطاق عام .

عند اندلاع حرب لبنان عام ٢٠٠٦ ، اجتاح «خطاب الآخر» للإسرائيليين محطات «سي إن إن» ، و«سكاي تي في» ، و«بي بي سي» التلفزيونية والغرب عموماً . ومع استمرار الحرب ، بدا كما لو أن الاستياء كان يتعاظم وسط أولئك الذين لم يعودوا راغبين في تقبّل الوحشية الإسرائيلية . والحقّ أنّ هذه الفجوة بين الصورة الذاتية للإسرائيلي الواثق والاحتقار التام للآخر هي تلك بالضبط التي تجلّت في عصابية كل من يهوشواع وعوز وغروسمان وغالبية الإسرائيليين .

بعد عامين ونصف العام من إخفاقها العسكري في لبنان ، وجدت إسرائيل نفسها ثانيةً في خضم حرب كارثية أخرى أشعلتها . لقد كانت هذه عملية «الرصاص المصبوب» (٢٠٠٨) ، وهي حرب شاملة شنّتها على الفلسطينيين في غزّة وقيادتهم المنتخبة ديمقراطياً ، حماس . أثناء الحملة ، سعت إسرائيل إلى تطبيق درس حرب ٢٠٠٦ . من باب التفاؤل ربما ، أعتقد أنه في ذلك الوقت لابدّ من أن أحدهم في مكتب «الهاسباراه» التابع للدولة قد قرأ لاكان . لقد

حاول الإسرائيليون أن يجنِّبوا أنفسهم التوصّل إلى فهم تام لماهيّتهم وما الذي يفعلونه ، وذلك من خلال تغطية كل مرآة ممكنة . تبعاً لذلك ، عمد الجيش الإسرائيلي إلى منع وسائل الإعلام الأجنبية كافة من دخول غزة ، وذلك كي يضمن نجاح الحملة الدعائية . بيد أن الأمر لم يتعلق فقط بمنع **الغوييم** (**الأغيار**) من دخول أرض المعركة ، وإنما منع الإسرائيليين واليهود الصهاينة حول العالم من رؤية أنفسهم من خلال النظرة المتمعِّنة للأغيار . لقد كانت محاولة غير بارعة لحرف مسار الخطاب كي يظل اللاوعي اليهودي بمنأى عن المساس .

كما قد يتوقّع المرء ، هذه المقاربة كانت غير فعالة على الإطلاق . فبينما كانت وسائل الإعلام الغربية سعيدة بتلبية طلب إسرائيل المتعلق بالتعتيم الإعلامي ، التزمت شبكات الأخبار العربية والإيرانية بمبدأ التغطية الإخبارية .

في مرحلة ما أثناء الحرب ، أصبحت قناة الجزيرة ومحطة «برس تي في» الإيرانية المصدر الوحيد للنقل المباشر من ساحة المعركة . حسب المفهوم اللاكاني ، لم تصبح حقيقة المجازر الإسرائيلية خطاب **الأغيار** فقط ، بل تمت تغذيتها وتكريسها من قبل «العدو المطلق» : لقد انتهى المطاف بالإسرائيليين ينظرون إلى أنفسهم من خلال عيون العرب والإيرانيين والمسلمين . وحتماً كانت هذه تجربة مؤلمة .

ليلة بعد أخرى ، شاهدنا الناطقين الإسرائيليين ينكرون استخدام أسلحة الدمار الشامل ، بينما كانت كل شبكة تلفزيونية أجنبية تقوم من وراء ظهورهم ببثّ صور حيّة لقذائف الفسفور الأبيض التي كانت تسقط فوق أحياء غزة . لقد شاهد الإسرائيليون ، الذين شعروا بالخزي والهزيمة ، انفضاح طبيعتهم على حقيقتها .

رجل جادّ

تشكِّل قراءة اللاوعي اليهودي بوصفه خطاب **الأغيار** أمراً أساسياً لفهم النشاط السياسي الإسرائيلي ، ولفهم الإطار الجمعي اليهودي عموماً والفصامية

الجمعيّة القبلية . من مقولات بن غوريون[1] الشهيرة : «لا يهمّ ماذا يقول الأغيار، لكن المهم هو ما الذي يفعله اليهود .» على أنه ، عملياً ، وحين يتعلق الأمر باللاوعي اليهودي ، فإنّ ما يهم حقاً هو ما الذي يراه ويعتقده الأغيار ، لكنهم لا يرغبون في الإفصاح عنه .

يسعى فيلم رجل جاد (٢٠٠٩) للأخوين كوين[2] إلى استكشاف هذه التيمة بأسلوب نافذ وعميق . فالفيلم الذي يقدم مقاربةً مجازيةً سينمائيةً للانفصال الثقافي اليهودي ليعدّ تحفةً فنية ، حيث يسْبر مظاهر شذوذ الوجود القبلي اليهودي . ولا يعمد الفيلم إلى طرح قضايا تتعلق بإسرائيل أو الصهيونية أو الاحتلال أو أي شيء مرتبط بالدولة اليهودية بصورة مباشرة ، متأمّلاً ، بدلاً من ذلك ، في حياة الدياسبورا اليهودية ، والفصل اليهودي ، والتعاسة الناجمة عن العمل والتفاعل ضمن قالب قبليّ متمحور حول اليهودية . يقول الفيلم الكثير عن الاغتراب اليهودي . وفي الوقت نفسه ، يطرح الفيلم رسالةً واضحةً فيما يتعلق بإسرائيل والصهيونية ؛ فإسرائيل هي الدولة اليهودية ، وعلى الرغم من الوعد الصهيوني ببناء أمة متحضِّرة ، فإنها تعمل كغيتو يهودي ، عرضة لكل أعراض الشذوذ التي يعبِّر عنها الأخوان كويْن في الفيلم .

تدور أحداث الفيلم في مدينة مينابولس الأميركية عام ١٩٦٧ ، وهي سنة

---

(١) ديفيد بن غوريون : (١٨٨٦-١٩٧٣) أول رئيس وزراء لإسرائيل . عُرف بأنه من أكثر زعماء الصهاينة تطرفاً . تولى رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية عام ١٩٤٦ . كما رأس الوكالة اليهودية في فلسطين التي كانت بمنزلة الجهاز التنفيذي للمشروع الصهيوني ، حيث سعت إلى تشجيع يهود العالم للهجرة إلى فلسطين ، وتوفير الموارد المالية للمساعدة على إقامة «وطن قومي» لليهود في فلسطين . في ١٤ مايو/أيار ١٩٤٨ ، أعلن بن غوريون بنفسه قيام دولة إسرائيل . (المترجمة)

(٢) جويل ديفيد كويْن ، وإيثان جيسي كويْن : مخرجان ومنتجان أميركيان ، اشتهرا بـ«الأخوان كويْن» ، حيث يعملان على مشاريعهما السينمائية معاً ، ويعتبران من صفوة السينمائيين في هوليود من خلال تحقيقهما مجموعة من الأفلام التي حققت نجاحات نقدية وتجارية . (المترجمة)

بلا شك ذات مغزى كبير في التاريخ اليهودي . يروي رجل جاد قصة لاري ، أستاذ فيزياء يهودي ورجل عائلة . خلال ساعتين فقط ، نشاهد كيف تنهار حياة لاري ، حيث يكون وجوده الكارثي بمثابة لحة داخل المجتمع المنعزل قبلياً الذي يرتبط به .

تلعب حياة لاري الحُلُميّة دوراً مهماً في الفيلم . ففي الحلم ، يواجه لاري طبيعته الحقيقية ، ومخاوفه ، ورغباته ، وذاته غير الأخلاقية . فبينما يكون لاري في اليقظة رجل عائلة مخصياً ، تعاني حياته خللاً ، تراه يتغلّب في حلمه بطريقة ما على ضعفه ، فيضاجع جارته ، وهي امرأة لطيفة تتعاطى المخدّرات ؛ كما يجلب شقيقه ، الذي يواجه مشكلات ، إلى النهر ويرسله بجسارة إلى كندا على متن زورق خفيف ، حيث يعطيه مالاً (وهي رشوة تلقاها لاري في وقت سابق) ، وذلك كي يبدأ بداية جديدة . غير أنه في الحلم نفسه ، يتعرض وشقيقه للعقاب على الفور ؛ فجاره المعادي للسامية يطارد لاري ببندقية يحتفظ بها في العادة لقتل الحيوانات ، حيث يأمر الغوي (أي غير اليهودي) ابنه قائلاً : «اقتل اليهودي» . عند هذه النقطة ، يستيقظ لاري من النوم .

في الحلم ، يُواجه لاري ذنبه من خلال جاره غير اليهودي . وبدلاً من الخوف من أن يكون غير أخلاقي ، فإن ما يعذّب لاري هو خوفه من مغبّة أن يُضبط متلبِّساً بوصفه غير أخلاقي . إنه «خطاب الآخر» (جاره حامل البندقية) هو ما يجعل لاري يشعر في اللاوعي بالذنب . أُحيل هذا الأمر إلى وضع إسرائيل : فليس ما يعذِّب الإسرائيليين ومؤيديهم الفكرة بأنهم غير أخلاقيين ، وإنما الفكرة بأن يتمّ «ضبطهم متلبِّسين» بذلك .

يفتتح رجل جاد باقتباس للحاخام والعالم التوراتي الفرنسي راشي[(١)] ، الذي عاش في القرون الوسطى : «تلقَّ ببساطة كل شيء يحدث لك .» تستعيد

---

(١) شلومو يتسحاقي : (١٠٤٠- ١١٠٥) ، حاخام يهودي فرنسي عرف اختصاراً باسم «راشي» ، يشتهر بأنه وضع تفسيراً شاملاً للتلمود . (المترجمة)

كلمات راشي البليغة سفر أيوب[1] ، الذي يعتبر عموماً محاولة لمصالحة وجود الله مع الشرّ . مثل هذا المسعى كان شائعاً للغاية وسط اليهود من كل الدرجات الدينية بعد الهولوكوست ، إذ تساءلوا مراراً وتكراراً كيف استطاع الله ، إذا كان موجوداً ، أن يسمح بحدوث معسكرات الاعتقال والإبادة . وبدرجة ما ، يطرح لاري على الحاخامات المحليين سؤالاً مماثلاً : «ما الذي يحاول الله أن يقوله لي؟» لكنّ الحاخامات لا يستطيعون أن يسعفوه بأي جواب . كسفر أيوب والحاخام راشي ، لا يوجد لديهم شيء ملموس يقترحونه سوى «القبول» . فالحاخامات موجودون للّيّ أعناق الحقائق ، وادّعاء المنطق . إنهم موجودون لحجب الثقب الأسود ؛ فهم لا يستطيعون أن يصالحوا الله مع الشرّ في العالم ، كما لا يستطيعون تفسير المعاناة اليهودية .

من المثير أن يجترح الأخوان كوين جواباً خاصاً بهما ، لا علاقة له بالله (اليهودي) . بالنسبة لهما ، فإن الثقافة غير السوية الكامنة في التركيبة الذهنية لـ«الغيتو اليهودي» هي السبب الرئيسي فعلياً وراء المعاناة اليهودية . وبينما في الفيلم ترى الجار غير اليهودي هو الذي يدفع لاري مبدئياً كي يواجه ذنبه من خلال الازدراء ، فإن المتفرّج غير اليهودي في الواقع هو الذي تتكشّف له الحياة الداخلية اليهودية السرية عبر هوليود والشاشة الكبيرة . بفضل الأخوين كوين ، فإننا نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام ذاك الذي يفضّل اليهود إخفاءه ؛ حيث يتبنّى السينمائيان ، إلى حدٍّ ما ، دور الواشي أو كاشف الأسرار . كما يطرحان تأويلاً سينمائياً لخطاب الآخر اللاكاني . إن الواقع السينمائي القبلي اليهودي للأخوين كوين هو اللاوعي اليهودي ، الذي لا يفتخر به اليهود على الإطلاق . وكما فعلت قناتا الجزيرة و«برس تي في» في قطاع غزة ، يكشف الأخوان كوين الخللَ في الغيتو اليهودي أمام جمهور من الملايين ، لكنهما يقاربان أيضاً مفهوم اللاوعي اليهودي عن طريق عكْسه في مرآة الشاشة السينمائية .

---

(١) سفر أيوب : أحد أسفار «العهد القديم» ، والعهد القديم هو الكتاب المقدّس لليهود ، ويشار إليه أيضاً بـ«الكتاب العبري» كما يعرف بـ«التناخ» و«التوراة» . (المترجمة)

الفصل ١٠
اليهودي الصالح

أعتقد أن التغيّرَ المفاجئ في المزاج الجمعيّ اليهودي ، في أعقاب حرب لبنان ٢٠٠٦ ، كان نتاج محاولة لتخليص الدولة الفصاميّة من تورّطها في شباك الصهيونية . لقد أثمر الصراع بين القبلية والعالمية عن دولةٍ تعاني من رهاب عارم . وكان كتّاب إسرائيل البارزون عوز ويهوشواع وغروسمانً ، يتأرجحون بين طرفي النقيض هذين ، بين انعزال القدس وانفتاح أثينا ، بين الشتْتل البغيض والمدينة الآسرة .

إنّ النمطَ واضح : فكلما أمعن الإسرائيليون في سعيهم إلى تأمين أنفسهم عبر التشبّث بالعزلة ، ازداد حجم الموت الذي ينشرونه حولهم . من جديد ، هذه القراءة للواقع الإسرائيلي يمكن أن تساعدنا في فهم حجم عملية «الرصاص المصبوب» ، العدوان الإسرائيلي على غزة (٢٠٠٨-٢٠٠٩) ، والاستخدام المفرط في القوّة في ذلك الصراع . فكلما سعت إسرائيل إلى تبرير انسحاب شارون الأحادي من غزة ، كانت مضطرة كي تترك خلفها جثثاً أكثر بعد بضع سنوات فقط من الانسحاب . ولم يكن هذا مجرّد شأن سياسي- فما يقارب من ٩٤ في المئة من السكّان الإسرائيليين اليهود أيّدوا الإجراءات الفتّاكة التي اتخذها الجيش الإسرائيلي ضد المدنيين الفلسطينيين في غزة[1] . لكن ثمة مشكلة ها

---

(١) كشف استطلاع أجرته جامعة تل أبيب إبان الحملة العسكرية الإسرائيلية في غزة (٢٠٠٨- ٢٠٠٩) أن العملية التي نفذها الجيش الإسرائيلي ضد حركة حماس في غزة نالت تأييداً ساحقاً من اليهود الإسرائيليين ، على الرغم من الخسارة في أرواح المدنيين ، فقد عبّر ٩٤ في المئة من السكان ==

هنا ، فكلما سبب الإسرائيليون موتاً أكبر ، تناقص شعورهم بأنهم يشبهون بقية الإنسانية ، وتنامت كراهيتهم للقادة الذين وضعوهم على مثل هذا الطريق الفوضوي .

يرى الإسرائيليون أنفسهم بأنهم يعيشون في بلد ديمقراطي ، وبالفعل إسرائيل دولة ديمقراطية ، وإن كانت ديمقراطية حصرية انتقائية على خلفية عنصرية . لقد عكس هجوم أولمرت الانتقامي على لبنان عام ٢٠٠٦ رغبات الأغلبية ، على الأقل في بداية الحرب . وكشف الاستياء الإسرائيلي المتصاعد إزاء أولمرت وبيريتس والجيش الإسرائيلي صراعاً حاداً داخل الحالة النفسية الجمعيّة الإسرائيلية . وانتهى الأمر بالناس يكرهون أولمرت ورفاقه ، بل باتوا في الحقيقة لا يطيقون أنفسهم . وكلما كرِهَ الإسرائيليون أنفسهم ، ارتعبوا من وضعهم المشؤوم . فهم يمقتون حقيقة أنهم قد يكونون أضاعوا الغيتو إلى الأبد ، ومع ذلك أخفقوا في الانضمام إلى المجتمع الأممي . لم يصبحوا أبداً «أناساً ككل الناس» ؛ بكلمات أخرى : كلّما أصرّوا على أن يحبّوا أنفسهم لما يعتقدون أنهم عليه ، كرهوا أنفسهم لما أصبحوا عليه .

هل يبدو واقع الحال بالنسبة لبارد وروزنبيرغ اليهوديين المناهضين للصهيونية مختلفاً؟ ألا يقعان في المصيدة ذاتها تماماً؟ ألا يحبان نفسيهما كونهما متنوِّرَيْن ، اشتراكيَّيْن تقدميَّيْن ، بينما ينزلقان في الوقت نفسه في سلوك عصابي إذ يدركان أن كونهما برجوازيَّيْن صغيرَيْن قبليَّيْن يهوديَّيْن ، لم ينجحا أبداً في الانضمام إلى الأسرة الإنسانية ، ناهيك بالطبقة العاملة؟ على غرار الإسرائيليين ، فشل روزنبيرغ وبارد وكلّ «اليهود الصالحين» عموماً العاملين

= اليهود الإسرائيليين عن تأييدهم أو تأييدهم القوي للعملية ، بينما رأى ٩٢ في المئة أنها مفيدة لأمن إسرائيل . ولقد وجد الاستطلاع أن ٩٢ في المئة من اليهود الإسرائيليين اعتقدوا أن هجمات سلاح الجو على غزة مبرَّرة ، على الرغم من معاناة المدنيين في القطاع والدمار الذي تلحقه بالبنية التحتية . (http://www.jpost.com/Home/Article.aspx?id=129307) .

ضمن الأندية السياسية المخصصة لـ«اليهود فقط» في العثور على طريقة للدمج ما بين أثينا والقدس . ومن الممكن أيضاً أن أثينا والقدس لا تستطيعان أبداً التمازج معاً في رؤية عالمية سياسية جليّة ومترابطة .

أعتقد أن ثمة ثلاثة طرق نجاة متبقية للصهاينة – ولليهود من الفئة الثالثة :

١ . **الفصْل الكلي** : هذا الشكل من الصهيونية يُقصي مفهومَ الآخر ، أو أيّ تواصل أو تبادل فيما بينهما . هكذا حلّ يتجسّد في فك الارتباط الذي قام به شارون بالإضافة إلى تشبّث الاشتراكيين اليهود بالقبلية ومناهضة الاندماج . لقد تبنّت حكومة نتنياهو (الراهنة) هذا الطريق لتدفع ، عن وعي وطواعية ، الشؤون الدولية الإسرائيلية باتجاه الصراع .

٢ . **العودة إلى الأرثوذكسية** : تكشف أعداد اليهود الذين يتخلون عن الثقافة اليهودية العلمانية ، مجدّدين التزامهم بالديانة اليهودية ، بأنّ هذا الحل ، في الحقيقة ، بات خياراً شائعاً . في العام ٢٠٠٧ ، وجد مسح ديمغرافي أجراه المعهد الإسرائيلي للديمقراطية أن نسبة اليهود الذين يصفون أنفسهم بأنهم علمانيّون قد شهدت انخفاضاً حاداً على مدى الثلاثين عاماً الماضية ، في حين ارتفعت معدّلات المتديّنين والتقليديين . ووجد المسح السنوي أن الجمهور العلماني شكّل ٢٠ في المئة فقط من عدد سكان إسرائيل – وذلك مقارنة بـ٤١ في المئة في العام ١٩٧٤[(١)] .

٣ . **الفرار من اليهودية** : ترك اليهودية والقدس ، وأي شكل من أشكال القبلية اليهودية ، والتخلي عن فكرة «شعب الله المختار» . لعلّ هذا هو الشكل الوحيد من المقاومة اليهودية العلمانية الحقيقية للصهيونية ، والتي يمكن للمرء التعاطي معها بجدية .

---

(1) (http://www.israelnationalnews.com/News/News.aspx/124345).

كان نورداو ، وهو رجل ذكي بلا شك ، يستطيع أن يحدِّد المارانو[1] الجدد ، اليهود الذين انشقّوا عن اليهودية ، عن اقتناع حقيقي ، باعتبارهم الخطر الأعظم الذي يشكل تهديداً لمستقبل يهودي قبلي . فعلى غرار رافضي الاندماج الآخرين ، كان نورداو واضحاً بشأن ذلك ، قائلاً : «العديد يحاولون إنقاذ أنفسهم بالتخلي عن اليهودية ، لكن معاداة السامية العنصرية تنكر قوة التغيير عن طريق التعميد ، وهذا الأسلوب في الإنقاذ لا أفق مستقبلياً كبيراً له . . . بهذه الطريقة ، يظهر يهودي مارانو جديد ، أسوأ من القديم ؛ فالأخير لديه اتجاه مثالي - رغبة سرية لتبيّن الحقيقة أو تأنيب ضمير مؤلم ، وغالباً ما يسعى إلى التماس الصفح والتطهير من خلال الاستشهاد .»

وكان نورداو قد أدرك سلفاً في العام ١٨٩٧ أن يهود المارانو الجدد ، الذين تاقوا بصدق إلى الحقيقة بل تمكنوا من العثور عليها خارج الشْتَتْل ، يشكِّلون الخطرَ المطلق . ومع ذلك ، كان يعيش في عالم أجّجته الداروينية والحتميّة البيولوجيّة . وها هي الحتمية البيولوجية في الوقت الراهن قد خلّفناها - كما نأمل - وراءنا ، حيث بات بمقدور الناس الإفلات مما يُطلق عليه «القدر» . في عصرنا الحالي ، نادراً ما يفكّر أحدهم بمسألة الدم ، باستثناء الصهاينة والإسرائيليين ، وكذلك - وهو أمر مدعاة للحرج - بعض ما يُطلق عليهم «الاشتراكيون» اليهود .

أن تكون صهيونياً معناه أن تحول دون الاندماج ، وأن تمنع اليهود من «الانجراف بعيداً» ، وأن تنخرط في أحد أشكال الخطاب السياسي المتمحور حول

---

(١) أطلقت كلمة «مارانو» على اليهود المتخفين في إسبانيا والبرتغال ، الذين تراجعوا ظاهرياً عن اليهودية وادّعوا اعتناق الكاثوليكية ، كي يتمكنوا من البقاء في شبه جزيرة أيبريا مع تراجُع الحكم الإسلامي ، وبعد طرْد يهود البرتغال عام ١٤٨٠ وطرْد يهود إسبانيا عام ١٤٩٢ . وقد أطلق عليهم أيضاً تعبير «كونفرسوس» ، أي «الذين اهتدوا إلى دين جديد» ، و«كريستاوس نوفوس» ، و«المسيحيون الجدد» . (نقلاً عن **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**- المترجمة)

اليهودية . إن الصهيونية ، كما نعرفها ، تستعمر فعلياً فلسطين ، لكن فروعها تمتدّ إلى ما هو أبعد بكثير . فهي ليست حركة محلية تدعمها بعض جماعات الضغط المتحمِّسة حول العالم ، وإنما منظومة عالمية تمتلك المقدرة على صوغ وإعادة صوغ مفهوم الغيتو اليهودي ؛ تشكيل وإعادة تشكيل مفهوم «شعب الله المختار» الجدليّ ؛ الموازنة بين التوتر النّاشئ بين الانعزال والانفتاح ، لتشمل في النهاية معظم اليهود . إن الصهيونية شبكة عالمية لا رأس لها ، إنها روح ، والروح لسوء الحظ لا يمكن إلحاق الهزيمة بها . ومع ذلك ، يجب فضحها لما هي عليه .

الفصل ١١
الجنس ومعاداة السامية

طوال العقد الماضي ، كنتُ أستقي العديد من آرائي وتصوّراتي من رجل تمّ محْوه بالكامل من الخطاب العلمي والأكاديمي الغربي . وبالنظر إلى التأثير الذي أحدثه في النصف الأول من القرن العشرين ، فإنّ هذا الاختفاء التام ليطرح بكل تأكيد بعض الأسئلة . فقد اعتبره لودفيغ فتغنشتاين[١] صاحب تأثير بالغ على حياته ، كما استفاد جيمس جويس[٢] منه حين كتب رواية يوليسيس[٣] . كذلك شكّل مصدر إلهام لروبرت موزيل[٤] وهرمان

---

(١) لودفيغ فتغنشتاين : (١٨٨٩-١٩٥١) ، فيلسوف نمساوي بريطاني ، كرّس أبحاثه بصفة رئيسية في دراسة المنطق وفلسفة الرياضيات وفلسفة العقل وفلسفة اللغة . صُنف كتابه **تحقيقات فلسفية** ، الذي نشر في العام ١٩٥٣ - أي بعد وفاته - باعتباره أهم كتاب فلسفي في القرن العشرين . (المترجمة)

(٢) جيمس جويس : (١٨٨٢-١٩٤١) ، روائي وشاعر أيرلندي ، يعتبر من أكثر الكتاب الحداثيين الطليعيين تأثيراً في أوائل القرن العشرين . (المترجمة)

(٣) يوليسيس : رواية للكاتب جميس جويس ، نشرت في العام ١٩٢٢ ، وأحدثت ثورة في الكتابة الروائية ، حيث تعتبر من أهم وأشهر الأعمال الروائية ولعلها الأصعب . بلغ عدد كلمات الرواية نحو ٢٦٥ ألف كلمة ، وفيها استخدم جويس قاموساً من الكلمات تخطى عدده الـ ٣٠ ألفاً . وقد ترجمها إلى العربية ، أستاذ الأدب الإنجليزي والمترجم المصري الراحل طه محمود طه ، تحت عنوان **عوليس** . (المترجمة)

(٤) روبرت موزيل : (١٨٨٠-١٩٤٢) ، كاتب نمساوي ، من أشهر أعماله الروائية **الرجل الذي لا خصال له** ، وهي رواية طويلة تقع في ثلاثة مجلدات ، وتعتبر من أهم الروايات الحداثية ، حيث تنبأت بالكارثة الوشيكة في أوروبا في أعقاب الحرب العالمية الأولى . (المترجمة)

بـــروخ[١] . ويستطيع المرء أن يقتفي أفكاره بسهولة في كتابات جاك لاكان ومارتن هايدغر . كما أظهر عالم النفس سيغموند فرويد اهتماماً بأفكاره . وحتى هتلر يُفترض أنه أشار إليه ، معترفاً بالقول : «كان هناك يهودي واحد محترم ، وقد قتل نفسه .» هذا الرجل هو أوتو فايننغر[٢] ، وعلى الرغم من أنه أحد أكثر المفكرين تأثيراً في العقود الأربعة الأولى في القرن العشرين ، فإن قلةً هم الذين لا يزالون على اطلاع على أفكاره ، أو حتى سمعوا باسمه . لقد كان فايننغر معادياً للسامية ، كما كان كارهاً للنساء على نحو راديكاليّ . لم يحب اليهود أو النساء ، لكنه ، وكما قد يحزر المرء ، كان هو نفسه يهودياً . وبقدر ما يستطيع البحث التاريخي أن يكشف حقائق كهذه ، فقد كان يهودياً مخنّثاً .

كان فايننغر فناناً في الحِكَم والأقوال المأثورة ، بيد أن العديد من مقولاته لا يمكن أخذها على محمل الجدّ . وتستدعي بعض هذياناته المعادية للنساء والمعادية لليهودية في الذهن صور تلميذ مدرسة مشاغب يناضل كي يستوعب مفهوم البلوغ . بيد أنّ فايننغر مفكّر مذهل ، وفهمه لفكرة النبوغ يمكن أن تكون بسهولة جزءاً من القسم الأخير في النقد الثالث لكانْط[٣] ؛ كما أن فهمه للجنسانية ينطوي على حذْق بالغ ، بالنظر إلى أنّ كتابه[٤] نُشر حين كان في الحادية والعشرين من العمر فقط . ويقرّ العديد من خصوم فايننغر بموهبة الرجل

---

(١) هرمان بروخ : (١٨٨٦-١٩٥١) ، كاتب نمساوي بارز ، يعتبر من أبرز الأدباء الحداثيين في القرن العشرين . من أشهر أعماله الروائية **موت فيرجيل وثلاثية السائرون نياماً** . (المترجمة)

(٢) أوتو فايننغر : (١٨٨٠- ١٩٠٣) ، فيلسوف نمساوي ، من أشهر أعماله كتاب **الجنس والشخصية** . كان في الثالثة والعشرين من العمر حين انتحر بتسديد رصاصة إلى قلبه . (المترجمة)

(٣) النقد الثالث لكانط : هو **نقد الحكم أو نقد ملَكَة الحكم** (١٧٩٠) ، وهو عمل فلسفي لإيمانويل كانط ، يكمل فيه مشروعه النقدي الفلسفي الضخم ، حيث يضع فيه الأساسيات لعلم الجمال الحديث . (المترجمة)

(٤) يقصد كتاب **الجنس والشخصية** ، الذي نشره فايننغر في العام ١٩٠٣ . (المترجمة)

المتّقدة . باختصار ، ثمة الكثير من الحكمة في فايننغر بحيث لا يمكننا أن نطرحها جانباً دون أن نتأملها .

ثمّة جانب شخصي في إعجابي بفايننغر : فلقد ساعدني في استيعاب من أنا ، أو بالأحرى من الذي يمكن أن أكونه ، وماذا أفعل ، وماذا أحاول أن أحقّق ، ولماذا يبذل أولئك الذين يذمّونني جهداً كبيراً في محاولة إيقافي .

نشر فايننغر **الجنس والشخصية** ، كتابه الأوحد والوحيد ، في العام ١٩٠٣ ، حيث تمّ طرحه كدراسة فلسفية عن الجنسانية . يشكّل الكتاب هجوماً ضارياً على الأنوثة ، على أن فايننغر لا يكنّ كراهية للنساء فقط ، إذ يقدِّم اليهود ككائنات منحطّة أيضاً ، والرجال الإنجليز كشخصيات مخنّثة . قطعاً إن فايننغر لشخص فظيع . بعض زميلاتي اللاتي بدأن بقراءة النص نبذنه حتى قبل أن يبلغن نهاية الفقرة الأولى . ومع ذلك أصرُّ بأنّه يجب اعتبار كل جملة في كتاب فايننغر تقريباً أدباً محرِّضاً للفكر . يكره فايننغر كل شيء تقريباً يعجز عن أن يكون ذكورةً آريّة . وتعدّ نزعته نحو الصيغة الرياضية طفولية بعض الشيء ، تخطّاها الزمن بالتأكيد . كما يرتكب بعض الأخطاء القاطعة ، على أنه في الوقت نفسه يستحثّ تفكيراً ميتافيزيقياً وجوهرياً وأيديولوجياً عميقاً .

فايننغر حول الجنسانية

إن النقطة التي ينطلق منها فايننغر أبعد ما تكون عن الأصالة ؛ إذ يقول إن الرجل والمرأة مجرّد نوعين . بمعنى آخر ، يشكِّل مظهر الفرد بصفة أساسية خليطاً من النوعين . ويتألف كل فرد من نوعين جنسيّيْن بنسب مختلفة . فبعض الرجال أكثر ذكورة من آخرين ، كما أن بعض النساء أكثر أنوثة من شقيقاتهن . هذه الفكرة تدعمها بجلاء ملاحظات فسيولوجية أساسية بالإضافة إلى دراسة جينية وبيولوجية معقدة .

على أن فايننغر لا يتوقف هنا ، بل يمضي قدماً في صوغ «قانون الجاذبية الجنسية» : «بغية تحقيق اتصال جنسي حقيقي ، من الضروري أن يجتمع معاً

ذكر كامل وأنثى كاملة .»[١] ويؤدي الرباط بين الرجل والمرأة إلى وحدة الذكورة والأنوثة التي يساهم فيها كلا الشريكين على نحو متبادل . عملياً ، يتحدّث فاينغر هنا عن العلاقة المتمِّمة بين الرجال والنساء ، حيث يسهم كل شريك في تشكيل ذكورة وأنوثة أكبر . فإذا كان طوني ذكراً بنسبة ٥٥ في المئة وأنثى بنسبة ٤٥ في المئة ، وكانت سو ذكراً بنسبة ٤٥ في المئة و٥٥ في المئة أنثى ، فإن مجموع الذكورة والأنوثة المضافة تؤدي إلى وحدة مثالية قوامها ١٠٠ في المئة من الذكورة و١٠٠ في المئة من الأنوثة . بكلمات أخرى ، فيما يتعلّق بالجاذبية الجنسية ، يمكننا أن نتوقع أن يشعر طوني وسو بإثارة قصوى إزاء بعضهما بعضا ، حيث يحقق اتّصالهما الجنسي وحدةً كاملةً بين الرجل والمرأة . كما أن ثمّة قواسم كثيرة مشتركة بينهما ، فطوني فيه الكثير من «المرأة» ، وبالمثل ، تمتلك سو قدراً كبيراً من «الرجل» فيها .

لا حاجة بنا للقول إن إشارة فاينغر للبشر بوصفهم مواد إحصائية أمرٌ غريب نوعاً ما ، كما أنها إشكالية . حين نتأمل الناس من حولنا لا نستخدم أرقاماً رياضية أو تقسيمات واضحة المعالم بين الذكورة والأنوثة . لكننا نرى ، بدلاً من ذلك ، رغبات وأمنيات ونوايا وآمال وحاجات جنسية . غير أنّ فكرة فاينغر ، بصرف النظر عن دلالاتها العملية ، أبعد ما تكون عن غبية . فالفكرة بأن طوني وسو تجمعهما علاقة متمِّمة واضحة للغاية . فطوني يشعر بالانجذاب تجاه سو ليس فقط بسبب خصالها الأنثوية ، ولكن لأنه يجد في سو ذكورته المفقودة . وبالمثل ، تحتفي سو باكتشاف أنوثتها التي تنقصها . وفقاً لفاينغر ، فنحن ننجذب أكثر إلى أولئك الذين يجعلوننا أقرب إلى هذه الوحدة .

من الطبيعي أن نتوقع أن تنجم عن الرباط بين أقصى الذكورة وأقصى الأنوثة درجة عالية من الجاذبية الجنسية . على أن هذه الجاذبية ، كما يشير فاينغر ، مقرونة بقدر قليل جداً من التفاهم بين الجنسين : «فكلما امتلكت المرأة

(1) Otto Weininger, Sex and Character, New York:Howard Fetig, 2003, P. 29

أنوثةً أكبر ، فهمت الرجل أقل . . . وهكذا أيضاً كلما كان الرجل يتمتع بصفات رجولية أكثر ، قلّ فهمه للمرأة .»[1] والحجّة في ذلك واضحة : فكلما ازداد مقدار الأنوثة التي تمتلكها المرأة ، كلما قلت الرجولة في تركيبتها الجسدية والنفسية . فلنفترض ، على سبيل المثال ، أنّ مارك هو الرجل الذكوري المطلق ، حيث يشكّل الذكر في تركيبته ٩٩ في المئة ، وأن ديبورا تتمتّع بقدر كبير من الأنوثة بنسبة مماثلة . قد تكون قوة الجاذبية الجنسية بينهما متفجرة على نحو لا يُصدّق ، ومع ذلك فإن نوعية التواصل بينهما المُسبقة أو اللاحقة تساوي صفراً . فمع وجود واحد في المئة من الأنوثة لديه ، لن يستطيع مارك أن يفهم ديبورا أبداً ، والعكس صحيح . وعلى الأرجح أن يدير مارك ظهره لديبورا بمجرد نهاية الاتصال الجنسي ، حيث يغطّ في النوم ، بينما ينتهي الأمر بها مستاءة .

هذه الفكرة صادمة في بساطتها ، لكنّ دلالاتها قوية ؛ إذ تقضي على خطاب اليسار ، ذلك أنه لو كان فايننغر على صواب ، فإن استيعاب الآخر مشروط بشكل من أشكال تحقيق الذات . إن مفهوم التعاطف والاختلاف التي تبناها بحماسة يسار ما بعد الحرب العالمية الثانية ليتقوّض . فإذا كنتُ أستطيع أن أفهم محبوبتي فقط بقدر ما أمتلك ما يكفي منها داخلي ، فهذا يستتبع إذن أننا نستطيع أن نفهم الآخر فقط مادام ثمة ما يكفي من الآخر فينا . هذه الرؤية قد تفسِّر لماذا انهار اليسار ، ومعه الخطاب الكلي للثقافية التعدّدية ، في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول عام ٢٠١١ . ويمكن أن يُعزى انعدام التعاطف مع العرب والمسلمين وسط الليبراليين «التقدميين» ، كما يوصفون ، إلى الحقيقة بأن ثمة القليل جداً من العربي أو المسلم فيهم . بل في الحقيقة ، قد يكون ثمة القليل جداً فيهم باستثناء أنفسهم .

مثل هذه القراءة قد تعلِّل لماذا فشل اليسار الغربي في استيعاب التحوّل داخل العالم العربي . فبقدر ما يزعم الغرب بأنه يدعم انتفاضة الجماهير العربية

---

(1).Ibid, p. 57.

ضد طغاتهم الموالين لأميركا ، فقد وجد صعوبةً نوعاً ما في الاعتراف بأن ما نشاهده في العالم العربي ليس ثورةً اشتراكيةً تماماً .حسب مصطلحات فايننغر ، فشل اليسار في قراءة الوضع في العالم العربي لأنه لا توجد قواسم مشتركة تُذكر مع الثقافة العربية . لقد حُكِم على اليسار بالفشل في تلك الجبهة .

النابغة والفنان

يمضي فايننغر أبعد في استكشاف هذا المفهوم المتعلّق بامتلاك سمات نفسية مختلفة ، وذلك في مقاربته للنابغة . بالنسبة له ، من الواضح أن النابغة ليس مجرد كائن موهوب . فالنبوغ ليس موهبة ، كما أنه ليس خاصية يمكن تعلّمها أو تطويرها . إن النابغة هو « . . . رجل يكتشف آخرين كثيرين في نفسه . إنه رجل بعدد كبير من الرجال في شخصيته . لكن النابغة من جهة أخرى يستطيع أن يفهم الرجال الآخرين أفضل من قدرتهم على فهم أنفسهم ، لأنه لا توجد في داخله الشخصية التي يفهمها فقط ، وإنما نقيضها أيضاً . إن الازدواجية ضرورية للمعاينة والاستيعاب . . . باختصار ، كي نفهم رجلاً ما يعني امتلاك أجزاء متساوية من ذاته والنقيض في واحد .»(١)

بصورة ما ، فإن النابغة هو شخص ينطوي على ديناميّة ديالكتيكية تسمح بإحياء آفاق عالمية غنية . إلى حدٍّ ما ، يلّمح فايننغر هنا إلى الخصائص الإيجابية للشيزوفرينيا أو الفصام ، وهي أفكار عمد لاكان إلى سبرها بعمق بعد سنوات .

إن النابغة أو العبقريّ يقول لنا على الدوام شيئاً عن العالم لم نكن نعرفه من قبل . فالعالِم يُعاين العالَمَ الماديّ ، والفيلسوف يتأمّل في مملكة الأفكار . كما يجترح الفنّان رؤيته عبر استبطان ذاته أو ذاتها . «في الفنّ ، فإنّ استكشاف

(1) Ibid, p. 110

الذات هو استكشاف العالم . . .»(١)

ويجادل فاينِنغر بأن النابغة عرضة لـ«أغرب العواطف» و«أكثر الغرائز المثيرة للاشمئزاز» ، لكن تلك المشاعر تعارضها شخصيات داخلية أخرى . على سبيل المثال ، «لم يقُم زولا ، الذي وصف بأمانة بالغة الدافع لارتكاب جريمة القتل ، بارتكاب الجريمة هو نفسه لأنه كانت هناك شخصيات كثيرة أخرى في داخله .»(٢) وفقاً لفاينِنغر ، لقد تعرّف زولا(٣) إلى الدافع الإجرامي أكثر من القاتل نفسه ، وذلك بدلاً من أن يكون مجرد عرضة له . إن المقدرة على تصوير شخصية خيالية ، على نحو مقنع ، تُعزى إلى الحقيقة بأن الشخصية والشخصيات المعارضة لها موجَّهة بصورة جيدة داخل التركيبة النفسية للفنان .

بالنسبة لي فإن مبعث إعجابي بفاينِنغر له علاقه إلى حدٍّ كبير بهذه الفكرة . في كتابتي الروائية ، اختلقتُ أبطالاً إسرائيليين فاتنين ، ومخيفين ، وفي الوقت عينه ، جميعهم أناس محكومون بالهلاك ، ينطلقون بسرعة باتجاه جدار إسمنتي . أكتب عن أناس لا يستطيعون العيش أبداً مع الشروط التي فرضوها على أنفسهم ، أناس لا يستطيعون العثور على الطريق إلى بيتهم . في كتابتي الروائية ، يلتقي المرء أناساً لا يستطيعون الإفلات من قدرهم . أما في كتابتي السياسية والأيديولوجية ، فأحاول أن أؤسِّس نموذجاً فلسفياً يمكن أن يسلِّط الضوء على تعقيد الأيديولوجيا اليهودية . تراني أبحث عن الآليات الميتافيزيقية التي تجعل إسرائيل والعالَم اليهودي مختلفين للغاية . في ما مضى ، صدّقتُ نفسي بأنني مفكّر مستقل ، وقد وضع نفسه في موضع بحثي استطلاعي منفصل ، على طريقة أرخميدس . بفضل فاينِنغر ، أدركتُ كم كنتُ

(1).Ibid, Preface, p. I

(2).Ibid, p. 109

(٣) إميل زولا : (١٨٤٠-١٩٠٢) كاتب فرنسي يشكل النموذج الأبرز لما يعرف بالمدرسة الطبيعية أو المذهب الطبيعي في الأدب . (المترجمة)

مخطئاً – إذ لم أكن مفصولاً عن الحقيقة التي كتبتُ عنها ، ولن أكون كذلك أبداً . فأنا لا أنظر إلى اليهود أو إلى الهوية اليهودية ، كما أنني لا أنظر إلى الإسرائيليين . بل إنني أنظر واقعياً في المرآة . باحتقار ، أقوم فعلياً بالتعاطي بإسهاب مع اليهودي في داخلي .

إن اليهودي في داخلي ليس جزيرة ، إذ ينضم إليه خصوم منازِئون وشخصيات نقيضة استقرّت أيضاً في تركيبتي النفسية . ثمة في داخلي العديد من الشخصيات التي يعارض بعضها بعضاً . وهي ليست مريعة كما قد تبدو .بل هي في الحقيقة بنّاءة وممتعة ، وقطعاً كاشفة .

المعادي للسامية

مقتفياً نموذجه الخاص ، يجادل فايننغر بالقول : «الناس يحبون في الآخرين الصفات التي يرغبون في أن تكون لديهم ،لكنهم لا يملكونها فعلياً بأية درجة كبيرة . لذا ، فنحن نكره في الآخرين فقط ما لا نرغب في أن نكونه ، وما نحن عليه جزئياً مع ذلك . ترانا نكره فقط الصفات التي نكون قريبين منها ، ولكننا ندركها أولاً لدى الأشخاص الآخرين . . . وهكذا تتبدّى الحقيقة بأنه يمكن العثور على أكثر معادي السامية حدّة ومرارةً وسط اليهود أنفسهم .»(١)

وفقاً لفايننغر ، بعض اليهود يعارضون في الآخرين ذاك الذي يحتقرونه في أنفسهم . هذا الميل يطلق عليه معاداة السامية ، لكن اليهود ليسوا وحدهم في ذلك . فالبعض من غير اليهود يعثرون على نزعات يهودية في أنفسهم أيضاً . يوضح فايننغر بالقول : «حتى ريتشارد فاغنر ، ألدّ المعادين للسامية ، لا يمكن

(1) Weininger, Sex and Character, P. 304

تبرئته من تنامي الحس اليهودي حتى في فنّه»[١، ٢] أستطيع أن أجادل أنه ، بالنسبة لفايننغر ، فإن الأيديولوجيا اليهودية ليست تصنيفاً عرقياً على الإطلاق ، وإنما تركيبة عقلية ، بعضنا يمتلكها ، وعدد قليل منّا يحاول أن يعارضها .

أوليس هذا مجرد تكرار لمقاربة ماركس للهوية اليهودية ، التي قام بدراستها في مقالته الشهيرة «حول المسألة اليهودية»؟ يساوي ماركس اليهود بالرأسمالية والمصلحة الذاتية وجمع المال . بالنسبة له ، فإن الرأسمالية هي اليهودية ، واليهودية هي الرأسمالية . لقد حرّر اليهود أنفسهم إلى الدرجة التي أصبح فيها المسيحيون يهوداً . ويخلص إلى استنتاج قوي مفاده : «إن الإعتاق الاجتماعي لليهودي هو إعتاق المجتمع من اليهودية .»[٣] قد يوحي الحكم على أفكار ماركس ضمن الإطار المرجعي للفايننغرية (نسبة إلى فايننغر) بأن تحليل ماركس نتاج

---

(1) Ibid, p. 305

(٢) ريتشارد فاغنر : (١٨١٣-١٨٨٣) مؤلف موسيقي ألماني ، اشتهر بمقطوعاته الأوبرالية ، ذات البنية المعقدة ، والتركيبة الأوركسترالية الضخمة ، يعتبر من أبرز الموسيقيين في تاريخ البشرية وأكثرهم تأثيراً . إلى جانب عبقريته الموسيقية ، أثار فاغنر ، في حياته ومماته ، جدلاً كبيراً من خلال آرائه السياسية ومعتقداته وكتاباته ، وعكست كتابات فاغنر ضد اليهود ، (والتي شكلت الأرضية لتهمة معاداة السامية التي التصقت به) جانباً من الاتجاه الفكري السائد في ألمانيا إبان القرن التاسع عشر . في مقالة شهيرة لفاغنر بعنوان «اليهودية في الموسيقى» (١٨٥٠) ، هاجم العديد من زملائه الموسيقيين اليهود ، كما اتهم اليهود بأنهم يشكلون عنصراً ضاراً وغريباً في الثقافة الألمانية ، لافتاً إلى أن الشعب الألماني يشعر بالنفور من مظهر اليهود وسلوكهم الغريب . وحاجج فاغنر في المقالة ذاتها أن اليهود لم يتمكنوا من إنتاج سوى موسيقى ضحلة ومزيفة كونهم يفتقرون إلى أي رابطة أو صلة مع الروح الألمانية . (المترجمة)

(٣) Marx, Karl. On the Jewish Question (Zur Judenfrage). نشرت المقالة أول مرة في فبراير/شباط ١٨٤٤ في Deutsch-Franzosiche Jahrbucher ؛ انظر الترجمة في موقع :

(http://www.marxists.org/archive/marx/works/1844/jewish-question/)

كون ماركس هو نفسه يهودياً . بمعنى آخر ، الماركسية هي نتاج مقدرة ماركس على معارضة اليهودي في داخله .

كما نرى ، لقد زوّدنا فايننغر بأداة تحليلية مفيدة للغاية ، حيث وفّر لنا رؤية معمّقة في موضوع الكراهية وكراهية الذات ، ماضياً حدّ المجادلة بالقول : «على الآريّ أن يشكر اليهودي ، الذي من خلاله يعرف كيف يصون نفسه من الديانة اليهودية كاحتمالية في داخله..»[1] أي أنه بالإمكان فهم العداء أو الخصومة إزاء الآخرين بوصفها تعبيراً عن احتقار الذات . وهكذا فإن كراهية النازي لكل شيء يهودي ، حتى وإن كان فيه أثر طفيف من اليهودية ، يمكن تعليله أيضاً كشكل من أشكال العداء إزاء اليهودي في داخله .

لكن إذا كانت الكراهية شكلاً من أشكال نفي الذات أو إنكارها ، جزئياً على الأقل ، يجب أن أعترف بأن حربي الشخصية ضد الصهيونية وسياسة الهوية اليهودية يمكن أن يُنظر إليها كحرب أعلنتُها على نفسي . وإذا مضينا في الموضوع خطوةً أبعد ، قد ينبغي علينا جميعاً أن نعترف بأن مكافحة العنصرية على نحو حقيقي يتطلب بصفة أساسية معارضة العنصري في داخلنا .

كان فايننغر في الثالثة والعشرين من العمر فقط حين انتحر . قد يتساءل المرء كيف تسنّى له أن يعرف الكثير عن النساء . لماذا أضمر لهنّ كل هذا القدر من الكراهية؟ كيف عرف الكثير عن اليهود ، ولماذا كرههم كثيراً؟ يمكن استنباط الجواب من أفكار فايننغر ، وإن ليس من كلماته . لقد كره النساء واليهود لأنه كان امرأة ويهودياً . لقد أُغرم بالذكورة الآرية لأنه كان يفتقر ربّما إلى تلك السمة بالمطلق في وجوده الخاص . هذا الكشف دفع فايننغر ربما كي يقتل نفسه ، بعد شهر فقط من نشر كتابه . على الأرجح جداً أنه تمكن من فهم مغزى كتابه .

(1) Weininger, Sex and Character

الفصل ١٢
إرتس يسرائيل مقابل الغالوت

لأكثر من نصف قرن ، عمد خصوم الدولة اليهودية إلى مطابقة سياسات إسرائيل بالصهيونية . لكنهم قد يكونون مخطئين لقيامهم بذلك . فالصهيونية تُملي فعلياً سَلْبَ فلسطين تحت مسمّى التطلّعات القومية اليهودية و«العودة إلى الوطن» . ولقد كانت إسرائيل فعّالة في ترجمة الفلسفة الصهيونية إلى ممارسة وحشية . غير أن الإسرائيليين - وتحديداً الغالبية العظمى من اليهود العلمانيين الإسرائيليي المولد - لا تحفّزهم الأيديولوجيا الصهيونية . فروحُها ورموزُها لا معنى لها فعلياً بالنسبة لهم . إن الصهيونية ، لدى معظمهم ، إما فكرة بائدة أو مفهوم أجنبي تماماً . وبالتالي ، فإن معظم أشكال «مناهضة الصهيونية» بالكاد لها تأثير على إسرائيل أو السياسة الإسرائيلية أو الإسرائيليين أنفسهم . إن الصهيونية إلى حد كبير هي خطاب الدياسبورا اليهودية .

الصهيونية مقابل إسرائيل

«أنا إنسان ، أنا يهودي وأنا إسرائيلي . لقد كانت الصهيونية أداةً لنقلي من الكينونة اليهودية إلى الكينونة الإسرائيلية . أعتقد أن بن غوريون هو القائل بأن الحركة الصهيونية بمنزلة السقّالات لبناء المنزل ، وأنه بعد تأسيس الدولة لابدّ من فكّها .» **أفراهام بورغ**[١]

(١) Shavit, Ari, Leaving the Zionist Ghetto ، مقابلة مع أفراهام بورغ ، صحيفة هآرتس ، ٢٥ يوليو/تموز ٢٠٠٧ ؛ انظر: (http://peacepalestine.blogspot.com/2007/06/complete-abraham-burg-interview-leaving.html) (تم تصفح المقابلة بتاريخ ٢٠١٠/٠٦/١٥) .

إذا كانت الصهيونية موجودة للحفاظ على الاستحقاق اليهودي لوطن قومي في صهيون ، فإن اليهود الإسرائيليي المولد يعيشون هذه الحقيقة من البداية . فالصهيونية بالنسبة لهم فصلٌ بعيد من التاريخ مقترن بصورة فوتوغرافية قديمة لرجل بلحية سوداء كثيفة (تيودور هرتسل) . بالنسبة للإسرائيليين ، فإن الصهيونية ليست تحولاً ينتظر الحدوث ، وإنما كيان رتيب وقديم من أفكار غير ذات صلة بحياتهم .

بالنسبة لبني إسرائيل الجدد ، تنطوي كلمة **غالوت**(١) (الدياسبورا) على دلالات ضمنية سلبية . فهي مرتبطة بأحياء الغيتو والعار والاضطهاد . بيد أن هذا المصطلح لا يستخدم للإشارة إلى منطقة مانهاتن السفلى بنيويورك أو حي سوهو بلندن ؛ فالإسرائيليون المعاصرون لا ينظرون إلى هجرتهم من إسرائيل باعتبارها عودةً إلى **الغالوت** . على غرار المهاجرين الآخرين ، تراهم يبحثون فقط عن حياة أفضل في مكان آخر . بالنسبة لمعظم الإسرائيليين ، فإن بلدهم أبعد ما تكون عن مكان بطولي يرفل بالمجد - فبعد قضاء أكثر من ستين عاماً مع شريكة الحياة ذاتها ، لم يعودوا يقدِّرون جمالها .

لقد اعتاد اليهود العلمانيون الإسرائيليو المولد ، الذين هم نتاج التحول الصهيوني ، على وجودهم في المنطقة لدرجة فقدوا معها غريزة البقاء اليهودية . وتبنّوا بدلاً من ذلك تأويلاً هيدونيّاً(٢) للفردية المتنوِّرة الغربية ، والتي تتخلّص

---

(١) غالوت Galut : كلمة عبرية تعني «المَنْفى القسري» ، وهي مقابل كلمة «تيفوتسوت» أو «المنفى الطوعي» . وكلمة «غالوت» ترجمة عبرية غير دقيقة لكلمة «دياسبورا» ، ذات المعنى المحايد إلى حدّ ما ، فالدياسبورا تعني كلاً من التشتت والانتشار . والانتشار يمكن أن يكون تلقائياً ، ويمكن كذلك أن يكون إرادياً ، أما «الغالوت» فليس كذلك ، بل حالة يخضع لها الإنسان وتُفرض عليه فرضاً . (نقلاً عن **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**- المترجمة) .

(٢) الهيدونية Hedonism : «مذهب المتعة» أو «المتعيّة» وهي مدرسة فكرية فلسفية تقول بأن المتعة أو اللذة هي الخير الأوحد أو الرئيسي ، الذي يجب أن يسعى المرء إليه . وتشمل المتعة أو اللذة هنا كل أنواع المتع الجسدية والمادية والنفسية . (المترجمة)

من البقايا الأخيرة للجمعية القبلية . هذا الوضع قد يفسّر لماذا هُزمت إسرائيل في حرب لبنان ٢٠٠٦ . فالإسرائيليون الجدد لا يرون أي سبب للتضحية بأنفسهم على مذبح يهودي جمعي . وهم معنيون أكثر باستكشاف الجوانب البراغماتية لـ«الحياة الجيّدة» . ربما لهذا السبب لم تتمكن القوات العسكرية الإسرائيلية من إخضاع حركة حماس في عملية «الرصاص المصبوب» . فللقيام بذلك ، يحتاج الجنرالات الإسرائيليون إلى تطبيق تكتيكات شجاعة على الأرض ؛ فهم يدركون أن القصف الجويّ المكثف فوق غزة ، وإلقاء قذائف الفسفور الأبيض على ملاجئ الأمم المتحدة على الأرجح أن يفشل في تحقيق «النتائج الضرورية» ، ومع ذلك ليس بمقدورهم القيام بشيء آخر . إن المجتمعات الهيدونية لا تنتج محاربين إسبارطيين ، وبدون محاربين حقيقيين تحت تصرّفك من الأفضل لك أن تقاتل عن بعد . ولا داعي للقول إن الفلسطينيين والسوريين وحزب الله والإيرانيين يعرفون ذلك . فيوماً بعد آخر ، يحللون تكتيكات إسرائيل الجبانة ، ولعلهم يترجمون الواقع الإسرائيلي بدقّة . فهم يعرفون أن أيام إسرائيل معدودة . ومن المثير أن النخبة العسكرية الأميركية تعيد النظر في الوضع - فقد بدأوا يدركون أن إسرائيل لم تعد رصيداً استراتيجياً للولايات المتحدة .

ظاهرياً ، لا يبدو الإسرائيليون معنيين كثيراً إزاء تنامي حتميّة قدرهم ، على الأقل ليس على الملأ . فالإسرائيليون الشباب معنيون إلى حدٍّ كبير بنجاتهم الشخصية . فهم نزّاعون إلى الهروب ، متسائلين : «كيف بحق الجحيم أستطيع أن أخرج من هنا؟» وما إن يستكملوا خدمتهم العسكرية الإلزامية ، حتى يسارعوا إلى مطار بن غوريون أو يتعلموا كيف يغلقون القنوات التلفزيونية الإخبارية كافة . فها هم الإسرائيليون يغادرون «وطنهم» بأعداد متزايدة ، وأما أولئك المكتوب عليهم البقاء في إسرائيل فينتمون إلى ثقافة اللامبالاة .

بوفور

يشكِّل بوفور[1] ، وهو فيلم إسرائيلي أُنتج في العام ٢٠٠٧ ونال جوائز عدة ، فضحاً مدهشاً لحالة الإعياء والإحباط والانهزامية الإسرائيلية . يروي الفيلم قصة وحدة مشاة خاصة تابعة للجيش الإسرائيلي ، متمركزة في قلعة بيزنطية على قمة جبل في جنوب لبنان . تدور أحداث الفيلم في العام ٢٠٠٠ ، وذلك قبل أيام من الانسحاب الإسرائيلي الأول من لبنان . تخضع الوحدة للحصار من قبل مجموعة من مقاتلي حزب الله ، حيث يعيش أعضاء الوحدة في خنادق ، ليل نهار ، متوارين في الملاجئ الإسمنتية ، ومعرَّضين لوابل لا نهاية له من الصواريخ وقذائف الهاون . وعلى الرغم من أنهم يحلمون جميعاً بحياتهم بعد عودتهم من الجحيم الذين يعيشون فيه ، فإنهم يلقون حتفهم واحداً تلو الآخر على أيدي عدوٍّ غير مرئي .

لقد أحبّ الجمهور الإسرائيلي فيلم **بوفور** . أعتقد أنهم رأوا فيه كناية رمزية أو استعارة مجازية عن نهاية دولتهم . فبقدر ما يتوق الجنود في الفيلم إلى الهرب إلى أبعد مكان ممكن ، سواء أكان ذلك يعني الاستقرار في نيويورك أم تعاطي المخدرات في غوا (بالهند) ، ها هو ذا المجتمع الإسرائيلي بات يتكيف مع الصفة المؤقتة والوجود العبثي للبلد . كالجنود ، يرغب الإسرائيليون في أن يصبحوا نيويوركيين وباريسيين ولندنيين وبرلينيين (بل يبدو أنّه حتى أعداد

---

(١) بوفور : الفيلم يحمل اسم قلعة «بوفور» أو قلعة «الشقيف» ، وهي قلعة تاريخية تقع على قمة جبل صخري ، وتطل على نهر الليطاني ، جنوبي لبنان ، على بعد كيلومتر تقريباً إلى الجنوب الشرقي من قرية أرنون . احتل الصليبيون القلعة في القرن الثاني عشر ، حيث أطلقوا عليها اسم Bel fort ، أو Beau fort ، بالفرنسية حيث تعني «الحصن الجميل» . تعرضت القلعة لدمار كبير على أيدي قوات الاحتلال الإسرائيلي ، إذ قصفتها عدة مرات قبل الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ . وظلت القلعة بمنزلة نقطة عسكرية للاحتلال الإسرائيلي ، حتى الانسحاب من لبنان عام ٢٠٠٠ . (المترجمة)

الإسرائيليين الواقفين في طابور للحصول على جوازات سفر بولندية تشهد ازدياداً يومياً) . يستحضر فيلم بوفور مجتمعاً تحت الحصار ، والإدراك بأنه قد لا تكون ثمة طرق متبقية للهرب أو النجاة ، سواء بالمفهوم المادي أو كنتيجة لتنامي الحسّ باللامبالاة . إن الوقت ينفد .

إسرائيل في عيون الدياسبورا

على الرغم من أن سكان سديروت[١] وعسقلان[٢] على استعداد كي يتركوا كلّ شيء وراءهم والنفاذ بجلدهم ، على غرار الجنود الإسرائيليين في فيلم بوفور ، فإن إسرائيل بالنسبة لكثيرين من يهود الدياسبورا تجسِّد نموذجاً واضحاً للمجد . بالنسبة لهم هي «معنى» بالإضافة إلى «معنى في طور التشكّل» ، حيث التحرّر والخلاص الرمزيّان من الشقاء اليهودي . فإسرائيل ، عندهم ، هي كل شيء لا يمثّله يهودي الدياسبورا : فهي مليئة بالخوتسباه[٣] ، كما أنها قوية ومقاتلة ، تدافع عمّا تؤمن به . وهكذا ، بالنسبة ليهودي شاب من حيّ غولدرز غرين اللندني أو حي بروكلين النيويوركي ، فإن القيام بالـ«**عالياه**»[٤]

---

(١) سديروت : بلدة- مستوطنة إسرائيلية تقع جنوبي فلسطين ، على بعد كيلومتر تقريباً إلى الشمال من قطاع غزة ، شكلت هدفاً مستمراً لصواريخ القسام من غزة . (المترجمة)

(٢) مدينة عسقلان أو مجدل عسقلان : مدينة فلسطينية تاريخية تقع على البحر الأبيض المتوسط ، على بعد ١٣ كيلومتراً إلى الشمال من الحدود «الإسرائيلية» مع قطاع غزة . وهي أقدم وأكبر ميناء بحري استخدمه الكنعانيون . (المترجمة)

(٣) خوتسباه : كلمة عبرية معناها الوقاحة المطلقة ، أو الوقاحة حدّ الصفاقة والصلافة . (المترجمة)

(٤) عالياه : كلمة عبرية تستخدم في وصف هجرة اليهود إلى «إرتس يسرائيل» (أرض إسرائيل) ، حيث تشكل العقيدة الأساسية للأيديولوجيا الصهيونية . تعني عالياه «الصعود» . إلى ذلك ، يشار إلى الفعل المعاكس ، أي هجرة اليهود من إسرائيل بـ«يريدا» ، وهي كلمة عبرية تعني النزول .

أو الالتحاق بالجيش الإسرائيلي ، الذي يعتبره- على سبيل الخطأ - بطولياً ، يُعدُّ أكثر روعةً من الالتحاق بشركة الوالد للمحاماة أو المحاسبة أو عيادته للأسنان . وعلى الرغم من أن غالبية يهود الدياسبورا الشباب يؤثرون المضي قدماً في حياتهم في بلدانهم الأصلية وتجنب «استغلال» التحدي الصهيوني للقيام بالـ«**عالياه**» ، فإن الصهيونية لا تزال تزوِّدهم بمعرِّف رمزي .

حفنةٌ قليلةٌ من الآباء اليهود قد يعمدون إلى منع أبنائهم أو بناتهم من الالتحاق بالجيش الإسرائيلي . فلماذا يجب أنْ يمنعوهم في الأساس؟ فهو جيش آمن كي ينضم المرء إليه ؛ حيث يتجنّب المعركة البرية ويقتل عن بعد . يتعيّن على كل أب يهودي في الدياسبورا أن يقبل أنه قد يكون من المفيد لابنه أن يتعلم كيف يقود دبّابة ، أو طائرة مروحية أو يستخدام بندقية إم كيه-٤٧ الأوتوماتيكية . خلافاً للمقاتلين الفلسطينيين ممّن يفتقرون على نحو مريع للمعدات اللازمة ، والذين يموتون بينما يحاولون إيقاف دبابات الميركافا الإسرائيلية بأجسادهم ، فإن الجنود الإسرائيليين بالكاد يخاطرون بحياتهم . إن القيام **بالعالياه** البطولية والالتحاق بالجيش الإسرائيلي تبدو مجازفة آمنة نسبياً ، على الأقل في الوقت الراهن .

التيه

لقد «اخترعت» الصهيونية الأمّة اليهودية وقادت وطنها القومي ، أي إسرائيل ، إلى صراع يأخذ حالياً أبعاداً عالمية ، كما يشكّل تهديداً عالمياً خطيراً . ومع ذلك ، كما أشرتُ سابقاً ، بالنسبة للإسرائيليين في عين العاصفة ، فإن «الصهيونية» لا تعني شيئاً يُذكر . فتراهم ينضمون إلى الجيش الإسرائيلي بحماسة ليس لأنهم صهاينة ، ولكن لأنهم يهود . وبالتالي فإن مفهوم «اليهودي التائه» له معنى جديد . إنّ الديالكتيك بين الدياسبورا (الشتات) **وإرتس يسرائيل** (أرض إسرائيل) يتألف من التدفق والتدفق العكسي للتوق والتطلعات والهجرة . فبينما يستقي يهود الدياسبورا إلهامهم من الفانتازيا الصهيونية

لإسرائيل ، ترى اليهود الإسرائيليين من ناحية أخرى ، عازمين على الهرب من حياتهم المحاصَرة على نحو متزايد . ويتوجه يهود الدياسبورا نحو إسرائيل في الوقت ذاته الذي يتطلّع فيه اليهود الإسرائيليون للخروج . ثمة إذن توتر ديالكتيكي أو جدليّ بين الهوية اليهودية للدياسبورا والأسْرَلة ، المرتبطة إلى حدٍّ كبير بالمشروع الصهيوني . إن الصهيونية وإسرائيل قطبان مختلفان ، حيث يصوغان معاً التجربة اليهودية المعاصرة .

أحِبَّ نفسك بقدر ما تكره كل شخص آخر

خلافاً لليهودي العلماني في الدياسبورا الغربية ، الذي يناضل كي يؤسس استمراريةً مترابطة منطقياً بين الاصطفائية (مفهوم «شعب الله المختار») ومجتمع مفتوح متعدِّد إثنيّاً ، تسمح إسرائيل بتأويل رمزي مترابط ومتماسك للتفوّق القبلي ، حيث تصبح مقولة «أَحِبَّ نفسك بقدر ما تكره كل شخص آخر» حقيقة براغماتية . إن الإسرائيلي قادر على أن يلحق ألماً عظيماً بجيرانه . وكي نستوعب المفهومَ القبليَّ لحبّ الذات ، علينا أولاً النظر في مفهوم الاصطفائية .

بينما تتم ترجمة الفهم (اليهودي) الديني لمفهوم الاصطفائية كعبء أخلاقي يأمر الله فيه اليهود كي يكونوا نموذجاً يُحتذى في السلوك الأخلاقي ، اختُزل التأويل اليهودي العلماني إلى شوفينية فجّة ، إثنيّة التمحور ، وقائمة على رابطة الدم ، حيث تشجع أولئك «المحظوظين» ممن لديهم أمّ يهودية بأن يحبّوا أنفسهم على نحو أعمى . في معظم الحالات ، يترجم الإسرائيليون عودتهم القومية إلى الوطن كرفضٍ مشروع للحقوق الأساسية للآخر . وفي العديد من الحالات ، من شأن ذلك أنْ يؤدي إلى العداء ، بل حتى الكراهية ، سواء أكانت مستترة أم جليّة .

هذا الشكل من التفوق يقع في قلب المطالبة الصهيونية بفلسطين ، على حساب سكانها الأصليين ، لكن الأمر لا يتوقف هنا ؛ فجماعات الضغط اليهودية في الولايات المتحدة وبريطانيا تؤيد علناً توسيع نطاق «الحرب على

الإرهاب» ضد إيران والإسلام وإلى أبعد من ذلك . لا أزعم أبداً أن هذا النوع من إشعال الحروب متأصِّل في اليهود كشعب ، بيد أنه لسوء الحظ ، يشكِّل سمةً ملازمةً نوعاً ما في التفكير السياسي اليهودي - في اليسار واليمين والوسط . وعلى الرغم من أن اليهود منقسمون فيما بينهم حول قضايا عديدة ، فإنهم متحدّون بطريقة أو بأخرى في محاربة أولئك الذين يعرفونهم جماعياً بوصفهم أعداءهم .

كيف يستطيع أناس منقسمون تماماً فيما بينهم أن يتّحدوا بهذه الطريقة؟ أحد التفسيرات يعود بنا إلى الفكرة بأن الصهيونية بحدّ ذاتها لا علاقة كبيرة لها بإسرائيل ، فهي ببساطة خطاب داخلي ليهود الدياسبورا . وبناءً على ذلك ، لا يوجد للجدل القائم بين الصهاينة ومن يطلق عليهم «مناهضو الصهيونية اليهود» أدنى تأثير على إسرائيل أو على النضال ضد السياسات الإسرائيلية . فالغاية منه هو إبقاء الجدال «داخل العائلة» مع غرس البلبلة وسط الأغيار . كما أنه يتيح لناشط إثنيّ يهودي «تقدّمي» ، كما يُوصف ، بأن يؤكّد بأنه «ليس كل اليهود صهاينة» . هذا النقاش الرتيب كان كافياً للقضاء واقعياً على أي نقد يمكن أن يُوجَّه لجهود جماعات الضغط الإثنية اليهودية ، وذلك خلال العقود الأربعة الأخيرة .

حين يتعلق الأمر بالقيام بأمر ما إزاء من يوصفون بـ«أعداء الشعب اليهودي» ، فإن الصهاينة و«مناهضي الصهيونية اليهود» يتصرّفون كشعب واحد - لأنهم فعلياً شعبٌ واحد . (وسواء أكانوا أم لم يكونوا ، في الحقيقة ، شعباً واحداً ، فهذه مسألة غير ذات شأن ، ماداموا يصدقون بأنهم كذلك أو يتصرفون كما لو أنهم كذلك) . فما هو ذلك الشيء الذي يجعلهم شعباً واحداً؟

ثمة حكمة قديمة تقول : «قُلْ لي من هم أصدقاؤك أَقُلْ لك من أنت .» وكما رأينا من قبل ، فإن قراءةً أكثر تمحيصاً لسياسة الهوية والقبلية اليهودية المعاصرة من شأنها أن تكون على النحو التالي : «قُلْ لي من تكره ، أَقُلْ لك من أنت .» فإذا كنتَ ، مثلاً ، تمقت نورمان فينكلستين وجلعاد عتسمون وجيفري

بلانكفورت وجون ميرشايمر وستيفن والت وغيرهم[1] ، فأنت على الأرجح ناشط إثني يهودي . أما إذا كنت تختلف ببساطة مع أيٍّ من هؤلاء الناس ، فقد تكون فعلياً أي شخص .

(١) كتاب معرفون بآرائهم وكتاباتهم المناهضة للصهيونية أو تلك التي تنتقد السياسات الإسرائيلية . (المترجمة)

الفصل ١٣
حقّ تقرير المصير:
تمرين زائف في العالمية

قبل بضع سنوات خلت، وفي كنيسة صغيرة في مدينة آسبن بولاية كولورادو الأميركية، أثناء جلسة السؤال والجواب التي أعقبت محاضرةً ألقيتُها، وقف في آخر القاعة رجلٌ في أواسط العمر، وعرّف بنفسه على النحو التالي: «أنا مواطن عالمي، كوزموبوليتاني وملحد. أودّ أن أسألك شيئاً يا سيد عتسمون» . .

«مهلاً»، قاطعته. «أرجو ألا تعتبر سؤالي لك إهانة، لكن هل أنت يهودي عدم المؤاخذة؟»

تجمّد في مكانه لثانية، وعلا الاحمرارُ وجهَه، فيما التفتت أنظار الجميع إليه. شعرتُ ببعض الذنب، ذلك أنّني لم أكن أنوي أن أسبّب للرجل حرجاً. استغرق منه الأمر بضع ثوانٍ أخرى قبل أن يستجمع نفسه.

«نعم يا جلعاد، أنا يهودي، لكن كيف عرفتَ ذلك؟»

«من الواضح أنني لم أكن أعرف،» أجبته. «كنتُ أخمّن. فكما ترى، كلما صادفتُ أشخاصاً يقدّمون أنفسهم على أنهم 'كوزموبوليتانيون' و'ملحدون' و'مواطنون عالميون'، دائماً ما يصدف بوجه من الأوجه أن يكونوا 'يهوداً' مندمجين يعرّفون أنفسهم سياسياً باعتبارهم كوزموبوليتانيين تقدّميين. لا أستطيع سوى أن أفترض أن غير اليهود يجدون بعض الطرق المختلفة للتعامل مع الاستياء المرتبط بهويّتهم. فإذا كانوا مولودين كاثوليكيين وقرروا المضي قدماً في مرحلة ما من حياتهم، فإنّ كل ما يقومون به هو التخلّي عن الكنيسة. وإذا

لم يكونوا يحبون بلدهم بقدر الآخرين ، فقد يحزمون بعضاً من متاعهم ويختارون بلداً آخر للعيش فيه . بطريقة ما ، لا يحتاج غير اليهود – وهذه أبعد ما تكون عن ملاحظة علميّة – أن يتواروا خلف شعارات مجردة ، عالمية وغامضة ، أو منظومة قيم أخلاقية . لكن ماذا كان سؤالك؟»

لم يكن ثمة سؤال بعد ذلك ، «فالكوزموبوليتاني والملحد والمواطن العالمي» لم يستطع أن يتذكّر سؤاله . ففي أعقاب تقليد يهود ما بعد الإعتاق ، أحسب أنه جاء إلى هناك للاحتفال بحقه في «تقرير المصير» على الملأ . كان سيستغل النقاش المفتوح كي يخبر جيرانه وأصدقاءه في آسبن كم أنه إنسان رائع . بخلافهم ، هؤلاء الأميركيون المحليّون الوطنيون المعتدّون بأنفسهم ، كان هو في الواقع إنساناً متقدّماً ، رجلاً يتجاوز الأمّة ، شخصاً كافراً غير وطني ، نتاجاً عقلانياً للتنوير والابن الحقيقي لفولتير .

إنّ تقرير المصير عارضٌ اجتماعي وسياسي يهودي حديث ، بل إنه وبائي . لقد تسبب اختفاء الغيتو وخصائصه الأمومية في أزمة هوية داخل المجتمع اليهودي المندمج إلى حد كبير . وفيما يبدو ، فإنّ كل المدارس السياسية والروحية والاجتماعية اليهودية الحديثة في حقبة ما بعد الإعتاق كانت معنيّة أصلاً بقضايا متعلقة بـ«حق تقرير المصير» ؛ إذ يطالب الصهاينة بالحق في تقرير المصير القومي على حساب الفلسطينيين ؛ وقد يطالب حزب البوند بحق تقرير المصير القومي والثقافي ضمن الخطاب البروليتاري في أوروبا الشرقية ؛ وقد تطالب ماتسبن[1] ، المنظمة اليسارية المتطرفة في إسرائيل ، بحق تقرير المصير

(١) ماتسبن : منظمة مناهضة للصهيونية ومناهضة للرأسمالية ، تأسست في الكياني الإسرائيلي عام ١٩٦٢ وظلت ناشطة حتى ثمانينات القرن الماضي . عرفت رسمياً عشية تأسيسها بـ«المنظمة الاشتراكية الإسرائيلية» ، ثم باتت معروفة باسم «ماتسبن» على اسم نشرتها الشهرية ، حيث تعني كلمة ماتسبن «البوصلة» . (المترجمة)

«للشعب» اليهودي الإسرائيلي في «الشرق العربي المحرَّر» ؛ وقد يصرّ مناهضو الصهيونية اليهود على الحق في المشاركة في خطاب يهودي خاص وحصري ومتمحور إثنياً في حركة التضامن الفلسطينية .

ما الذي يعنيه حق تقرير المصير هذا؟ لماذا يصرّ الفكر السياسي العلماني اليهودي الحديث على التمسّك بذاك الحقّ؟ ولماذا يشعر بعض اليهود المندمجين «التقدّميين» بالحاجة لكي يصبحوا «مواطنين عالميين» بدلاً من أن يكتفوا بكونهم مواطنين بريطانيين أو فرنسيين أو أميركيين أو روساً؟

ادّعاء المصداقيّة

على الرغم من أن البحث عن الهوية وتقرير المصير قد يوحيان بالقيام بخطوة نهائية نحو الخلاص الحقيقي ، فإن النتيجة التي أسفرت عنها سياسة الهوية والمسائل المتعلقة بتقرير المصير هي العكس تماماً . فكما قلتُ سابقاً ، أولئك الذين يشعرون بأنهم مجبرون على «تقرير المصير» لجهة من يكونون هم قطعاً أبعد ما يكونون في المبدأ عن أي تحقيق صادق وحقيقي للذات . وأولئك الذين يعرِّفون أنفسهم على أنهم «كوزموبوليتانيون» أو «تقدّميون» أو «علمانيّون» أو «إنسانيّون» يخفقون في فهم أنّ الأخوّة الإنسانية الحقيقية لا تحتاج إلى تقديم أو تصريح ، وإنما إلى حبٍّ حقيقي بعضهم لبعض . إن الكوزموبوليتانيين الحقيقيين والأُصلاء لا يحتاجون إلى التصريح أو الإعلان عن التزامهم المجرَّد إزاء الإنسانية . فالمواطنون العالميون الحقيقيون يعيشون ببساطة في فضاء مفتوح دون تخوم أو حدود .

حق تقرير المصير

استُخدم مصطلح «تقرير المصير» في ميثاق الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ ، الذي يقول جزئياً : «لكافة الشعوب الحق في تقرير مصيرها ، ولها استناداً لهذا الحق أن تقرر بحرية كيانها السياسي وأن تواصل بحرية نموها الاقتصادي والاجتماعي

والثقافي .» ولقد تمّ تعريف حق تقرير المصير منذ ذلك الحين على نحو مشابه في العديد من إعلانات ومواثيق الأمم المتحدة ، حيث يتمّ النظر إلى المبدأ في الغالب باعتباره حقاً أخلاقياً وقانونياً .

بينما يحقّ لكل إنسان الاحتفاء بخصائصه ، إلا أن حق تقرير المصير ذو مغزى في الواقع فقط ضمن الخطاب الليبرالي الغربي ، الذي يتقبّل هذا الحق ، ويبنيه على أساس الفردية المتنوِّرة . ومثل هذا الحق لا معنى له ضمن خطاب قبلي . فحقّ تقرير المصير يعارض الثقافة القبلية ، التي تعطي الأولوية لبقاء القبيلة على حساب الاحتفاء بالفردانيّة . وتبدو السياسة اليهودية أسيرة هذين القطبين . فمن ناحية ، يصرّ اليهود المنعتقون على الاحتفاء بثمار التنوير ، محتفين بحقهم في تقرير من هم . ومن ناحية أخرى ، تتسم السياسة اليهودية بأنها قبلية ، حيث لا تتسامح مع الانشقاق اليهودي ، أو أي شكل من أشكال تقرير المصير يمكن أن يعارض ما تعتبره مصالح سياسية أو قبلية يهودية .

ويمكن لذوي الحظوة فقط الاحتفاء بحقّ تقرير المصير ، أولئك ممن لديهم القدرة على حشد ما يكفي من القوة السياسية أو العسكرية لتغيير الواقع . بيد أنه في الخطاب الغربي ، فإن اليهود فقط هم الذين يبنون قوتهم السياسية على «الحق في أن يكونوا كالآخرين .» ويصرّ الصهاينة على أن يكونوا أمّةً مثل الأمم الأخرى ، كما تصر جماعة حزب البوند على أن يكونوا بروليتاريين على غرار البروليتاريين في أي مكان ، في حين يؤْثر آخرون أن يكونوا أنفسهم فقط - فالبروليتاريون الحقيقيون لا يتطلعون إلى طبقة البروليتاريا الكادحة ، كما لا يحتاجون إلى أن يقلِّدوا أي أحد ؛ فهُم ما هم عليه . وفيما يبدو ، فإن الخطاب السياسي اليهودي بالكامل المتعلِّق بحق تقرير المصير مبنيٌّ على المحاكاة ، الأمر الذي يجعله بالتالي مزيفاً تماماً . تبعاً لذلك ، فإنّ مفهوم تقرير المصير اليهودي يقود أتباعه إلى حالة من الاغتراب ، ولعلّ هذا ما يفسِّر الافتقار الواضح للطرح الأخلاقي في ميدان السياسة الإسرائيلية وفي الخطاب الصهيوني .

في المجتمعات المضطهدة ، يطغى الدافع للتمرّد على القمع ، في الغالب ،

على الحق في تقرير المصير . بالنسبة للفلسطينيين في الأراضي المحتلة وفي غزة ، فإن حق تقرير المصير لا يعني شيئاً يذكر . فهم لا يحتاجون إلى تقرير مصيرهم كفلسطينيين ، ذلك أنهم يعرفون من هم ؛ وإذا حدث أن نسوا ذلك ، فإن الجنود (الإسرائيليين) المتمركزين عند أقرب حاجز طريق موجودون هناك لتذكيرهم . بالنسبة للفلسطينيين ، يشكّل حق تقرير المصير نتاج المواجهة اليومية مع الإنكار الصهيوني لحقوقهم الأساسية . إنه الحق في النضال ضد المحتل ، ضد أولئك الذين يجوِّعونهم ويطردونهم من أرضهم .

بقدر ما يطرح حق تقرير المصير نفسه كقيمة سياسية عالمية أخلاقية ، فإنه يُستخدم في الكثير من الحالات كآليّة قمعيّة وخلافيّة ، ما يؤدي إلى إلحاق الإساءة بالآخرين . فعلى سبيل المثال ، تم الاحتفاء علناً بالمطالبة الصهيونية بحق تقرير المصير وذلك على حساب الفلسطينيين .

البوند ونقد لينين

كان حزب البوند والصهاينة أول من أصروا على الحق اليهودي في تقرير المصير ، معبّرين عن ذلك ببلاغة . وكان الاتحاد العام للعمّال اليهود في روسيا وبولندا وليتوانيا- أي حزب البوند - قد تأسس على غرار الحركة الصهيونية ، في العام ١٨٩٧ ؛ حيث أكد بأنّ اليهود في هذه الدول من حقهم التمتّع بحق تقرير المصير ، قومياً وثقافياً .

لعلّ لينين كان أول من تطرّق بإسهاب إلى سخف المطالبة اليهودية بحقّ تقرير المصير ، وذلك في هجومه الشهير على البوند في المؤتمر الثاني لحزب العمال الديمقراطي الاشتراكي في العام ١٩٠٣ . «سيروا معنا» ، كان ردّه على البوند ، رافضاً مطالبته بمكانة إثنية خاصة تتمتّع باستقلال ذاتي وسط العمّال الروس . من الواضح أن لينين اكتشف الأجندة الإثنية التوجّه ، الخلافية والخادعة ، ضمن فلسفة البوند ، حيث قال : «إننا نرفض كل الحواجز الإجبارية التي تعمل على تقسيمنا .» وبقدر ما ساند المؤسِّس المستقبلي للاتحاد السوفياتي

«حق الشعوب في تقرير المصير»[1] ، فقد رفض بشكل صريح هذا الحق لليهود ، محدِّداً إياه على نحو دقيق بأنه رجعي . لقد دعم لينين حقّ الشعوب المضطهدة في بناء هوياتها القومية ، لكنه قاوم أيّة روحيِّة قومية متعصبة ، ذات أفق ضيق . وتنطوي معارضته لمطالبة البوند بحق تقرير المصير ثقافياً ، على ثلاثة أبعاد :

١ . فمن شأن رفع شعار الاستقلال الذاتي القومي الثقافي أن يؤدي إلى الانقسام بين الشعوب ، مما قد يستتبع عنه بالتالي تدمير وحدة البروليتاريا (أي طبقة العمال) .

٢ . يعدّ تمازج الشعوب واندماجهم خطوةً تقدّمية ، بينما التحول عن هذا الهدف من شأنه أن يكون خطوةً إلى الوراء ، حيث انتقد لينين أولئك الذين «يرفعون صوتهم ضدّ الدمج» .

٣ . إن «الاستقلال الثقافي غير الإقليمي» الذي أيّده البوند وغيره من الأحزاب اليهودية ليس مفيداً ، أو عملياً ، أو قابلاً للتطبيق .

باستخدام لينين فطنته السياسية المتوقِّدة ، شكّك في الأسس الأخلاقية والسياسية فيما يتعلق بحقّ تقرير المصير لليهود ، بقدر ما طالب البوند بأن تتم معاملة اليهود كهويّة قومية ككل المواطنين . لكن جواب لينين كان بسيطاً : «آسف يا جماعة ، لكنكم لستم كذلك . فأنتم لستم أقليةً قوميةً فقط لمجرد أنكم غير مرتبطين بقطعة ما من الجغرافيا» .

ماتسبن وولفُويتس

«إن الحلّ للمشكلات القومية والاجتماعية لهذه المنطقة [الشرق الأوسط...] لا يمكن أن يتحقّق إلا من خلال ثورة اشتراكية في هذه المنطقة ، بحيث تُطيح

---

(١) خطاب فلاديمير لينين حول مكانة البوند في حزب العمال الديمقراطي الاشتراكي الروسي ، والذي ألقاه في المؤتمر الثاني للحزب في الفترة من٣٠ يوليو/ تموز -٢٣ أغسطس/آب ، ١٩٠٣ . (عقدت جلسات المؤتمر بين بروكسل في بلجيكا والعاصمة البريطانية لندن)

بكل الأنظمة القائمة ، وتُحل محلها اتحاداً سياسياً بقيادة الكادحين . في هذا الشرق العربي الموحَّد والمحرَّر ، سوف يتم الاعتراف بحق تقرير المصير (بما في ذلك الحق في دولة منفصلة) لكل القوميات غير العربية التي تعيش في المنطقة ، من بينها الشعب اليهودي الإسرائيلي .»[1] **المبدأ الأساسي الثاني عشر ضمن مبادئ ماتسبن (المنظمة الاشتراكية في إسرائيل) .**

من الواضح أن نقد لينين لم يتم تبنّيه ، كما ينبغي ، على يد الأيديولوجيين «التقدميين» اليهود ودعاة الإثنية .

ومن شأن قراءة إعلان المبادئ الأساسية التي صاغتها ماتسبن ، المنظمة الإسرائيلية اليسارية المتطرفة الأسطورية ، أن تترك المرء في حيرة من أمره . ففي العام ١٩٦٢ ، كان «الماتسبانيون» (أعضاء منظمة ماتسبن) الراديكاليون لديهم سلفاً خطة لـ«تحرير» العالم العربي «من خلال ثورة اشتراكية» . بحسب مبادئ ماتسبن ، فإن كل ما يلزم هو «الإطاحة بكل الأنظمة [العربية]القائمة» ، وذلك كي «يتم الاعتراف بحق تقرير المصير لكل القوميات غير العربية التي تعيش في المنطقة ، من بينها الشعب اليهودي الإسرائيلي .»

لا يستلزم الأمر عبقرياً لاستيعاب ، من حيث المفهوم العام على الأقل ، أن مبادئ ماتسبن لا تختلف عن شعارات المحافظين الجدد التي وضعها وُلفويتس . فلقد كانت لدى ماتسبن خطة «للإطاحة» بكل الأنظمة العربية باسم «الاشتراكية» . من ناحيته ، كان ولفويتس سيقوم بالشيء ذاته باسم «الديمقراطية» . وإذا استبدلنا كلمة «الاشتراكية» بكلمة «الديمقراطية» في نص ماتسبن «التقدمي» سوف يتمخض لدينا نصٌ كاشف للمحافظين الجدد : «إن الحل للمشكلات القومية والاجتماعية في هذه المنطقة يمكن أن يتأتى فقط من خلال ثورة ديمقراطية في المنطقة ، بحيث تعمل على الإطاحة بكل الأنظمة القائمة ، وتستبدلها باتحاد سياسي للمنطقة . . .»

---

(١) انظر : (http://www.matzpen.org/index.asp?p=principles) .

كل من منظمة ماتسبن «التقدمية» الأسطورية والمحافظين الجدد «الرجعيين» يستخدمون المفهوم المجرد نفسه مع بعض الادّعاء بالعالمية لتبرير الحق اليهودي في تقرير المصير وتدمير القوة الإقليمية للعرب والإسلام . كل من ماتسبن والمحافظين الجدد يزعمون بأنهم يعرفون ما الذي يعنيه التحرير للعرب . بالنسبة للماتسبني ، فإنّ تحرير العرب يعني تحويلهم إلى بلاشفة ؛ أما المحافظ الجديد فهو أكثر تواضعاً فعلياً - فجلّ ما يسعى إليه هو أن يشرب العرب الكوكا كولا خاصته في مجتمع ديمقراطي على الطريقة الغربية . كلتا الفلسفتين المتمحورتيْن حول اليهودية محكومٌ عليهما بالفشل ، لأن مفهوم تقرير المصير **أوروبي التمحور** إلى حدٍّ كبير . كلتا الفلسفتين مبنية على أساس مفهوم الفردانية المتنوِّر ، وليس لديها ما تقدّمه للمضطَّهدين سوى شكل آخر من أشكال الاضطهاد باسم الشرعية «العالمية» . وفي ما يتعلق بالثورات الجارية في المنطقة ، فهي أبعد ما تكون عن كونها اشتراكية أو ماركسية ، إذ يتفّق محللو الشرق الأوسط بأن الديمقراطية في العالم العربي من شأنها أن تؤدي إلى تمثيل أكبر للإسلام في السياسات الإقليمية ، وهو أمر لن يرحب به المحافظون الجدد ومنظِّرو ماتسبن .

لم تتمتّع ماتسبن بأية نفوذ أو أهمية سياسية ، كما لم تكن على تقارب مع الجماهير العربية . كنتيجة لذلك ، لم تستطع ماتسبن أبداً أن تؤثّر في حياة العرب ؛ كما لم تستطع أن تدمِّر أنظمتهم الحاكمة . ومع ذلك ، يُنظر إلى ماتسبن من قبل اليساريين اليهود في مختلف أنحاء العالم كفصل «فكري» ذي دلالة في الفكر التقدّمي اليهودي . كما يُنظَر إليها كلحظة فردية ومهمّة في اليقظة الأخلاقية الإسرائيلية . وهكذا ، إنه لأمر بالغ الحرج أن نكتشف أن هذه اللحظة الأكثر تنوّراً وتمحيصاً من الماركسية اليهودية ، أو اليقظة الأخلاقية اليسارية الإسرائيلية ، قد أفرزت رؤيةً سياسية لا تختلف ، صراحةً ، عن مسعى جورج بوش لـ«تحرير» الشعب العراقي . يجب أن يكون واضحاً دون أدنى شك أن اليسار اليهودي المتطرف (ممثلاً في منظمة «ماتسبن») و«التدخّل الأخلاقي» الأنجلو-أميركي الخاضع لتأثير الصهيونية (على غرار المحافظين الجدد) يشكّلان

وجهين للعملة نفسها . فهما متقاربان جداً كفكر سياسي ، نظرياً وأيديولوجياً وبراغماتياً - من حيث كونهما متمحورْين يهودياً حتى النخاع ، لكنهما مبنيان في الوقت عينه ، كما يُفترض ، على الكونية أو العالمية بهدف «التحرير» و«الحرية» . في نهاية المطاف ، ما نراه هنا هو تمرين سياسي يهوديّ التمحور ، وتحديداً حق تقرير المصير الذي يأتي على حساب الآخرين .

الفصل ١٤
استحضار ميلتون فريدمان

في الحقبة الممتدة من ستّينات القرن الماضي وحتى الثمانينات، كان العديد من الأكاديميين والسياسيين وزعماء العالم ينظرون إلى ميلتون فريدمان(١) باعتباره أهمّ عالم اقتصادي بعد الحرب العالمية الثانية. كان فريدمان كبير الاستشاريين الاقتصاديين في إدارة الرئيس الأميركي الراحل رونالد ريغان، كما كان مستشاراً اقتصادياً لدى رئيسة وزراء بريطانيا سابقاً مارغريت تاتشر، ولدى رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق مناحيم بيغن. ومن المعروف أنه عمل مستشاراً لدى الديكتاتور التشيلي أوغستو بينوشيه.

وليس مفاجئاً على الإطلاق أن عدداً متزايداً من المعلِّقين قد أدركوا في السنوات الحديثة بأن أيديولوجية فريدمان وتأييده للتجارة الحرة وعدم التدخّل الحكومي والتهرّب من اللوائح والقوانين والخصخصة هو ما قاد إلى الاضطراب المالي الحالي. كما أن فلسفة فريدمان هي التي أسهمت في تحويل الغرب إلى اقتصاد خدمي.

بيد أن فريدمان لم يكن اقتصادياً فحسب: فلقد كان أيضاً صهيونياً مخلصاً

---

(١) ميلتون فريدمان: (١٩١٢- ٢٠٠٦)، عالم اقتصادي أميركي، نال جائزة نوبل في علوم الاقتصاد، وعرف بأعماله وأبحاثه في مجال الاقتصاد الكلي والاقتصاد الجزئي والإحصاء، كما اشتهر بأبحاثه في تحليل الاستهلاك، وفي النظرية النقدية وتاريخ النقد، حيث وصفته مجلة **ذا إيكونوميست** الأسبوعية اللندنية بأنه «الاقتصادي الأعظم تأثيراً في النصف الثاني من القرن العشرين». (المترجمة)

ويهودياً معتَدّاً بذاته . كان فريدمان مهتماً بدور اليهود في المال والسياسة العالميّن ، كما سعى إلى تحليل وفهم موقف اليهود تجاه الثراء . في العام ١٩٧٢ ، تحدث فريدمان أمام جمعية مونت بيليرين[١] حول «الرأسمالية واليهود»[٢] . وفي العام ١٩٧٨ كرر الحديث ذاته ، مخاطباً الطلبة اليهود في معهد هيليل[٣] بجامعة شيكاغو[٤] .

المفارقة اليهودية

مما لا شكّ فيه أن فريدمان كان مفكراً حادّ الذكاء ، كما كان قادراً على إعطاء نقد محكم . ومع ذلك لم يكن «كوزموبوليتانياً» تماماً ، بما أنه كان منغمساً

---

(١) جمعية مونت بيليرين : منظمة عالمية تتألف من عدد من علماء الاقتصاد (من بينهم ثمانية علماء من الحائزين على جائزة نوبل في علوم الاقتصاد) ، بالإضافة إلى فلاسفة ومؤرخين ومفكرين ورجال أعمال بارزين ، وآخرين من أنصار ما يعرف بـ«الليبرالية الكلاسيكية» . تأسست المنظمة في ١٠ إبريل/ نيسان ١٩٤٧ في مؤتمر نظمه الاقتصادي والفيلسوف النمساوي فريدريك هايك ، وكان من بين المؤسسين ميلتون فريدمان . ولقد أيدت المنظمة السياسات المتعلقة بالسوق الحرة ، والقيم السياسية لما يُعرف بالمجتمع المنفتح . ولقد سُمّيت الجمعية بـ«مونت بيليرين» على اسم المنتجع السويسري الذي شهد المؤتمر التأسيسي . (المترجمة)

(٢) انظر : (http://www.thefreemanonline.org/columns/capitalism-and-the-jews) .

(٣) معهد هيليل : أكبر مؤسسة أكاديمية في العالم مخصصة للطلبة اليهود ، تعمل كحاضن فكري و«روحي» لهم في أكثر من خمسمائة جامعة عالمية ، حيث تروج لهدف رئيسي مفاده : «إعادة إحياء الحياة اليهودية» بالإضافة إلى «غرس القيم اليهودية» في نفوس الطلبة والخريجين اليهود ، موفرةً الدعم المادي والمعنوي لهم عبر تعمد «إعلاء» اليهودية كسمة متميزة ، حيث يوصف المعهد بأنه بمنزلة «سيناغوغ» أي كنيس يهودي في الحرم الجامعي . (المترجمة)

(4) (http://www.law.uchicago.edu/audio/friedman101578).

بعمق في المسائل اليهودية وفي الشؤون الصهيونية ، وكان واضحاً وصريحاً بشأن كونه كذلك .

في الخطب والأحاديث التي ألقاها فريدمان في العام ١٩٧٢ وفي العام ١٩٧٨ ، عمد إلى تمحيص مفارقة يهودية فريدة من نوعها ، قائلاً : «لدينا هنا فرضيّتان ، حيث يمكن إثبات كل واحدة منهما بالدليل ، غير أن كليهما تتعارضان مع بعضهما بعضاً .»

تنطلق الفرضيةُ الأولى من أنه «ثمة عدد قليل من الناس في العالم ، إن وُجدوا ، يَدينون بالكثير للتجارة الحرة والرأسمالية التنافسية على غرار اليهود .»

أما الفرضيةالثانية فتقول «ثمة حفنة قليلة من الناس في العالم ، أو بالكاد ، قاموا بالكثير لتقويض الأساس الفكري للرأسمالية على غرار اليهود .»

فكيف نوفِّق بين هاتين الفرضيّتيْن المتناقضتين؟

كان فريدمان ، المدافع عن التجارة الحرة ، مقتنعاً بأنّ الاحتكار والتدخل الحكومي أمران سيِّئان عموماً ؛ لكن الأهم بالنسبة له هو أنهما أمران سيئان لليهود أيضاً .

«حيثما وُجد احتكار ، سواء أكان خاصاً أم حكومياً ، يكون هناك متّسع عندئذ لتطبيق معايير اعتباطية في انتقاء المستفيدين من الاحتكار - سواء كانت هذه المعايير لها علاقة بلون البشرة أو الديانة أو الأصل القومي أو غير ذلك . أما مع التنافس الحرّ ، فإنّ ما يهم فقط هو الأداء .»

من الواضح أن فريدمان يفضّل التنافس . فوفقاً له : «السوق مصابة بعمى ألوان . لا أحد يذهب إلى السوق كي يشتري الخبز يعرف أو يبالي بما إذا كان القمح قد زرعه يهودي أو كاثوليكي أو بروتستانتي أو مسلم أو ملحد ، أو زرعه أناس بيض أم سود .»

ويمضي فريدمان موضحاً : «أيّ طحّان يرغب في التعبير عن تحاملاته الشخصية بالقيام بالشراء فقط من جماعات مفضَّلة بعينها يواجه تراجعاً في قدرته التنافسية ، مادام ينأى بنفسه عن الشراء من المصدر الأرخص . يستطيع

أن يعبِّر عن تحامله أو تحيّزه ، لكنه سيقوم بذلك على حساب مصلحته ، بحيث يقبل دخلاً مالياً أقل مما كان يمكنه الحصول عليه خلاف ذلك .»

يتابع فريدمان قائلاً : «لقد أصاب اليهود نجاحاً في معظم تلك الدول التي شهدت فيها الرأسمالية التنافسية مداها الأكبر : في هولندا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وفي بريطانيا والولايات المتحدة في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وفي ألمانيا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .»

تبعاً لفريدمان ، ليس من قبيل الصدفة أن يكون اليهود قد عانوا أكثر ما يمكن في روسيا السوفياتية وألمانيا النازية ، فهاتان الدولتان تحدّتا أيديولوجيا السوق الحرة .

قد يقترح المرء في هذه المرحلة ، أنه على الرغم من أن اليهود عانوا بلا شك في روسيا السوفياتية وألمانيا النازية ، وأن هاتين الدولتين قطعاً تحدّتا أيديولوجيا السوق الحرة ، إلا أن فريدمان أخفق في إقامة علاقة سببيّة أو حتى عقلانية بين معارضة السوق الحرة وبين السياسات المعادية لليهودية .

ومع ذلك ، فإن الرسالة التي ينقلها فريدمان جلية – فاليهود يستفيدون فعلياً من الرأسمالية القاسية والأسواق التنافسية .

بيد أن فريدمان يبدي أيضاً اهتماماً حقيقياً بعلاقة المفكرين اليهود بمناهضة الرأسمالية : «لطالما كان اليهود حصناً منيعاً للمشاعر المناوئة للرأسمالية . من كارل ماركس مروراً بليون تروتسكي وحتى هربرت ماركوز[1] ، فإن قسماً كبيراً من الأدب الثوري المناهض للرأسمالية كتبه يهود .»

---

(١) هربرت ماركوز : (١٨٩٨- ١٩٧٩) ، فيلسوف يهودي ألماني ، عالم اجتماع ومنظر سياسي ، عضو في مدرسة فرانكفورت للنظرية النقدية ، ينظر إليه بوصفه رائد اليسار الحديث . من أشهر مؤلفاته : **الإنسان ذو البعد الواحد ؛ والجنس والحضارة ؛ والعقل والثورة ؛ والماركسية السوفياتية** . (المترجمة)

الأيديولوجيا مقابل الانتهازية

ما تفسير ذلك ، يتساءل فريدمان؟ لماذا كان اليهود مناهضين للرأسمالية على نحو غير متناسب ، وذلك على الرغم من السجل التاريخي لفوائد الرأسمالية التنافسية بالنسبة لليهود ، وعلى الرغم من الشرح الفكري لهذه الظاهرة الضمنية أو الجلية في جزء كبير من الأدب الليبرالي على الأقل من آدم سميث[1] فصاعداً؟

يعاين فريدمان بعض الإجابات : «غالباً ما نسمع من اليهود المنضوين تحت اليسار بأن انجذابهم إلى القضايا الإنسانية مدفوع بـ'إرثهم الإنساني اليهودي' . أنا نفسي علّقتُ غير مرة بأن هذا كذب صريح ؛ إذ لا يوجد شيء اسمه إرث يهودي . فكلّ من الديانة اليهودية و«الأيديولوجيا اليهودية» ، بوصفهما خاضعتين لتعاليم قبلية ، مجرّدتان من الأخلاق العالمية . فإذا كانت هناك أية ملامح ، ولو طفيفة ، للإنسانية في الثقافة اليهودية ، فهي بالتأكيد أبعد ما تكون عن العالمية .

بيد أن فريدمان قدّم تصوراً آخر حول الموضوع . ففي إشارة مباشرة للورانس فيوكس[2] ، الذي يجادل بأن مناهضة اليهود للرأسمالية هي «انعكاس مباشر للقيم المستقاة من الديانة والثقافة اليهوديتين» ، يتساءل فريدمان بأنه إذا كانت

---

(١) آدم سميث : (١٧٢٣-١٧٩٠) ، فيلسوف اسكتلندي ، من أبرز منظري حركة التنوير الأسكتلندية ، وأحد روّاد الاقتصاد السياسي . من أشهر مؤلفاته كتاب **ثروة الأمم** (١٧٧٦) ، الذي أرسى قواعد ومبادئ الاقتصاد المعاصر ، ويعد المرجع الفكري والبحثي الأول في علم الاقتصاد . ينظر إلى سميث بوصفه رائد الرأسمالية والاقتصاد الليبرالي . (المترجمة)

(٢) لورانس فيوكس : (مولود في ١٩٢٧) ، باحث ومنظر سياسي أميركي ، أسس قسم الدراسات الأميركية في جامعة برانديس ، وعمل فيها كأستاذ السياسة والحضارة الأميركية ، وذلك من العام ١٩٥٢ وحتى العام ٢٠٠٢ . له العديد من المؤلفات من بينها : **السلوك السياسي لليهود الأميركيين ؛ وجون إف . كنيدي والكاثوليكية الأميركية ؛ والسياسة الأخلاقية الأميركية** . (المترجمة)

الثقافة اليهودية فعلياً مناهضة للرأسمالية في الأساس (كما يقترح فيوكس)، فكيف إذن فشل اليهود في مقاومة الرأسمالية والأسواق الحرة على مدى تاريخهم؟ يحلّل فريدمان أنه بينما «تعود الديانة والثقافة اليهوديتان إلى أكثر من ألفي عام خلت، فإن المعارضة اليهودية للرأسمالية وارتباطها بالاشتراكية عمرها أقل من قرنين من الزمان في أفضل الأحوال.»

كمثقف ثاقب النظر، تمكن فريدمان من تفكيك ونقض حجّة فيوكس القائلة بأن الثقافة اليهودية اشتراكية في الأساس أو إنسانية: فلو كانت اليهودية فعلياً ملتزمة، على نحو متأصِّل وفطري، بمثل هذه المبادئ الأخلاقية فكيف إذن فشلت هذه النزعة الإنسانية في أن تكون لها الغلبة على امتداد التاريخ اليهودي؟

باحترام مدعاة للدهشة، يحلِّل فريدمان أيضاً كتاب **اليهود والرأسمالية الحديثة** لفرنر سومبارت(١)، الذي طاله الاتهام بمعاداة السامية. يحدِّد سومبارت الأيديولوجيا اليهودية في قلب الرأسمالية. «عبر القرون، تصدّى اليهود للدفاع عن قضية الحرية الفردية في النشاط الاقتصادي في مواجهة وجهة النظر السائدة آنذاك، حيث لم تكن اللوائح والقواعد من أي نوع لتقيِّد الفرد. أعتقد أن الديانة اليهودية لديها المبادئ والأفكار الرئيسية ذاتها كتلك الموجودة في الرأسمالية...»(٢)

---

(١) فرنر سومبارت (١٨٦٣-١٩٤١) عالم اجتماع واقتصادي ألماني، من أبرز علماء الاجتماع في أوروبا في النصف الأول من القرن العشرين. من أشهر أعماله مؤلفه الموسوعي **الرأسمالية الحديثة** الذي يعد مرجعاً رئيسياً للباحثين في علم الاقتصاد. أثار كتابه **اليهود والرأسمالية الحديثة**، الذي أنجزه عام ١٩١١، جدلاً حيث يوثق فيه انخراط اليهود في التطور الرأسمالي عبر التاريخ. (المترجمة)

(٢) انظر:

(http://classiques.uqac.ca/classiques/sombart_werner/Jews_and_modern_capitalism/sombart_jews_capitalism.pdf)

على الرغم من أن المفكرين اليهود في ذلك الوقت كانوا مستائين إلى حدّ كبير من كتاب سومبارت ، فإنّ ميلتون فريدمان من الشجاعة بحيث يعترف بأنه لا يوجد شيء في الكتاب نفسه يبرر أي تهمة بمعاداة السامية (وإن كان يجادل بأن هذا الأمر موجود بالتأكيد في مؤلّفات سومبارت اللاحقة) . كرأسمالي فخور ، يميل فريدمان فعلياً إلى تفسير كتاب سومبارت بوصفه «محباً للسامية»[1] .

يقول فريدمان في هذا الخصوص : «إذا كنتَ مثلي تنظر إلى الرأسمالية التنافسية بوصفها النظام الاقتصادي المفضَّل أكثر من غيره للحرية الفردية ، وللإنجازات الإبداعية في التكنولوجيا والفنون ، ولأكبر عدد متاح من الفرص الممكنة للشخص العادي ، فستعتبر إذن إيلاء سومبارت اليهودَ الدورَ الرئيسيَّ في تطور الرأسمالية بوصفه ثناء رفيعاً . كما ستعتبر كتابه ، مثلي ، محبّاً للسامية .»

قد يتّفق ميلتون فريدمان مع ما قاله ماركس من قبل من أن الرأسمالية يهودية «بطبيعتها» . على أنه بينما آمن ماركس أنه كي يحرر العالم نفسَه من الرأسمالية من الأفضل أن يحرِّر نفسَه من اليهود[2] ، فإنّ الرأسمالية بالنسبة لفريدمان تنطوي على قيمة عميقة ، ويجب أن تُحتَرم ، لذا يجب أن نثني على

---

(١) Philo-Semitic . وPhilo-Semitism : أي «المحبّ للسامية» ، ويقصد به إظهار الاهتمام أو الاحترام والتقدير لليهود وثقافتهم وأفكارهم ، والتعبير عن التقدير والامتنان لدورهم عبر التاريخ ، والتأثير الإيجابي للديانة اليهودية في المجتمعات الغربية تحديداً ، وحب كل ما له علاقة باليهود . و«المحب للسامية» هو بالضروري من الأغيار ، أي غير يهودي . (المترجمة)

(٢) «ما هو الأساس العلماني لليهودية؟ الحاجة العملية ، المصلحة الذاتية . ما هي الديانة الدنيوية لليهودي؟ المساومة . من هو الله الدنيوي؟ المال . حسناً إذن! إن الانعتاق من المساومة والمال ، وبالتالي من اليهودية الحقيقية ، العملية ، من شأنه أن يشكّل الانعتاق الذاتي في عصرنا .» كارل ماركس ، **حول المسألة اليهودية** ، ١٨٤٤ .

اليهود بسبب ارتباطهم المتأصِّل بهذه الفلسفة والنتائج المختلفة المستتبعة عنها . فيما يتعلق بفريدمان ، وكي تكون للرأسمالية الغلبة ، يتعين على اليهود مواصلة القيام بما يجيدونه ، ألا وهو الاتّجار بحرية في سوق مفتوحة وتنافسية .

يبدو أن فريدمان يصرف النظر عن وقوف «النزاهة الفكرية» المفترضة وراء الانتساب اليهودي لليسار ومناهضة الرأسمالية . ويميلُ إلى المجادلة بأنّ النزوع الفكريّ اليهودي نحو اليسار نتيجة مباشرة لظروف سياسية وتاريخية معيّنة ، وليست خياراً أخلاقياً أو أيديولوجياً . ويوضح ، من وجهة نظره ، أن انتساب اليهود لليسار هو نتاج حادثة بعينها في أوروبا في القرن التاسع عشر .

«بدءاً مع حقبة الثورة الفرنسية ، بات الطيف السياسي الأوروبي منقسماً إلى يسار و يمين على طول محور تضمّن مسألة العلمانية . ولقد حاجج اليمين (الذي اشتمل على المحافظين والملكيين والإكليركيين) بأنه يجب أن يكون ثمة مكان للكنيسة في النظام العام ؛ أما اليسار (الذي ضمّ الديمقراطيين والليبراليين والراديكاليين) فرأى بأنه يجب ألا تكون هناك كنيسة على الإطلاق . . .»

فكان من الطبيعي ، والحال هذه ، بالنسبة لليهود أن ينضموا إلى اليسار – والحقّ أن اليهود لم يكونوا يستطيعون إلا أن يلتحقوا باليسار .

«لقد شكّل المحور الذي يفصل اليسار عن اليمين كذلك حاجزاً طبيعياً لحدود المشاركة السياسية اليهودية . فاليسار ، بمفهومه العلماني الجديد للمواطنة ، هو الذي حقّق الانعتاق ، كما أن اليسار فقط هو الذي كان يرى مكاناً لليهود في الحياة العامة .»

هذا النهج الفكري ، إذن ، ينظر إلى الانتساب اليهودي لليسار كخطوة انتهازية سياسياً بدلاً من شكل من أشكال «اليقظة الأخلاقية» .

ومن شأن هذه القراءة لـ«اليسار اليهودي» أن تؤكد تقييمي النقدي ، كما تفسِّر لماذا ينضم بعض اليهود إلى اليسار – فتراهم يؤيدون الكوزموبوليتانية ، والتضامن ، ووجود طبقة عاملة عالمية ؛ وفي الوقت عينه غالباً ما يفضلون هم

أنفسهم العمل داخل خلايا موجهّة عرقياً لـ«اليهود فقط» مثل حزب البوند ، أو «جماعة الاشتراكيين اليهود»[1] أو حتى حملة «يهود لمقاطعة البضائع الإسرائيلية» . وقد يفسر تحليل فريدمان كذلك لماذا ينتهي المطاف بالعديد من اليهود الضاربة جذورهم في ما يشار إليه بـ«اليسار» إلى تقديم المواعظ بشأن سياسة التدخل الأخلاقي ومبادئ المحافظين الجدد .

يُحاجج فريدمان أيضاً أن انتساب اليهود لليسار يمكن فهمه بصورة أفضل كمحاولة للتبرّؤ من بعض التصورات النمطية المعادية للسامية لليهودي بوصفه «تاجراً أو مرابياً ، يضع مصالحه التجارية فوق القيم الإنسانية .»

وفقاً لفريدمان ، فإن اليهودي المناهض للرأسمالية موجود كي يبرهن أن اليهود فعلياً خيّرون وكرماء ، معنيّون بالمُثل العليا لا المكاسب المادية ؛ وهم أبعد ما يكونون عن كانزي أموال ، وأنانيين ، وغلاظ القلوب . «فهل ثمة ما هو أفضل للبرهنة على ذلك من مهاجمة السوق ، كونها تعتمد على القيم المالية والصفقات غير الشخصية ، وتمجيد العملية السياسية ، وتبنّي - كمثَلٍ أعلى - دولة يديرها أشخاص حسنو النية يعملون لمصلحة أقرانهم من البشر؟»

ومع ذلك ، وبحسب منطق فريدمان ، فإن ما يحرك اليهودي نحو اليسار ليست «اليقظة الأخلاقية ؛ وليست النزعة الإنسانية أيضاً ، ولا التضامن ولا الطيبة ، وإنما يبدو أنها محاولة يائسة لتغيير صورة اليهودي أو تحسينها» .

قد يبدو ذلك مستغرباً ، لكنني أجد نفسي متفقاً تماماً مع فريدمان ، وإن كنت قد أعمد إلى صياغة الأمر بطريقة مختلفة . فأنا أميِّز بين «اليساري الذي

---

(١) جماعة الاشتراكيين اليهود : تأسست في بريطانيا في سبعينات القرن الماضي بهدف حث اليسار على الانخراط بفاعلية وإيجابية أكبر في القضايا التي تمس اليهود . في أدبياتها الرسمية ، تعرف الجماعة نفسها بأنها منظمة سياسية تعمل من أجل حقوق اليهود وحقوق كل الأقليات المضطهدة في بناء مستقبل اشتراكي . (المترجمة)

تصادف أن كان يهودياً» -ضمن فئة بريئة[1] تستقي إلهامها من النزعة الإنسانية ، و«اليساري اليهودي»[2] ، الذي يبدو لي أنه ينطوي على تناقض في المعنى ، ذلك أن اليسار يسعى إلى أن يتخطى نفسه عالمياً إلى ما وراء الإثنيّة أو الدين أو العرق . من الواضح أن «اليسار اليهودي» موجود للحفاظ على هوية قبلية يهودية متمحورة إثنياً في قلب فلسفة الطبقة العاملة .

يبدو إذن أن فريدمان تمكّن من تسوية التناقض بين افتراضيه الأوليّيْن (لجهة كون اليهود رعاة الرأسمالية مقابل كون اليهود معادين للرأسمالية بشدّة) وذلك من خلال تقديم تفسير تاريخي وسياسي : فاليهود أو المثقفون اليهود ليسوا ضدّ الرأسمالية فعلياً ، كل ما في الأمر أن «الظروف الخاصة للقرن التاسع عشر هي التي دفعت اليهود باتجاه اليسار ، والمحاولات اللاوعية لليهود للبرهنة لأنفسهم وللعالم المغالطة التي تنطوي عليها الصورة النمطية لمعاداة السامية .» فالأمر لم يكن له علاقة بالأيديولوجيا أو بالمبادئ الأخلاقية .

هذا التفسير يوضح لماذا كان محكوماً على الصهيونية اليسارية بأن تختفي . لقد عاين فريدمان ، أثناء خطبه وأحاديثه ، الانقسام السياسي بين اليمين واليسار في إسرائيل . ولاحظ أنّ كلا التقليديْن المتعارضيْن فاعلان في الدولة اليهودية : تقليد قديم ، يعود إلى قرابة ألفي عام من البحث عن طرق للالتفاف على القيود الحكومية ، وآخر حديث ، يعود إلى قرن من الزمان ، ينطلق من الإيمان بـ«الاشتراكية الديمقراطية» و«التخطيط المركزي» . وكان فريدمان من الذكاء بما يكفي كي يستنتج في العام ١٩٧٢ بأن الغلبة ستكون لـ«التقليد اليهودي» ، وليست للاشتراكية . وقد لاحظ فريدمان بالفعل في سبعينات القرن الماضي أن إسرائيل كانت رأسمالية حتى النخاع ؛ حيث تنبّأ بأنّ المرحلة قصيرة الأجل لـ«الاشتراكيةالصهيونية الزائفة» كانت دخيلة على الثقافة اليهودية .

---

(١) تم تعريف هذه الفئة سابقاً بوصفها فئة ثانية .

(٢) يقع ضمن الفئة الثالثة .

على أنه ليس اليسار الإسرائيلي فقط كان محكوماً عليه بالفناء ؛ فقراءة فريدمان للثقافة اليهودية توضح أيضاً لماذا مات حزب البوند - فهو لم ينتشر في الواقع إلى الغرب - وهو ما يفسِّر أيضاً لماذا لم تتمكن منظمة «ماتسبن» وغيرها من الجماعات الثورية اليهودية المناهضة للصهيونية من اجتذاب الجماهير اليهودية .

نبوءة ذاتيّة التحقُّق

إن فريدمان ليس معصوماً من الخطأ ، فعلى الرغم من قراءته البليغة للشقاق بين اليمين واليسار اليهوديين ، إلا أنه ثمة بضع نقاط حاسمة لابد من توضحيها بشأن تناول فريدمان للثقافة اليهودية ، ومعاينته للرأسمالية .

يجادل فريدمان أنّ السوق الحرة والمنافسة جيّدتان لليهود . غير أنه يصّر بأن التدخل الحكومي يعدّ كارثةً تقود إلى معاداة السامية وأشكال أخرى من التعصب المؤسساتي . لو كان نموذج فريدمان صحيحاً ، فهذا يعني إذن أنه من الأفضل لليهود في الغرب أن يحشدوا قواهم ، ذلك أن الحكومات الغربية تتدخل في الوقت الراهن على نحو يائس في الأسواق ، في مسعى لتأخير الانهيار المحتوم لما تبقى من اقتصادنا وثروتنا النسبية .

لو صحّ نموذج فريدمان ، وكان التدخل سيّئاً فعلياً بالنسبة لليهود ، فهذا يعني أن التعصب ضد اليهودية قد يكون وشيكاً ، خاصةً بالنظر إلى خطط التدخل الضخمة التي وضعتها الدولة في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الاقتصاد الغربي .

لكن الأمر يتخطى ذلك - فمن الواضح جداً أيضاً أن خطط الإنقاذ وُجدت لإصلاح كارثة هائلة سبّبها إلى حدٍّ كبير تبنّي أيديولوجيا فريدمان . جميعنا ندفع ثمناً باهظاً جرّاء التجارة الحرة ، وانعدام التدخل الحكومي ، وغياب اللوائح ، والرأسمالية القاسية-أي عموماً الأيديولوجيات التي كان فريدمان شديد الحماسة إزاءها .

هناك شيء لم يقله فريدمان لمستمعيه في سبعينات القرن الماضي : فهو نفسه لم يدرك ربما المعنى الكامل لنموذجه الاقتصادي . لم يدرك أن تبنّي رونالد ريغان ومارغريت تاتشر لفلسفته سوف يعمل على تركيع الغرب في نهاية المطاف . فاته أن يدرك أن تأييده للرأسمالية القاسية هو الذي قاد القارات الغربية إلى الفقر والحرمان . ولعله لم يدرك في السبعينات أن نموذجه هو الذي أدى في النهاية إلى القضاء على الإنتاجية وكل جانب إيجابي من جوانب دولة الرفاه . لم يدرك ميلتون فريدمان ، في ذلك الوقت ، أن اقتصاداً خدمياً كان مؤاتياً لبعض الأقليات على مدى ألفيّتيْن قد لا يكون ناجحاً بالضرورة ما إن يتم تبنيه في نظام اقتصاد كلّي . وكما استنتج فريدمان ،كان اليهود وغيرهم من الأقليات الإثنية الأخرى - على مدى تاريخهم -فعّالين للغاية في تشغيل اقتصاد خدمي داخل أسواق تنافسية ومنتجة . بيد أن اليهود وغيرهم من الأقليات الإثنية أو الدينية الأخرى أصابوا نجاحاً لأن الآخرين كانوا هناك للعمل حولهم . إنّ تحول الغرب إلى اقتصاد خدمي مدفوع بجشع لا متناهٍ ، وهي عملية اقتفت تعاليم فريدمان الاقتصادية ، ليثبت في الوقت الحاليّ أنه كارثة ؛ إذ يعني الفقرَ والكسادَ العالمي ، ويمكن ترجمته إلى ابتعادٍ عن العمل والإنتاجية .

قد يكون فريدمان مصيباً حين تنبّأ بأن التدخل الحكومي قد يؤدي إلى معاداة السامية ،لكنه فشل على الأرجح في إدراك أنّ إرثه الفكري مسؤول إلى حدٍّ كبير عن الكارثة المالية الحالية . إن نموذجه الاقتصادي في الواقع ونبوءته هما اللذان قد يعرِّضان اليهود لمعاناة أكبر بكثير .

الفصل ١٥
قائمة المُحتال[1]

الآيات التالية من سفر التثنية (الإصحاح ٦ ، الآيات : ١٠- ١٢) جزء من الخطبة التي ألقاها موسى أمام شعبه في طريقهم إلى «أرض الميعاد» :

«ومتى أتى بكَ الربُّ إلهُكَ إلى الأرضِ التي حَلفَ لآبائكَ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ أنْ يعطيكَ ، إلى مدنٍ عظيمةٍ جيّدة لم تبْنِها ، وبيوتٍ مملوءة كلَّ خيْرٍ لم تَمْلأها ، وآبارٍ محفورة لم تحفرْها ، وكروم وزيتونٍ لم تغرِسْها ، وأكلْتَ وشبِعْتَ ، فاحْتَرزْ لئلاّ تنسى الربَّ الذي أخرجَكَ من أرضِ مصْرَ من بيْتِ العبوديَّة .»

إن الرب اليهودي ، كما يصوّره موسى في الفقرة السابقة ، هو إله شرير ، يقود ناسه إلى السلب والنهب والسرقة . ومع ذلك ، ثمة طرق عدة للتعامل مع هذه الصورة السلبية للإله القادر . على المستوى الأدبي ، يستطيع المرء أن يجادل بأن الآيات المشار إليها ليست سوى ثلاثة أسطر معزولة في نص طويل ينطوي على نية حسنة ، كما يقدم بعض الأفكار الكونية الجوهرية . في المستوى السياقي ، يمكن الاقتراح بأن الذي كان يتحدث إلى الشعب المختار ليس الرب فعلياً وإنما موسى نفسه ، الذي لم يتمكن من إيصال الرسالة الإلهية الحقيقية –

(١) عنوان الفصل بالإنجليزية هو : Swindler's List ، وهو شكل من أشكال التلاعب اللفظي أو تحوير الكلمات ، حيث يحيلنا إلى فيلم **قائمة شندلر** Schindler's list للمخرج الأميركي اليهودي ستيفن سبيلبرغ . يروي الفيلم الذي أُنتج عام ١٩٩٣ حكاية أوسكار شندلر ، وهو رجل أعمال ألماني أنقذ أكثر من ألف لاجئ بولندي يهودي أثناء «الهولوكوست» بقيامه بتشغيلهم في مصانعه . (المترجمة)

بكلمات أخرى ، من المحتمل أن يكون موسى قد فهم الموضوع خطأً أو حتى اختلقه . ثمّة العديد من الطرق الأخرى للحيلولة دون أن يكون الإله اليهودي واليهودية هما **اللوغوس**(١) وراء النهب الإسرائيلي المعاصر ، لكنه ليس من السهل إنقاذ الإسرائيليين من طرحهم بوصفهم سارقين وناهبين .

لم يزل موسى ومعاصروه وأتباعهم الحاليون يشعرون بالإثارة والترقّب للاحتمالات التي تنتظرهم في أرض الحليب والعسل . ولقد كانت إسرائيل ، الدولة اليهودية ، تتبع دعوة موسى ؛ فالتطهير العرقي للشعب الفلسطيني عام ١٩٤٨ ، والإساءة المتواصلة والشاملة للفلسطينيين منذ ذلك الحين ، لتجعل من الآيات السابقة في **سفر التثنية** تبدو كنبوءة تحققت .

لأكثر من ستين عاماً تم وضع الدعوة التوراتية للسرقة حيّز التطبيق العملي القانوني ؛ فالنهب الإسرائيلي للمدن والبيوت والحقول والآبار الفلسطينية شقّ طريقه في النظام القانوني لإسرائيل : فبحلول ١٩٥٠-١٩٥١ ، كان المشرّعون الإسرائيليون قد أقروا فعلياً «قانون أملاك الغائب» ، وهو قانون عرقيّ التوجّه يمنع الفلسطينيين من العودة إلى أراضيهم ومدنهم وقراهم ، كما يسمح لبني إسرائيل الجُدد بالعيش في بيوت ومدن «لم يبنوها» .

وتشكِّل السرقة المتواصلة لفلسطين باسم الشعب اليهودي جزءاً من سلسلة روحية وأيديولوجية وثقافية وعملية متصلة بين الكتاب المقدّس والأيديولوجيا الصهيونية ودولة إسرائيل (بالإضافة إلى مؤيديها في الخارج) . ولقد عملت كل من إسرائيل والصهيونية ، وكلاهما نظام سياسي ناجح ، على مأسسة عملية السلب التي وعد بها الرب العبري في النصوص المقدسة اليهودية .

لكن هذه السلسلة تذهب إلى ما هو أبعد من مجرد السرقة - فمن خلال

---

(١) اللوغوس : كلمة إغريقية المنشأ تعني حرفياً «الكلمة الإلهية» . ينطوي استخدامها على الكثير من المعاني والدلالات من بينها : الحكمة الإلهية ، العقل الإلهي المدبِّر ، القانون الكلي للكون أو المبدأ العقلاني الذي يحكم الكون ، وغيرها . (المترجمة)

مراجعة الفقرات التوراتية التالية ، نستعيد صور الدمار التي تعرض لها الغزيّون عند قصف ملجأ للأمم المتحدة أثناء عملية «الرصاص المصبوب» على قطاع غزة (في ديسمبر/كانون الأول - يناير/كانون الثاني ٢٠٠٨- ٢٠٠٩) :

«وتطردُونَ أعداءَكم فيسقُطونَ أمامَكمْ بالسّيْفِ . يَطرُدُ خمْسةٌ منكمْ مئَةً ، ومئَةٌ منكمْ يَطرُدونَ رَبْوَةً ، ويسقُطُ أعداؤُكم أمامكُمْ بالسّيْفِ .» **سفر اللاويين ، ٢٦ : ٧-٨**

«متى أتَى بكَ الرّبُّ إلهُكَ إلى الأرضِ التي أنتَ داخلٌ إليْها لتَمْتَلكَها ، وطَرَدَ شُعوباً كثيرةً من أمامِكَ . . . ودفعَهُمُ الرّبُّ أمامَكَ ، وضرَبْتَهُم ، فإنّكَ تُحرِّمُهُم . لا تقْطَعْ لهم عهْداً ، ولا تُشفقْ عليهم .» **سفر التثنية ، ٧ : ١-٢**

«وأمّا مدُنُ هؤلاءِ الشعوبِ التي يعطيكَ الرّبُّ إلهُكَ نصيبًا فلا تَسْتَبْقِ منها نَسَمَةً ما . .» **سفر التثنية ، ٢٠ : ١٦**

لا يوجد ثمة شكّ بين الباحثين التوراتيين بأن الكتاب المقدس العبري يحتوي على بعض الاقتراحات المشحونة وغير الأخلاقية ، بعضها يصل إلى حدّ الدعوة إلى ارتكاب إبادة جماعية . وكان العالم اللاهوتي الكاثوليكي ريموند شْواغر[1] قد عثر في العهد القديم على ستمئة فقرة تضمّ عنفاً صريحاً ، إلى جانب ألف آية تصويرية للجزاءات العقابية العنيفة للرب نفسه ، علاوة على مئة فقرة يعطي الرب فيها أوامرَ صريحةً للآخرين بالقتل . فالعنف أحد أكثر الأنشطة التي يشارُ إليها مراراً وتكراراً في الكتاب المقدس العبري .

ولا يتبع الإسرائيليون العلمانيون القانون اليهودي ، لكنهم يعمدون جماعياً بطريقة ما إلى تفسير هويتهم اليهودية باعتبارها مهمة توراتية ، الأمر الذي يسلط بعض الضوء ربّما على المجازر التي ارتكبتها قوات الجيش الإسرائيلي في غزة

---

(١) ريموند شْواغر : (١٩٣٥-٢٠٠٤) ، عالم لاهوتي سويسري ، من أتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية . تُحسب له مقاربته العديد من المسائل والقضايا التي كان علماء الدين الآخرون يتجنبون الخوض فيها . (المترجمة)

ولبنان في السنوات القليلة الماضية . لقد استخدمت قوات الجيش الإسرائيلي طرقاً فتّاكة ، مثل القنابل العنقودية والفسفور الأبيض ، ضدّ المدنيين كما لو أن هدفها الأساسي هو «التدمير» دون إظهار «رأفة» من أي نوع . وبقيام الجيش الإسرائيلي بمحو الجزء الشمالي من قطاع غزة في يناير/كانون الثاني ٢٠٠٩ ، يبدو كأنه كان يتبع الآية ٢٠ : ١٦ من **سفر التثنية** - ذلك أنهم فعلياً «لم يتركوا أي شيء يتنفّس على قيد الحياة» . ومع ذلك لماذا يتعين على قائد علماني أن يتبع آيات من **سفر التثنية** أو أي نص توراتي آخر؟

على الرغم من أن معظم اليهود لا يتبعون الكتاب المقدس ، بل إن العديد منهم يجهلون محتوياته ، فإن الروح الفتّاكة للنص التوراتي قد ملأت جوهر الخطاب السياسي اليهودي الحديث . وأولئك الذين يختلفون مع هذا التعميم قد يستحضرون حزب البوند وإرثه «التقدّمي» والعلماني «والأخلاقي» والكوزموبوليتاني . غير أنّ نظرة سريعة على إرث البوند يكشف أنه ليس مختلفاً جوهرياً عن الصهيونية . فأعضاء البوند يؤمنون أنه بدلاً من سرقة الفلسطينيين ، على اليهود أن يتحدّوا للاستيلاء على ما بحوزة الطبقات الثرية ، والقوية ، باسم ثورة الطبقة العاملة . فيما يلي دعوة البوند للعمل ، والمأخوذة من نشيد الحزب المعروف بـ«العهد» :

نقسم بأن تظلّ كراهيتُنا الراسخة مستمرة
إزاء أولئك الذين يسرقون الفقراءَ ويقتلونهم :
القيصر ، والأسياد ، والرأسماليين .
انتقامُنا سيكون سريعاً ومحقَّقاً .
فلنقسم بأن نعيشَ أو نموتَ معاً!

في ظاهر الأمر ، تعتبر مصادرة بيوت الأغنياء وثرواتهم فعلاً أخلاقياً ، على الأقل ضمن خطاب البوند - فامتلاك أكثر مما يلزم يعدّ جريمة .

في شبابي ، شاركتُ في بعض الاستعراضات اليهودية من منطلق أخلاقي ، حيث كنتُ مستعداً لامتشاق سيفي وملاحقة قيصر أو رأسمالي أو

أي عدوّ قد يعترض طريقي . لكن وقع المحتوم : فقد كبرتُ ، وأدركتُ أنّ مثل هذا الانتقام الموجَّه نحو طبقة بأكملها من الأغيار ليس أكثر من امتداد لوصايا الرب لموسى في سفر التثنية .

كما نرى ، فإن السرقة والكراهية متشرِّبتان في الأيديولوجيا اليهودية السياسية الحديثة على صعيد كل من اليسار واليمين . يتعين على المرء أن يقرّ ، على الأقل من وجهة نظر أخلاقية ، بأن السرقة لا يمكن أن تكون السبيل للمضي قدماً ، سواء من الفلسطينيين ، أو العراقيين ، أو حتى من القيصر نفسه[1] . فالسرقة تنطوي على رفض مطلق للآخر ، حتى وإن كانت مبنية على استقامة أخلاقية متأصِّلة .

فيما يتعلق بالممارسة غير الأخلاقية ، يمكن توضيح الفرق بين الديانة اليهودية والقومية اليهودية المعاصرة على النحو التالي : بينما يغصّ السياق التوراتي اليهودي بإحالات مرجعية إلى أفعال وممارسات عنيفة ، يتمّ ارتكابها في العادة باسم الرب ، فإنه وضمن السياق القومي والسياسي اليهودي الحديث ، يقتل اليهود ويسرقون باسمهم ، وباسم تقرير المصير ، و«سياسة الطبقة العاملة» ، و«المعاناة اليهودية» ، والتطلّعات القومية . ها هنا تكمن ذروة نجاح الثورة القومية اليهودية : فقد علّمت اليهود بأن يؤمنوا بأنفسهم ؛ فترى «الإسرائيلي» يسرق باسم «العودة للوطن» ، واليهودي التقدّمي باسم «ماركس» ، كما يقتل داعية التدخّل الأخلاقي باسم «الديمقراطية» .

---

(١) هذا يشير إلى أن التحرر من الطغاة والأنظمة القمعية يجب أن يكون مبنياً في المقام الأول على أساس أخلاقي .

التاريخانيّة والوقائع
مقابل
الخيال والوهم

الفصل ١٦
ملكة الصدمة

قبل بضع سنوات خلت ، أرسلتْ إليّ أكاديمية نسويّة يهودية أميركية تطلب إجراء حوار معي . أحب المقابلات ، فهي توفر علي مشقّة الذهاب إلى أطباء نفسيين . قدمت البروفيسورة نفسها بوصفها «باحثة مختصة في مجال الجَنْدَر» (أي دراسات النوع أو الجنس البشري) ، وهو ضرب آخر من ضروب المعرفة مابعد الحداثوية ، التي لا تثير اهتمامي . بيد أنّ الفضول تملّكني كي أرى ما الذي يمكن أن يقدّمه شخص تصادف أنه مؤهل أكاديمياً في كونه امرأة .

بعد أيام قليلة ، تلقيتُ عبر بريدي الإلكتروني استمارة . فقد أمطرتني البروفيسورة بأسئلة واستفسارات تتعلق بتجربتي العسكرية ، وحالتي «بعد الصدمة» . من الواضح أنها كانت مقتنعة بأنني حالة مرضية لاضطراب إجهاد ما بعد الصدمة . أعترف أن الأمر فاجأني - إذ لم أُطلع أحداً على أعراض «ما بعد الصدمة» لدي - وذلك لسبب منطقي وهو أنني ، حتى تلك اللحظة ، لم أكن مدركاً بأنني أعاني من اضطرابات صدمة من أيّ نوع .

مقاربتها أثارتني ؛ فعلى ما يبدو كانت تقارن حالات اضطراب إجهاد ما بعد الصدمة للجنود القدامى بضحايا الاغتصاب من النساء المصابات بصدمة . تساءلتُ ، في الوقت عينه ، كيف تمكّنتْ من تحديدي كمرشّح مناسب لبحثها . ثم أدركتُ بأنّ تصوّرها لي بأنني مصاب بصدمة هو على الأرجح نتاج اطلاعها على روايتي الأولى : **دليل الحائر** .

في ذلك الكتاب ، أتطرق إلى تجربة الشخصية الرئيسية غونتر ونكر في زمن

الحرب . ففي خضمّ المعركة ، يسحق الخوف غونتر ، فيعثر على ملجأ خلف صخرة . وفي النهاية ، يقوم بإطلاق الرصاص على ساقه في هجوم فوضوي . أذكر بأنّني شعرتُ بالإثارة وأنا أكتب تلك السطور - فقد بدا الأمر قريباً مما كان عليه الحال في الوطن . فطيلة حياتي كنتُ أشاهدُ العديدَ من الأفلام الحربية ، وأقرأُ العديدَ من الكتب التي تتناول الحروب . بل أنا نفسي كنتُ قريباً بما فيه الكفاية من ساحة قتال ، حيث قمتُ مدفوعاً بالحماسة بإجراء مقابلات مع العديد من الجنود ، لكنني لم أخض معركة أبداً . وحين أزف الوقت كي أخدم بلدي وأضحّي بحياتي على المذبح اليهودي ، استسلمتُ ؛ وأضحيتُ أكثر التصاقاً بأعضائي المختلفة ، خصوصاً تلك الناتئة مني .

من الجليّ ، إذن ، أن تجربة غونتر في ساحة الحرب من صنع الخيال الروائي . فهي لا علاقة لها بتجربتي الشخصية في الجيش . فقد **اخترعت** الحكاية كلّها . فهذا ما يفعله الكتاب الروائيون . غير أن ذلك المشهد تحديداً بدا حقيقياً بالنسبة لهذه الأستاذة الأميركية ، إذ يبدو أنها صدّقت أن غونتر تجسيدٌ أدبي لحكايتي الشخصية .

في مواجهة السؤال المتعلّق بالصدمة المفترضة التي سببتْها لي تجربتي العسكرية ، اتضّح لي أنّ «الصدمة» **والحدث الحياتيّ المسبب للصدمة** فئتان مختلفتان ليستا مرتبطتيْن ببعضهما بالضرورة . ووجدتُ نفسي أستعيد تجربتي في الجيش ، إلى جانب السنوات التي أعقبتها ، لأكتشف أنّ ثمة خوفاً واحداً ، حيث استغرق مني الأمر دهراً كي أتغلّب عليه .

حتى أوائل الثلاثينات من عمري ، كانت القنابل تسقط من حين لآخر فوق رأسي في أحلامي . أثناء نومي ، كنتُ أهرب بجلدي طلباً للنجاة قاطعاً حقلاً مفتوحاً لا نهاية له . كنتُ أستطيع أن أتخيّل بوضوح طائرات الـ«ميغ» النفاثة السورية ، تحلق في بعض الأحيان على ارتفاع بالغ الانخفاض بحيث تكون وجوه الطيارين مرئية . وكانت القنابل تُلقى بكميّات هائلة . في أحلامي ، كنتُ أتّخذ مساراً متعرِّجاً ، رافعاً رأسي إلى الأعلى ، مترقِّباً الحديد القاتل .

فكنتُ أعــدو بأقــصى ســرعــة ، وكنتُ أقع ، وأزحف ، ثم أقف ، وأركض ، وأتهاوى ، وأركض ثانية . لقد شهدت لياليّ ركضي السريع عبر حقول مشتعلة ، متفادياً شظايا القنابل ، إلى أن تخترق إحدى القنابل ، في النهاية ، رأسي ، فأستيقظ من لهيب الانفجار سالماً ، وإن كنتُ منتقعاً بالعرق البارد . على أن الكوابيس سرعان ما تلاشت بمجرد أن غادرتُ إسرائيل ؛ إذ لم أعِش كابوساً آخر منذ وقت طويل .

غير أنه من المهم الإشارة إلى أنه فيما يتعلق بسيرتي الذاتية الحقيقية ، لم أكن أبداً عرضة لغارة جوية . إذ لم تلاحقني طائرة واحدة للعدوّ أو تقصفني . فأحلامي بالقنابل لم تكن ردّة فعل على حدث حقيقي ، موضوعي ، بل على العكس من ذلك تماماً في الحقيقة : فعلى الأرجح أنها ردّة فعل على عدم وجود أيّ حدث .

ما لم يتم تفسير هذه الأحلام بأنها ناجمة عن الخوف من العجز ، أو جرّاء قلق آخر ما له علاقة بتراجع الرغبة الجنسية ، أستطيع أن أخمِّن أين زُرعت بذورها وكيف . فذات مرة ، أثناء حرب ١٩٨٢ في لبنان ، وكجزء من قافلة متجهة إلى جبال الشوف ، تلقّينا أوامر كي نقفز من شاحناتنا فيما افترضنا أنه تحذير من غارة جوية . وكحفنة من جنود أغرار ، كنا نعرف القليل جداً عن الغارات الجوية ؛ قلّدنا المقاتلين من حولنا ، متوارين في حقل مفتوح ، نبحث عن ملجأ ونصلي للرب . لم تتمكّن الطائرات السورية من بلوغ قافلتنا ، في النهاية ، لكن الرعب العالق ظل ماثلاً في عقلي لفترة طويلة ، حيث تشكّل في صيغة خطاب متخيَّل ، مشبع بالرمزية والمعاني الضمنية المؤلمة ، ونتيجة مبللة بالعرق .

لعلّ هذا الخوف وجد طريقه إلى روايتي . فعند التعبير عن حالة الرعب التي تملكت غونتر ، أفرغتُ هذا الخوف المصنَّع ذاتياً ، والناتج عن حالتي النفسية . فكل ما فعلته هو تضخيم المشهد .

من ناحيتها ، فإنّ الباحثة الأميركية التي أخطأت في تفسير خوف غونتر ، بوصفه تعبيراً عن صدمة شخصية نابعة من سيرتي الذاتية ، قد فتحت عينيّ

على طبيعة الصدمة ذاتها . أصبحتُ متشكِّكاً نوعاً ما إزاء ما يوصف بـ«الناس المصدومين» بل حتى أكثر تشككاً إزاء «الشعوب المصدومة» . لقد أدركتُ بأن كون المرء في حالة صدمة لا يستلزم بالضرورة محفِّزاً «حقيقياً» من التجربة الحياتية الموضوعية . فالسيرة الذاتية أو الحياتية هي نوع من الفرض ، عبر إبراز أو عرض مجموعة من الأفكار والمشاعر اللاحقة . فهي تنقل الماضي الذي نرغب في أن نمتلكه بدلاً من الماضي الذي عشناه . (روايتي الثانية ، **حبي الأوحد والوحيد** ، كانت في الواقع محاولة نقدية لمفهوم السيرة الذاتية الشخصية والسرد الشخصي . فالحبكة مبنية وفقاً لثلاث حكايات سردية متوازية ، تشير جميعها إلى الأحداث التاريخية ذاتها ، وإن كانت تنقل روايات سِيَريّة مختلفة تماماً .)

خلافاً للعديد من خبراء اضطراب إجهاد ما بعد الصدمة ، أميل إلى رفض الصلة السحريّة بين الصدمة والسيرة الذاتية . فالصدمة لا تتضمّن بالضرورة حدثاً مسبباً للصدمة يمكن إثباته . والحقيقة بأنّ حفنة باحثين يبنون تحليلهم للهوية الإسرائيلية على نوع من الصدمة اليهودية الجمعية ، لا يعني أن اليهود مصابون فعلياً بصدمة جرّاء ماضيهم . فعلى الأرجح جداً أنهم مصدومون بسبب مستقبلهم المتخيَّل .

متلازمة ما قبل صدمة الغاز

واحدة من أكثر اللحظات ترويعاً في فيلم قائمة شندلر لستيفن سبيلبيرغ تتمثّل ، قطعاً ، في مشهد غرفة الغاز . ففي وقت سابق من الفيلم ، انتشرت الشائعات بشأن قتل اليهود بالغاز السام . وها هنّ النساء القلقات الآن يتم إرسالهن عاريات إلى الحمامات في معسكر اعتقال أوشفيتز[1] للاغتسال تحت

(١) معسكر اعتقال أوشفيتز : شبكة من مخيمات الاعتقال التي بنتها ألمانيا النازية في الأراضي البولندية التي ضمتها ألمانيا إليها أثناء الحرب العالمية الثانية . ولقد حررت القوات السوفياتية المعسكر في ٢٧ يناير/كانون الثاني ١٩٤٥ . (المترجمة)

الدوش ، حيث نتبع مسيرتهن نحو الموت ؛ ذلك أننا نعلم الترتيب الرمزي للهولوكوست ، فجميعنا ندرك ما الذي يعنيه الاستحمام بـ«الدوش» ، متوقّعين حدوث جريمة إبادة نازية . لكننا نتنفس الصعداء بعد هنيهة ، إذ يتبيّن أنها «دوشات» ينزل منها الماء على رؤوس النسوة بدلاً من غاز «زيكلون ب»[1] . تكمن قوة اللحظة السينمائية في الهوّة بين السّرد المتخيَّل لما قبل الصدمة والحقيقة الماثلة على الشاشة . بكلمات أخرى ، تسبق الصدمة ، زمنياً ، الحدث المسبِّب للصدمة ؛ فالصدمة ذاتها هي التي تصوغ الحقيقة .

لقد نشأتُ وسط أناس في مثل سنّي ، أصروا على أن يكونوا مصدومين : حيث يطلقون على أنفسهم «الجيل الثالث» . إنهم أناس مثلي ، ولدوا في ستينات القرن الماضي أو بعد ذلك ، أي بعد وقت طويل من تحرير معسكر اعتقال أوشفيتز . إنهم أناسٌ يزعمون بأنهم تأثروا بالأحداث التي لم يعيشوها ، تماماً كما لم يعشْها آباؤهم . أليس هذا بالأمر الغريب؟ فكما بيّنتُ هنا ، أنا نفسي تعذّبت جرّاء غارة جوية لم تقع أبداً . لكنّ الفرق هو أنني لم ألق باللائمة على القوات الجوية السورية في زرع صور الغارات الجوية في أحلامي .

تشكِّل متلازمة إجهاد ما قبل الصدمة عقيدةً جوهريةً في الثقافة اليهودية والإسرائيلية ؛ حيث تقوم منظمات وهيئات صهيونية مختلفة بنقل فتية إسرائيليين إلى أوشفيتز ، بغرض «إنضاجهم» كي يصبحوا يهوداً بالغين وقد تعرضوا لصدمة نفسية . أولئك الذين يواظبون على هذه الرحلات «التثقيفية» يعرفون أن الصدمة تعدّ وقوداً فعّالاً يمكن بواسطته تكريس الرواية الصهيونية . غير أنه ، لسوء الحظ ، يعمد الشباب الإسرائيليون إلى تطبيق الدرس الخاطئ ما إن يعودوا للالتحاق بالجيش الإسرائيلي . فبدلاً من إظهار بعض مشاعر

---

(١) زيكلون ب : يعرف أيضا بـ«سايكلون ب» ، وهو الاسم التجاري لمبيد حشري قوامه حمض السيانيد الفتاك ، ذاع صيته السيء بسبب قيام ألمانيا النازية باستخدامه لقتل الناس في «غرف الغاز» أو «معسكرات الاعتقال» إبان ما عرف بـ«الهولوكوست» ، أي المحرقة . (المترجمة)

التعاطف إزاء ضحايا القمع ، كالفلسطينيين ، ترى الشباب الإسرائيليين المعذبين يحاكون فعلياً وحشية وحدات الإس إس «الشوتزشتافل» . «لن يحدث ثانيةً أبداً» ، يقولون ، ثم لا يلبثون أن ينشروا الشقاء والتعاسة من حولهم .

في العام ٢٠٠٦ ، وضع الصحفي الإسرائيلي يائير شيليغ وصفاً نموذجياً لحالة مرضية من متلازمة إجهاد ما قبل الصدمة .

> «من الصعب تصديق الأمر ، لكنه بعد ستين عاماً فقط من الهولوكوست يواجه الشعب اليهودي ثانيةً خطر تعرّضهم للدمار – على الأقل في دولتهم ، حيث يتركز ٤٠ في المئة من يهود العالم . ويمكن العثور على دليل على حدّة الخطر ، ليس فقط في التهديدات الصريحة للرئيس الإيراني ، المدعومة الآن ببرنامج تسلّح من شأنه أن يوفّر الوسيلة لتنفيذ هذه التهديدات . بل يمكن تلمّسها أيضاً في المقالات الأخيرة في الصحف الأوروبية التي تناقش إمكانية «اختفاء» إسرائيل كافتراض عملي معقول . وثمّة دليل إضافي فيما يتعلق بمستوى التهديد يكمن في الحقيقة بأنّ إسرائيل ليست البلد الوحيد في العالم المهدَّد بالدمار فحسب ، لكنها أيضاً الدولة الوحيدة التي يشكل حقّها في الوجود محط استطلاعات الرأي العالمية ، مع نزوع العديد من المستطلَعين إلى الإجابة بالنفي . وهذا شرف حتى إيران وكوريا الشمالية وجنوب إفريقيا إبان نظام الفصل العنصري لم تنله أبداً .»(١)

على الرغم من أن عدداً متزايداً من الناس ربما يتطلّعون إلى أن يروا نهايةً لإسرائيل ، إلا أنّه لا يوجد أحد في الأوساط السياسية أو الإعلامية يدعو إلى تدمير اليهود أو الشعب الإسرائيلي ، فالميل المتمحور يهودياً والمكرَّس لتفسير أي

---

(١) الصحفي الإسرائيلي اليميني يائير شيليغ في صحيفة هآرتس ، ٢٠٠٦ ، انظر :

(http://www.haaretz.com/hasen/spages/757767.html).

نقد سياسي أو أيديولوجي بوصفه إعلان إبادة بحق اليهود يعدّ شكلاً حاداً من أشكال متلازمة إجهاد ما قبل الصدمة .

هل يمكن أن تكون «متلازمة إجهاد ما قبل الصدمة» مجرد توصيف آخر للبارَنويا ، أي عقدة الاضطهاد . يمكنني أن أجيب بالنفي . فالناس المصابون بالبارَنويا يستدرّون تعاطفنا أو شفقتنا ؛ فهؤلاء ضحايا أعراضهم الخاصة بهم . من ناحية أخرى ، أولئك الذين يعانون من متلازمة إجهاد ما قبل الصدمة ، تراهم يحتفون فعلياً بأعراضهم على حساب الآخرين . مع البارَنويا ، نستطيع أن نحدِّد بوضوح بأنّ الشخص المصاب حبيس عالم من الأوهام . على أنّ أولئك المصابين بمتلازمة إجهاد ما قبل الصدمة يُفترض أنهم معافون صحيّاً ، كما أنهم متيقِّظون على الدوام ، وشديدو التركيز على ما يبدو . وغالباً ما ينتهي بنا المطاف بحيث نصدِّق مزاعم المصاب بمتلازمة إجهاد ما قبل الصدمة بأنه تحوّل إلى ضحية جريمة مستقبليّة متخيَّلة ، لنشارك بالتالي في وهم شخص آخر بالدمار . في حالة متلازمة إجهاد ما قبل الصدمة ، نكون نحن المُخاطَبين مادمنا التزمنا الصمت . فما إن نرفع أصواتنا كي نوضح أن الجريمة المستقبلية المتخيّلة لم تقع بعد ، وقد لا تقع فعلياً ، حتى نصبح على الفور جزءاً من الجريمة .

يتمّ التعبير عن المزاج العام في إسرائيل على نحو بليغ من خلال أشخاص مثل شيليغ ، كما ينعكس في السيناريوهات الكارثية التي تقترحها أطراف مثل اللجنة اليهودية الأميركية ، بشأن طموحات إيران النووية . لقد كانت إسرائيل وجماعات الضغط الخاصة بها تركِّز علناً على **الشواه**[١] النووية القادمة . ويعدّ هذا الهوس المرضي غريباً بالنظر إلى الحقيقة بأن حزب الله تمكن من هزيمة الجيش الإسرائيلي ، الذي لا يُقهر ، في لبنان (٢٠٠٦) ، وذلك بأسلحة خفيفة فقط وتكتيكات ذكية . كما نجح في دبّ الذعر في قلب المجتمع الإسرائيلي من خلال صواريخ الكاتيوشا قصيرة المدى فحسب . في الحقيقة ، لا يحتاج أعداء

(١) الشواه : كلمة عبرية تعني «المحرقة» أو الإبادة أو الدمار أو الكارثة . (المترجمة)

إسرائيل إلى تدمير البلاد بالسلاح النووي - كلّ ما يحتاجون القيام به هو إرسال رسالة إلى يهود العالم مفادها أن إسرائيل ليست سوى ملجأ . في واقع الأمر ، هذا ما تنطلق منه المقاومة العربية والإسلامية : توجيه رسالة ميتافيزيقية بدلاً من الدعوة لإبادة جماعية .

اللافت أن الخوف من الدمار المحدَّد بشرط متلازمة إجهاد ما قبل الصدمة هو مجرّد طريق آخر للهرب من الواقع . وبدلاً منه مواجهة أي خطر وشيك يشكّله حزب الله وحماس والمقاومة الإسلامية ، تؤْثر إسرائيل تضخيم صدمة وهمية . لقد فشل الإسرائيليون في قراءة الكتابة على الجدار . بدلاً من النظر في المرآة وتحديد عيوبهم وأخطائهم (التي تطوّرت إلى إفلاسٍ أخلاقي) ، تراهم يفضّلون الخضوع لوهم الإبادة اليهودية النووية . وبدلاً من التفكير بالمعاني والمضامين الأخلاقية ، يستسلمون للخطاب المادي الأكثر ضحالةً ، والذي يركز فقط على موضوع رئيسي وهمي هو «تدمير اليهود» .

الإسقاط ومتلازمة إجهاد ما قبل الصدمة

في أعقاب حرب لبنان الثانية ، صرح قائد في وحدة الصواريخ التابعة للجيش الإسرائيلي لصحيفة هآرتس بالقول : «ما فعلناه كان شيئاً جنونياً ووحشياً ، فقد غطّينا بلدات بأكملها بقنابل عنقودية . . . حيث أسقط الجيش الإسرائيلي حوالي ١٨٠٠ قنبلة عنقودية ، تحتوي على أكثر من ١,٢ مليون من القنابل العنقودية الصغيرة .»(١)

بينما لا يدعو أحد فعلياً إلى رمي الإسرائيليين في البحر أو إبادتهم نووياً ، فإن ميل إسرائيل إلى إلقاء اللائمة على المسلمين والعرب في تبنيهم مثل هذه

(1) Rappaport, Meron, IDF commander: We fired more than a million cluster bombs in (Lebanon, Ha aretz, 12 September 2006: انظر ؛ http://www.haaretz.com/hasen/spages/761781.html).

النزعات الإجرامية يجب فهمه ، حينئذ ، بمنطق الإسقاط . فالناس الذين أمطروا لبنان عام ٢٠٠٦ بأكثر من مليون قنبلة عنقودية ، وقذفوا غزة بوابل من القنابل الفسفورية (٢٠٠٨- ٢٠٠٩) يسقطون حماستهم للقتل على ضحاياهم ، بل على ضحاياهم المستقبليين . من السهل جداً تفسير هذه الدينامية . فكلما زاد حجم الألم الذي نسببه للآخرين ، أصبحنا أكثر تعوّداً على الشرّ والعدوان والوحشية . وكلّما تعاملنا بقسوة أكبر مع الآخرين ، ازداد رعبنا من احتمالية أن يتصرّف ضحايا وحشيتنا بالقدر ذاته من بشاعتنا . وهذا ما يسميه فرويد بـ«الإسقاط» . من جانبه ، هذّب أوتو فايننغر هذه الدينامية بقوله : «إننا نكره في الآخرين ما لا نحبّه في أنفسنا .» ويتم تضخيم دينامية الإسقاط حين يكون الشخص الخاضع لإرهابنا يائساً وعاجزاً .

وتشكّل المعاملة الإسرائيلية للفلسطينيين مثالاً مدمِّراً على ما تقدّم . فكلما تنامى شعور الفلسطينيين باليأس والعجز ، أصبح الإسرائيلي أكثر ضراوة . إلى ذلك ، كلما ازداد الإسرائيلي ضراوةً ، زاد رعبه أو رعبها من «الإرهاب» . إنّ الإسرائيليين في الواقع مرعوبون فعلياً من وحشيتهم . فالإرهاب في داخلهم هو الذي يروِّعهم أكثر من أي شيء آخر . ويعدّ مقتل تسعة ناشطين سلميين بدم بارد في أعالي البحار على يد أفراد كوماندوز من قوات النخبة في البحرية الإسرائيلية[1] فضحاً فاجعاً لتلك الدينامية الفتّاكة . هذا العدوان الصاعق

(١) في ٣١ مايو /أيار ٢٠١٠ ، شنّت قوات النخبة في البحرية الإسرائيلية غارة في المياه الدولية على أسطول يتألف من ست سفن كانت تنقل مساعدات إنسانية ومواد بناء إلى غزة ، حيث كان الأسطول يهدف إلى كسر الحصار المفروض على قطاع غزة . في الفجر ، شنّ المئات من أفراد وحدة «شايطيت ١٣» النخبوية في سلاح البحرية هجوماً على الأسطول ، حيث نزلوا من طائرات الهليكوبتر وآخرون جاءوا على متن زوارق بحرية سريعة ، مستخدمين في هجومهم قوة مفرطة . ولقد واجهت القوات الإسرائيلية على متن سفينة «مافي مرمرة» التركية بعض المقاومة ، فسارعوا إلى استخدام الذخيرة الحية . كنتيجة لذلك ، قُتل تسعة ناشطين أتراك ، بعضهم تم إعدامهم على أيدي الجنود الإسرائيليين . ولقد لقيت الغارة الإسرائيلية إدانة عالمية واسعة النطاق .

غذّاه التهديد المتخيَّل بالإرهاب (متلازمة إجهاد ما قبل الصدمة) . ولقد عملت الصورة البريئة لأسطول غزة على تضخيم وحشيّة أفراد الكوماندوز الإسرائيليين .

قد يتساءل المرءُ ما إذا كان ثمّة طريق للهرب خارج هذه الدائرة الشريرة؟ هل هناك أية وسيلة لتفكيك الخوف الوهميّ من الآخر بوصفه وحشيّاً بقدر ما يمكن أن أكون أنا عليه؟ أعتقد أن «أدر الخدّ الآخر» طريقة فعّالة لتحدّي مقولة «العين بالعين» في العهد القديم . فعادة ما يُنظر إلى إدارة الخدّ الآخر بوصفها طريقة لمواجهة المعتدي . على أنّها قد تكون الطريقة الوحيدة الممكنة لتفكيك «الإرهاب من الداخل» ، تلك النزعة العدوانية التي تضطرم وتتجمّع في داخلنا حيث نصبح حقودين وانتقاميين . كما يمكن أن تكون فعّالةً للغاية في نزع فتيل الغضب لدينا إزاء تهديد متخيَّل ، حيث نستبدله بالقبول ، ونجرِّد أنفسنا من السلاح ؛ فنعطي السلام فرصة .

النكتة.. متنفّساً

برقية يهودية : «ابدؤوا بالقلق ، التفاصيل تتبع .» –نكتة قديمة

النكتة أعلاه – وهي أقدم من إسرائيل ، ولعلّها تُماثل في قدمها قدم نظام إرسال البرقيات ذاته– تشير إلى ديالكتيك الخوف الذي يسيطر على العقلية السياسية والأيديولوجية اليهودية . وكان زعماء اليهود قد استغلوا الخوف سياسياً منذ الحقبة الأولى للإعتاق . بيد أنه من المحتمل أنه أثناء عملية العَلْمَنَة والإعتاق اليهوديين اللذين دشّنتهما حقبة التنوير والثورة الفرنسية ، حلّ الخوف من القدر الوهمي محلّ الرب القدير ، إله سدوم وعموزة ، الذي يفتك دون رحمة . فإذا كان هذا هو واقع الحال فعلياً ، فيمكن الاعتراف بـ«الخوف» كأحد العديد من آلهة اليهود الحديثين ، كما يمكن الإقرار بمتلازمة إجهاد ما قبل الصدمة بوصفه ممارسة يهودية حديثة .

الفصل ١٧
من التائه؟

يفتتح المؤرخ والبروفيسور في جامعة تل أبيب شلومو زاند دراسته المذهلة عن القومية اليهودية ، **اختراع الشعب اليهودي** ، باقتباس لكارل دويتش[١] :
«الأمّة . . عبارة عن مجموعة من الأشخاص يجمعهم خطأ مشترك بشأن أسلافهم ، وكراهية مشتركة لجيرانهم .»[٢]

على بساطة هذا الاقتباس ، أو حتى تبسيطه كما قد يبدو ، فإنه يلخّص القومية اليهودية الحديثة ، وخاصة مفهوم الهوية اليهودية ، حيث يشيرُ إلى الخطأ الجمعيّ الذي يميل اليهود إلى ارتكابه في كل مرة يرجعون فيها إلى «ماضيهم الجمعي» الوهمي أو «المَحْتَد الجمعي» .

يشكّك زاند ، في كتابه ذاك ، جدياً في ما إذا كان الشعب اليهودي قد وُجد ، أساساً ، كأمّة أو كعرق ، أو حتّى ما إذا كان ثمة أصلٌ مشترك فيما بينهم . ويرى ، بدلاً من ذلك ، أنهم خليط ملوّن من الجماعات ، اعتنقت الديانة اليهودية في مراحل مختلفة من التاريخ . فمتى تمّ «اختراع» الشعب اليهودي إذن؟ يجيب زاند : «في مرحلة ما من القرن التاسع عشر ، أخذت

---

(١) كارل دويتش : (١٩١٢- ١٩٩٢) ، عالم اجتماع ومنظر سياسي أميركي نمساوي الأصل ، ركزت كتاباته على دراسة الحرب والسلام والقومية ، يعتبر من أشهر علماء الاجتماع في القرن العشرين . يحسب له أنه أدخل طرق «الحساب الكمي» و«تحليل الأنظمة» و«التفكير النموذجي» في حقل العلوم السياسية والاجتماعية . (المترجمة)

(2) The Invention of The Jewish People, Shlomo Sand, Verso 2009, pg 1

مجموعة من المثقفين ، من ذوي الأصل اليهودي في ألمانيا والمتأثرين بالشخصية الفولكلورية للقومية الألمانية ، على عاتقها مهمة اختراع شعب على نحو استعادي ، تعطّشاً لخلق شعب يهودي حديث .»[1]

بناء على ذلك ، فإن «الشعب اليهودي» فكرة مختلقَة ، تتألف من ماضٍ متخيَّل ، مع غياب وجود أدلة قوية تدعم هذه الفكرة شرعياً أو تاريخياً أو نصياً . أضف إلى ذلك أن زاند ، الذي أسهب في شرح وتحليل المصادر المتوافرة منذ العصور القديمة ، يتوصل إلى نتيجة مفادها أنّ المنفى اليهودي أيضاً هو أسطورة ، وأن فلسطينيي اليوم من المرجح جداً أن يكونوا من نسل الشعب السامي القديم في منطقة يهودا/ أرض كنعان ، أكثر من التجمع البشري الحالي ذي الأصول الخزرية الأشكنازية في الغالب ، والذي يعترف هو نفسه بأنه ينتمي إليها .

وانتصر هتلر في النهاية

كعلمانيين مفترضين ، حين يُسأل اليهود الكوزموبوليتانيون عما يجعلهم يهوداً ، غالباً ما يسارعون إلى الردّ بالقول : «هتلر جعلني يهودياً .» على الرغم من أن صفة «الكوزموبوليتانيين» (أو «المواطنين العالميين») تنزع إلى نبذ النوازع أو الأهواء القومية للناس الآخرين ، فإن اليهود الكوزموبوليتانيين ، لسبب ما ، يصرّون على الاحتفاظ بحقهم في «تقرير المصير» . على أنهم ليسوا هم فعلياً الذين يشكلون جوهر هذه المطالبة الفريدة بالنزعة القومية ، وإنما الشيطان ، الوحش الأعظم المعادي للسامية : أدولف هتلر . فمن الواضح أن اليهود الكوزموبوليتانيين يستطيعون الاحتفال باستحقاقهم القومي مادام هتلر موجوداً كي يُلقوا باللائمة عليه . وإذن ، لقد انتصر هتلر في نهاية المطاف .

---

(١) Ilani, Ofri, Shattering a National Mythology ، مقابلة مع شلومو زاند ، هآرتس ، ٢١ مارس/آذار ٢٠٠٨ ؛ انظر :

(http://www.haaretz.com/general/shattaring-a-national-mythology-1.242015)

يوضح شلومو هذه المفارقة . فببصيرة نافذة ، يشير إلى أنّه «كانت ثمة حقبة زمنية في أوروبا يتم فيها ، على الفور ، وسم أي شخص يجادل فيها بأن كل اليهود ينتمون إلى أمّة ذات أصل غريب ، بأنه معادٍ للسامية . في الوقت الراهن ، فإن أي شخص يجرؤ بأنْ يقترح بأنّ الشعبَ المعروف في العالم باليهود (باعتبارهم متميِّزين عن إسرائيليي اليوم) لم يكونوا شعباً أو أمّةً ذات يوم ، وما زالوا ليس كذلك ، سرعان ما يتمّ اتهامه بأنه كاره لليهود .»[١] في إسرائيل ، يحتفي اليهود بتميّزهم الفريد من نوعه عن الشعوب الأخرى . وفي الحقيقة فإنه حتى المناهضون للصهيونية من اليهود يعزّزون سماتهم المتميزة مقارنة مع ناشطي السلام الآخرين .

القومية والقومية اليهودية

كتب لويس- فرديناند سيلين[٢] يقول إنه أثناء القرون الوسطى ، بين الحروب الكبرى ، كان الفرسان يضعون أثماناً مرتفعة جداً على استعدادهم للموت باسم ممالكهم ؛ بيد أنه في القرن العشرين ، يمضي الشباب إلى الموت بالجملة من دون المطالبة بشيء في المقابل . إن فهم هذا التحول في الوعي الجماعي يتطلّب نموذجاً منهجياً بليغاً يسمح لنا بأن نستوعب ماهية القومية .

على غرار كارل دويتش ، يعتبر زاند الصفة القومية حكايةً وهمية . فالدراسات الأنثروبولوجية والتاريخية لأصول مختلف «الشعوب» و«الأمم» ، كما توصف ، تؤدي إلى تقويض كل إثنية وكل هوية إثنية ، وذلك على نحو مربك . لذا من المثير أن نكتشف أن العديد من اليهود يتعاطون مع أسطورتهم الإثنية

---

(1) The Invention of The Jewish People, Shlomo Sand, Verso 2009, pg 21

(٢) لويس فرديناند سيلين : (١٨٩٤-١٩٦١) ، طبيب وكاتب وروائي فرنسي ، يعتبر أحد أكثر كتاب القرن العشرين تأثيراً ، مطوراً أسلوباً جديداً في الكتابة أسهم في تحديث كل من الأدب الفرنسي والأدب العالمي . (المترجمة)

بجدية بالغة . أستطيع أن أفكر بتفسيرين محتملين لهذا الإصرار ؛ أحدهما قدّمه الأكاديمي الإسرائيلي بنيامين بيت-هالامي[1] قبل بضع سنوات ، حيث قال إنّ الصهيونية وجدت لتُحوِّل الكتاب المقدّس من نصّ روحي إلى «وثيقة تسجيل أراض» . أما التفسير الثاني فيندرج في إطار التحليل النفسي : فالأمر في الواقع له علاقة بغياب الوقائع أو عدم وجود رواية تاريخية متماسكة ، ما يؤدي إلى ظهور مثل هذه الحكاية الخيالية ، بحيث تتبعها إرادة قوية وأجندة براغماتية .

ولا يمنع غياب الأصل الإثني الناس من الشعور بالانتماء الإثني أو القومي . فالحقيقة بأن اليهود أبعد ما يكونون عما يمكن توصيفهم كـ«شعب» ، وبأن الكتاب المقدس ينطوي على قدر قليل جداً من الحقيقة التاريخية ، لا يمنع في واقع الأمر أجيالاً من الإسرائيليين و/ أو اليهود من تعريف أنفسهم كأبناء وبنات الملك داود أو شمشون .

في سبعينات القرن الماضي ، أطلق المغني الإسرائيلي شلومو آرتسي ، الذي كان يومها فناناً شاباً ، وأصبح أحد أشهر وأكبر نجوم الغناء في إسرائيل ، أغنيته التي تحمل عنوان **فجأة يستيقظ رجل** (بالعبرية) ، وهي أغنية حققت نجاحاً منقطع النظير في غضون ساعات . فيما يلي الأسطر الأولى منها :

فجأة يستيقظ رجلٌ في الصباح/
يشعر بأنه أمّةٌ ، ويبدأ بالمسير/
ولكلّ شخص يلتقيه في طريقه/
يحيّيه قائلاً : «شالوم» .

إلى درجة ما ، يعبّر آرتسي في كلمات أغنيته ببراءة عن التحوّل الفجائي لليهود إلى «شعب» . غير أن آرتسي في الوقت عينه ، يُسْهم في تعزيز الأسطورة القومية الوهمية لأمّة تسعى للسلام . كان يجب أن يكون المغني الإسرائيلي قد

---

(١) بنيامين بيت هالامي : (مولود في ١٩٤٣) ، كاتب وباحث إسرائيلي يعمل أستاذاً لعلم النفس في جامعة حيفا . (المترجمة)

أدرك عندئذ أن القومية اليهودية فعلٌ توسعيٌّ عنيف على حساب الشعب الفلسطيني ، السكان الأصليين للبلاد . فهذه القومية لم تقل شالوم لأي أحد باستثناء القوى العظمى .

لا يوجد تاريخٌ يهودي

ثمة حقيقة راسخة مفادها أنه لم تُكتب فعلياً نصوصٌ حول التاريخ اليهودي بين القرن الأول وأوائل القرن التاسع عشر . وقد يكون لاستناد اليهودية إلى أسطورة تاريخية دينية علاقة ما بهذا الأمر . كذلك ، لم تشكِّل المعاينة الدقيقة للماضي اليهودي مسألةً ملحّةً في التقليد الحاخامي -ولعلّ غياب أي حاجة لمثل هذا الجهد المنهجي يفسِّر ذلك . بالنسبة لليهود أثناء العصور القديمة والعصور الوسطى ، كان الكتاب المقدّس فيه ما يكفي للإجابة عن معظم التساؤلات ذات الصلة ، والمتعلِّقة بشؤون الحياة اليومية ، والمعنى اليهودي والقدر . وكما يشرح زاند : «كان التسلسل الزمني للأحداث أمراً غريباً في زمن النفي (اليهودي) - وهي حالة من اليقظة الدائمة ، تنسجم والتوْق للحظة ظهور المسيح المنتظر .»[1] هذا الافتقار الجليّ في الاهتمام اليهودي بالتاريخ والتاريخانية والتسلسل الزمني يعتبر حيوياً لفهم الهوية السياسية اليهودية .

في ضوء العلمانية الألمانية ، والتمدّن والإعْتاق ، وبالنظر إلى تناقص سلطة الزعماء الحاخاميين ، برزت الحاجة لقضية بديلة وسط المثقفين اليهود الذين كانوا في طور النهوض : فقد تساءل اليهود المنعتقون بشأن من هم ومن أين جاءوا . كما بدأوا يفكِّرون بشأن دور اليهود داخل المجتمع الأوروبي الذي كان يشهد انفتاحاً متسارعاً .

في العام ١٨٢٠ ، نشر المؤرخ اليهودي الألماني إسحق ماركوس جوست (١٧٩٣ - ١٨٦٠) أول عمل تاريخي جدّي حول اليهود لألفي عام تقريباً ،

---

(1) The Invention of The Jewish People, Shlomo Sand, Verso 2009, pg 66

وحمل عنوان تاريخ بني إسرائيل . ولقد تفادى جوس الحقبة التوراتية ، مؤثراً أن يبدأ رحلته بمملكة يهودا ، كما جمع الرواية التاريخية لمجتمعات يهودية مختلفة حول العالم . ولقد أدرك بأن اليهود في عصره لم يشكّلوا سلسلة إثنيّة متّصلة ، كما استوعب أن بني إسرائيل من مكان لآخر كانوا مختلفين . وهكذا ، آمن بأنه لا يوجد ما يمنع اليهود من الاندماج التام ، وأنه ضمن روحيّة التنوير فإن كُلاً من اليهود والألمان سوف يديرون ظهورهم للمؤسسات الدينية القمعية ، ويشكلون أمّة صحيّة ، مبنيّة على شعور متنام بالانتماء الموجّه جغرافياً .

على الرغم من أن جوست كان مدركاً لتطوّر القومية الأوروبية ، إلا أن معاصريه اليهود لم يكونوا سعداء تماماً بقراءته الليبرالية التفاؤلية للمستقبل اليهودي . «من المؤرخ هاينريخ غريتس(١) فصاعداً ، بدأ المؤرخون اليهود يرسمون تاريخ الديانة اليهودية كتاريخ أمّة كانت مملكة ، طُردت إلى المنفى ، ثم أصبحت شعباً تائهاً ، وفي النهاية استدار هذا الشعب وعاد ثانية إلى مسقط رأسه .»(٢)

بالنسبة للفيلسوف الاشتراكي اليهودي الألماني موزس هيس ، لقد كان الأمر صراعاً عرقياً أكثر منه صراعاً طبقياً من شأنه أن يحدّد شكل أوروبا . فاقترح ، بناء على ذلك ، بأنه يتعين على اليهود أن يتأملوا إرثهم الثقافي وجذورهم الإثنية . بالنسبة لهيس ، فإن الصراع بين اليهود والأغيار نتاجُ تمايزٍ عرقي ، الأمر الذي يجعله بالتالي حتمياً .

إن الطريق الأيديولوجي من توجه هيس العنصري شبه العلمي إلى

---

(١) هاينريخ غريتس : (١٨١٧-١٨٩١) ، مؤرخ ألماني ، من أوائل المؤرخين الذين وضعوا تاريخاً شاملاً للشعب اليهودي من منظور يهودي . (المترجمة)

(٢) Ilani, Ofri, Shattering a National Mythology ، مقابلة مع شلومو زاند ، **هآرتس** ، ٢١ مارس/آذار ٢٠٠٨ ؛ انظر :

(http://www.haaretz.com/general/shattaring-a-national-mythology-1.242015).

التاريخانية الصهيونية واضح . فلو كان اليهود فعلياً كياناً عرقياً غريباً (كما رأى هيس وجابوتنسكي وآخرون) ، فمن الأفضل لهم أن يسعوا للعودة إلى موطنهم الطبيعي - إيرتس يسرائيل (أرض إسرائيل) . لكن السلسة العرقية المفترَضة لهيس لم تحظ بتأييد علميّ . وبُغية الحفاظ على الرواية الخيالية التي كانت تتبلور ، كان لا بد من تطوير آلية للإنكار المنظَّم ، وذلك للحيلولة دون تدخّل حقائق محرجة بعينها .

«بنو إسرائيل» الجدد، الكتاب المقدّس وعلم الآثار

في فلسطين ، كان اليهود الجُدد والإسرائيليون فيما بعد عازمين على تجنيد العهد القديم وتحويله إلى المدوَّنة أو مجموعة القواعد الموحِّدة الخاصة بمستقبل الشعب اليهودي . ومن شأن «تأميم» الكتاب المقدس أن يغرس في عقول اليهود الناشئة الفكرة بأنهم السلالة المباشرة لأسلافهم القدماء العظام . مع الأخذ في الاعتبار الحقيقة بأن «التأميم»كان إلى حدٍّ كبير حركة علمانية ، فقد تم تجريد الكتاب المقدس من معناه الروحي والديني . وبدلاً من ذلك ، كان يُنظر إليه كنص تاريخي يصف سلسلة «حقيقية» من الأحداث في الماضي .

من خلال الأسلاف الأبطال ، تعلّم اليهود القوميّون الجدد أن يحبّوا أنفسهم وأن يكرهوا الآخرين ، غير أنهم هذه المرة لديهم من القوة العسكرية ما يستطيعون بها أن يوقعوا ألماً عظيماً بجيرانهم . الأكثر مدعاة للقلق ، الحقيقة بأنه بدلاً من وجود كيان خارق للطبيعة (تحديداً الرب) يأمرهم بشنّ الغزوات وارتكاب المجازر بحقّ السكان الأصليين في «أرض الميعاد» ، فإنه في المشروع الإحيائي القومي اليهودي كانوا هم أنفسهم- هرتسل وجابوتنسكي ووايزمان وبن غوريون وشارون وبيريز وباراك ونتنياهو وليبرمان وغيرهم -الذين يقرّرون طرد الفلسطيني وقتله . لم يعد الربّ يقتل باسم الشعب اليهودي ، وإنما اليهود هم الذين يقتلون ، حيث يقومون بذلك باستخدام رموز يهودية تزيّن طائراتهم ودبّاباتهم ، كما يتبعون الأوامر الصادرة بالعبريّة ، لغة أسلافهم المرمَّمة حديثاً .

لقد كان الاختطاف الصهيوني للكتاب المقدَّس في الحقيقة ردّاً يائساً على الرومنطيقية الأولى في ألمانيا . على أنه بقدر ما كان الفلاسفة والشعراء والمهندسون المعماريون والفنانون الألمان في القرن التاسع عشر متحمِّسين أيديولوجياً وجماليّاً إزاء اليونان ما قبل حقبة سقراط ، إلا أنّهم كانوا يعرفون تمام المعرفة أنهم ليسوا الأبناء والبنات (البيولوجيين) للحضارة الهلنستية . ومضى القوميون اليهود بمشروعهم خطوة أبعد ، رابطين أنفسهم بصلة دم مع أجدادهم الأسطوريين ؛ وأضحت العبرية ، التي كانت فيما سبق لغة مقدَّسة ، لغة الكلام اليومي . أما الرومنطيقيون الألمان الأوائل فلم يبلغوا ذاك الحدّ .

كذلك ، كان المثقّفون الألمان أثناء القرن التاسع عشر مدركين تماماً للفرق بين أثينا والقدس . بالنسبة لهم ، كانت أثينا رمزاً للكونيّ ، فصلاً ملحمياً من الإنسانية . على العكس منها ، كانت القدس فصلاً ضخماً من البربرية القبلية ؛ تمثيلاً للإله المبتذَل ، غير الكوني ، التوحيدي ، عديم الرحمة ، قاتل الكبير والرضيع على حدّ سواء . لقد تركت لنا الحقبة الرومنطيقية الألمانية الأولى هيغل[1] ونيتشه[2] وفيخته[3] وهايديغر ، وحفنة قليلة فقط من اليهود من

(١) غيورغ هيغل : (١٧٧٠-١٨٣١) ، فيلسوف ألماني ، يعتبر أهم مؤسسي الفلسفة الألمانية المثالية ، عملت روايته التأريخية والمثالية للواقع ككل على تثوير الفلسفة الأوروبية ، كما مهدت آراءه ونظرياته الأساس لما تعرف بـ«الفلسفة القارية» ، وكانت مؤشراً سابقاً للماركسية . يعدّ هيغل الفيلسوف الأكثر تأثيراً في مجايليه في القرن التاسع عشر ، كما شكل إرثه مرجعية فلسفية أولى في القرن العشرين . (المترجمة)

(٢) فريدريك نيتشه : (١٨٤٤- ١٩٩٠) ، فيلسوف وشاعر وناقد ألماني ، غطت كتاباته النقدية مجالات شتى من بينها الدين والأخلاق والثقافة المعاصرة وفقه اللغة الكلاسيكي . يعد من أكثر الفلاسفة تأثيراً في أواخر القرن التاسع عشر ، كما ظلت كتاباته ونظرياته حاضرة في الإرث الفلسفي طوال القرن العشرين ، حيث لا يزال تأثيره بارزاً في مختلف الاتجاهات الفلسفية . (المترجمة)

(٣) يوهان فيخته : (١٧٢٠-١٨١٤) ، فيلسوف ألماني ، أحد الذين شاركوا في تأسيس الحركة الفلسفية المعروفة باسم «الفلسفة المثالية الألمانية» ، التي تطورت من الكتابات النظرية والأخلاقية لإيمانويل كانط . (المترجمة)

كارهي أنفسهم، من أبرزهم فاينغر. غير أنه لا يمكن العثور على مفكرين أيديولوجيين بارزين وسط المقدسيين. ولقد حاول بعض الباحثين اليهود الألمان، من الدرجة الثانية، التبشير بالقدس في البناء الجرماني، من بينهم هيرمان كوهين وفرانز روزنتسفيغ وإرنست بلوخ[1]، على أنّه من الواضح أنهم فشلوا في ملاحظة أن جهودهم طوت آثاراً من القدس في المسيحية، التي ازدراها الرومنطيقيون الأوائل الألمان.

وضمن جهود القوميين اليهود لبعث «القدس»، تم تجنيدُ علم الآثار لإضفاء الأساس «العلمي» الضروري على الملحمة الصهيونية، وذلك لتوحيد العصر التوراتي بلحظة الانبعاث. المثير للجدل أن اللحظة الأكثر إدهاشاً في هذا المنحى الغريب ظهرت عام ١٩٨٢، وذلك أثناء «مراسم الدفن العسكرية» لرفات شمعون بار كوخبا، وهو ثوري يهودي توفي قبل ألفي عام. فتحت إشراف الحاخام العسكري الرئيسي، أقيمت مراسم دفن متلفزة لبعض العظام المتفرقة التي تم العثور عليها في كهف بالقرب من البحر الميت. فعلياً، تم التعامل مع الرفات المشتبه بها لشخصية تعود إلى القرن الأول كما لو كانت ضحية من ضحايا الجيش الإسرائيلي - فلقد عمل الدور القومي لعلم الآثار على توطيد الماضي والحاضر، بينما تم إغفال **الغالوت** (أي المنفى).

لكنه لم يمض وقت طويل حتى انقلبت الأمور، فمع نزوع البحث الأثريّ إلى أن يصبح أكثر استقلالية عن العقيدة الصهيونية، تكشّفت حقائق مزعجة. وغدا من المستحيل اقتفاء أساس لمصداقية الروايات التوراتية في الحقائق العلمية الاستقصائية. بل إن علم الآثار يدحض تاريخانيّة الكتاب المقدَّس، فهذا الكتاب وفقاً لعلماء غير يهود مثل توماس تومسون[2] عبارة عن «مجموعة من

---

(١) إرنست بلوخ: (١٨٨٥-١٩٧٧)، فليسوف ماركسي ألماني، تأثر بهيغل وماركس. (المترجمة)

(٢) توماس تومسون (مولود في ١٩٣٩)، باحث ومنظر أميركي المولد دنماركي الجنسية، أستاذ علم اللاهوت في جامعة كوبنهاغن بين عامي ١٩٩٣ و٢٠٠٩، وهو متخصص في الدراسات التوراتية ==

النصوص الأدبية الإبداعية التي كتبها عالم لاهوتي موهوب في فترة متأخرة» .

كما يشير زاند ، فإن الرواية التوراتية القديمة تغصّ بإشارات للفلستيين[١] واللغة الآرامية والجِمال . وبحسب ما تكشف لنا التنقيبات الأثرية ، فإن الفلستيين لم يظهروا في المنطقة قبل القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، كما تظهر الآرامية بعد قرن آخر من الزمان ، في حين لم تتهادى الجمال بوجوهها البهيجة قبل القرن الثامن قبل الميلاد .كذلك ، لم يتم العثور في صحراء سيناء على أثر ذي قيمة يثبت القصة الأسطورية للخروج من مصر - فمن الواضح أن ثلاثة ملايين شخص عبري ، بين رجال ونساء وأطفال ، ساروا هناك مدة أربعين عاماً دون أن يتركوا قطعة من خبز الفطير خلفهم . أضف إلى ذلك أن القصة التوراتية لإعادة استيطان العبريين في أرض كنعان وإبادة «الأغيار» الذين كانوا يقطنون أرض الميعاد (وهي إبادة يحاكيها بنو إسرائيل الجدد بنجاح كبير) تبدو كأسطورة أخرى . فأريحا ، المدينة المحصَّنة التي تم دكّها وتسويتها بالأرض بفعل أصوات

== ودراسات العهد القديم من الكتاب المقدس . واجه اتهامات بمعاداته للسامية بسبب انتقاده تغيير الأسماء العربية في فلسطين التاريخية واستبدالها بأسماء عبرية . من أشهر أعماله كتاب بعنوان **تاريخانية الروايات البطركية** : البحث عن إبراهيم التاريخي . (المترجمة)

(١) «الفلستيون» : مصطلح يُطلق على القبائل التي استوطنت شاطئ فلسطين الجنوبي الغربي في القسم الممتد من غزة إلى يافا شمالاً ، وهم من «شعوب البحر» ، نسبة إلى مجموعة من الشعوب من البحارة الذين هاجموا الأناضول وسوريا وفلسطين وقبرص ومصر حوالي عام ١٢٠٠ قبل الميلاد . استقر الفلستيون في فلسطين منذ الألف الثاني قبل الميلاد وتعايشوا مع الكنعانيين . وقد سُمِّيت المنطقة التي احتلوها «فلستيا» ، وكانت تشمل خمس مدن ساحلية أساسية : أشدود (العاصمة) وعسقلان وغزة وعفرون وجات . ورغم أن مكان استيطانهم كان الشريط الساحلي أساساً ، فقد استوطنوا أيضاً في مدن داخلية مثل جاتكما أسسوا مدينة اللّد . (نقلاً عن **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية** - المترجمة)

الأبواق العبرية والتدخل الإلهي الخارق ، كانت مجرَّد قرية صغيرة أثناء القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

فوق هذا وذاك ، تعتبر إسرائيل نفسها انبعاثاً لمملكة داود وسليمان الضخمة . غير أن التنقيبات الأثرية في البلدة القديمة من القدس في سبعينات القرن العشرين كشفت بأن مملكة داود لم تكن سوى جيب صغير . كما أن الدليل الذي كُشف عنه ويقود إلى الملك سليمان ، وفقاً لعالم الآثار ييغال يادين (ثاني رئيس أركان للجيش الإسرائيلي) ، تمّ دحضه لاحقاً من خلال الاختبارات العلمية التحليلية باستخدام التأريخ بالكربون-١٤ .

مثل هذه الحقائق التي يمكن إثباتها علمياً أربكت الباحثين الصهيونيين . فالكتاب المقدَّس رواية خيالية ، ولا يوجد فيه الكثير مما يثبت تمجيد الشعب اليهودي في فلسطين في أية مرحلة . بل يبدو أنه نص أيديولوجي تم إعداده كي يخدم غاياتٍ اجتماعية وسياسية .

من اخترع اليهود؟

من هم اليهود؟ من أين أتوا؟ كيف حدث أنهم في مراحل تاريخية مختلفة ظهروا في العديد من الأماكن المختلفة والنائية؟

على الرغم من أن معظم اليهود المعاصرين مقتنعون تماماً بأن أسلافهم هم بنو إسرائيل التوراتيون ، الذين تم نفيهم بقسوة على أيدي الرومان ، فإنّ الحقيقة هي أن اليهود المعاصرين لا علاقه لهم ببني إسرائيل القدماء ، الذين لم يُنفوا أبداً ؛ فالمنفى الروماني مجرّد أسطورة يهودية أخرى .

يقول شلومو زاند : «بدأتُ أفتش عن دراسات بحثية تتعلق بالنفي من الأرض ، لكنني لدهشتي ، اكتشفتُ بأنه لا توجد أدبيّات حول هذا الموضوع . والسبب هو أنه لم يقم أحد بنفي ناس البلاد . فالرومان لم ينفوا الشعوب ، كما لم يكن بمقدورهم القيام بذلك حتى إن أرادوا ؛ إذ لم تكن لديهم قطارات أو شاحنات لترحيل قطاعات سكانية بأكملها . فهذا النوع من التجهيزات أو

الإمدادات اللوجستية لم تتوافر قبل القرن العشرين . من هذه النقطة ، فعلياً ، وُلد الكتاب ككُل : إدراكاً بأن المجتمع اليهودي لم يتم تشتيته كما لم يتم نفيه .»[١]

إن الفكرة بأن البحرية الإمبراطورية الرومانية تعمل على مدار الساعة لترحيل موشيل ويانكيل إلى قرطبة وطليلطة من شأنها أن تجعل اليهود يشعرون بأهميتهم ، وأنه بالإمكان ترحيلهم ، لكن المنطق البديهي يشير إلى أن الأسطول الروماني كانت لديه أشياء أكثر أهمية تشغله . والمثير أكثر هي النتيجة المنطقية : إذا كان شعب إسرائيل لم يتعرضوا للنفي ، فهذا يعني إذن أن المتحدِّرين الحقيقيين من سلالة سكان مملكة يهودا لابدّ من أنهم الفلسطينيون . عودة إلى زاند : «لا يوجد سكان يحتفظون بنقاء سلالتهم على مدى آلاف السنين ، لكن الاحتمالات بأن يكون الفلسطينيون هم أحفاد الشعب اليهودي القديم تفوق بكثير احتمالات أن نكون ، أنتَ أو أنا ، من أحفادهم . لقد عرف الصهاينة الأوائل ، حتى الثورة الفلسطينية الكبرى [١٩٣٦-١٩٣٩] ، أنه لم يحدث ثمة نفي ، وأن الفلسطينيين ينحدرون من سكان هذه الأرض . لقد عرفوا أن الفلاحين لا يتركون أراضيهم إلا إذا طُردوا منها . حتى إسحاق بن تسفي ، ثاني رئيس لإسرائيل ، كتب في العام ١٩٢٩ يقول إن الغالبية العظمى من المزارعين الفلاحين لا تعود أصولهم إلى الغزاة العرب ، وإنما قبل ذلك ، إلى المزارعين اليهود الذين كانت أعدادهم كبيرة ، وشكلوا الغالبية العظمى في تعمير الأرض .»[٢]

في كتابه ، يمضي زاند بهذه الفكرة إلى ما هو أبعد ، مشيراً إلى أنه حتى

(١) Ilani, Ofri, Shattering a National Mythology ، مقابلة مع شلومو زاند ، هآرتس ، ٢١ مارس/آذار ٢٠٠٨ ؛ انظر :

(http://www.haaretz.com/general/shattaring-a-national-mythology-1.242015).

(٢) المرجع نفسه .

اندلاع الثورة الفلسطينية الكبرى ، كان ما يوصفون بالقادة الصهاينة اليساريين ميّالين للاعتقاد بأن الفلاحين الفلسطينيين (على الأرجح في الواقع أن يكونوا يهوداً في منبتهم) سوف يندمجون في الثقافة العبرية الناشئة ، وسوف ينضمون في النهاية إلى الحركة الصهيونية . لقد اعتقد بير بوروخوف بأن « الفلاح الفلسطيني يلبس كيهودي ، كما يتصرف على شاكلة يهودي من الطبقة العاملة ، ولن يكون مختلفاً على الإطلاق عن اليهودي .»[1] هذه الفكرة تكرّر ظهورها في كتابات بن غوريون وبن تسفي ؛ فكلا الزعيمين الصهيونيين أدركا أن الثقافة الفلسطينية مشبّعة بالآثار التوراتية ، لغوياً وجغرافياً (على سبيل المثال في أسماء القرى والبلدات والأنهار والجبال) . وكلاهما ، على الأقلّ في تلك المرحلة المبكرة ، اعتبر الفلسطينيين الأصليين أقرباء إثنيّين وأشقاء محتَملين . كما نظر إلى الإسلام كـ«ديانة ديمقراطية» ودودة . بعد العام ١٩٣٦ ، عمد كل من بن غوريون وبن تسفي إلى التخفيف من وتيرة حماستهما «الثقافية التعددية» . وفيما يتعلق ببن غوريون ، فإن التطهير العرقي للفلسطينيين بدا مقبولاً أكثر بكثير .

إذا كان الفلسطينيون هم «اليهود الحقيقيون» ، فمن هم إذن أولئك الناس الذين يطلقون على أنفسهم يهوداً؟ يأتي جواب زاند بسيطاً ومعقولاً : «إن الناس لم ينتشروا ، لكن الديانة اليهودية هي التي انتشرت . لقد كانت اليهودية ديانة يمكن التحوّل إليها . وخلافاً للرأي السائد ، شهدت اليهودية في بدايات عهدها عطشاً بالغاً لتحويل الآخرين إليها .»[2] فالديانات التوحيدية ، كونها أقل تسامحاً من الديانات متعددة الآلهة ، لديها الحافز للانتشار . ولم تكن النزعة التوسعية للديانة اليهودية في حقبتها الأولى مشابهة للتحوّل إلى المسيحية فحسب ، وإنما كانت التوسعية اليهودية هي التي غرست فعلياً الحماسة للتحوّل

(١) المرجع نفسه .

(٢) المرجع نفسه .

في الفكر المسيحي الأول كما في الممارسة .

يبدو أن يهود إسبانيا ، الذين يُعتقد بصورة كبيرة أنهم تربطهم صلة دم ببني إسرائيل القدماء ، بربرٌ تحولوا إلى اليهودية[١] . يقول زاند : «سألتُ نفسي كيف حدث وأن ظهر هذا العدد الهائل من التجمعات اليهودية في إسبانيا . ثم عرفتُ أن طارق بن زياد ، القائد الأعلى للمسلمين الذي غزا إسبانيا ، كان من البربر ، ومعظم جنوده كانوا من البربر . وكانت مملكة ديهيا الكاهنة[٢] اليهودية البربرية قد هُزمت قبل خمسة عشر عاماً فقط . والحقّ أنه ثمة عدد من المصادر المسيحية التي تقول إن العديد من غزاة إسبانيا كانوا متحولين إلى اليهودية . إن جذور المجتمع اليهودي في إسبانيا هم أولئك الجنود البربر الذين تحولوا إلى الديانة اليهودية .»[٣]

وكما يتوقع المرء ، يؤيد زاند الفرضية التي تحظى بقبول كبير ، والتي تقول بأنّ الخزر المتهوِّدين يشكِّلون الأصول الرئيسية للمجتمعات اليهودية في أوروبا الشرقية ، الذين يُطلِق عليهم «أمّة اليديشية» . وحين سئل لماذا صادف وأن

---

(١) البربر أو الأمازيغ ، شعب يسكن شمال إفريقيا من واحة سيوة في مصر وحتى المحيط الأطلسي ، ومن البحر الأبيض المتوسط حتى نهر النيجر .

(٢) ديهيا : ملكة أمازيغية ، وُلدت وعاشت في سفوح جبال الأوراس بالجزائر ، وكانت مثالاً على الحنكة والدهاء وقوة الشكيمة والحزم ، استطاعت توحيد أهم القبائل الأمازيغية حولها خلال زحف جيوش المسلمين ، حيث تمكنت من إلحاق الهزيمة بهم وطاردتهم إلى أن أخرجتهم من المنطقة التي تعرف حالياً بتونس ، فانتظر القائد الإسلامي حسان بن النعمان ، الوالي الجديد على إفريقيا الشمالية ، بعض الوقت ، ثم هاجمها مجدداً بعدما وصلته التعزيزات العسكرية اللازمة ، حيث زحف إلى مملكة ديهيا وقتلها وذلك في عام ٦٩٧ للميلاد . (المترجمة)

(٣) Ilani, Ofri, Shattering a National Mythology ، مقابلة مع شلومو زاند ، هآرتس ، ٢١ مارس/آذار ٢٠٠٨ ؛ انظر :

(http://www.haaretz.com/general/shattaring-a-national-mythology-1.242015).

هؤلاء يتكلمون اليديشية – التي تعتبر إلى حد كبير لهجة ألمانية قروسطية – يجيب بقوله : «كان اليهود طبقة من الناس تعتمد على البرجوازية الألمانية في الشرق ، فتبنّوا تبعاً لذلك مفردات ألمانية .»[1]

يتركنا زاند مع النتيجة الحتمية ، وهي أن اليهود المعاصرين لا ينحدرون من أصل مشترك ، وأن أصولهم السامية أسطورة . فاليهود لا يوجد لهم أي أصل من أي نوع في فلسطين ، وبالتالي فإنّ فعل «العودة» المزعوم يجب فهمه كذريعة لغزو توسعيّ قبليّ .

وعلى الرغم من أن اليهودية ،كأيديولوجيا ، لا تنطوي على أية استمرارية عرقية ، فإن الهوية اليهودية موجهة عرقياً . فالعديد من اليهود ، حتى العلمانيون منهم ، لا يزالون ينظرون إلى الزواج المختلط باعتباره يشكِّل التهديد المطلق . أضف إلى ذلك أنه على الرغم من التحديث والعلمَنَة ، فإن الغالبية العظمى من اليهود العلمانيين لا يزالون يمارسون طقس الختان .

خلافاً لـ«المؤرخين الجدد» الآخرين ، الذين حاولوا تقويض فرضيّات التأريخ الصهيوني ، «لا يكتفي زاند بالعودة إلى العام ١٩٤٨ أو إلى بدايات الصهيونية ، وإنما إلى آلاف السنين إلى الوراء .»[2] وبخلاف «المؤرخين الجدد» الذين «يكشفون النقاب» عن حقيقة معروفة لكل رضيع فلسطيني ، أي حقيقة تعرّض الفلسطينيين للتطهير العرقي ، فإن مجمل أعمال زاند وفكره قد تفتح الباب أمام إجراء المزيد من الأبحاث في معنى القومية اليهودية ، والهوية اليهودية ، والسياسة اليهودية . وتحدِّد قراءة زاند النقدية للتاريخ اليهودي الإطارَ لنقاش معمَّق للمفهوم اليهودي للتاريخانيّة والزمانية . ومن شأن فهم هاتين الفكرتين الحاسمتين أن يوفر الأساسَ الفكري لتفكيك القوة السياسية اليهودية ، وقد يساعد اليهود في أن ينجّوا أنفسهم من خطابهم السياسي بالغ الخطورة .

---

(١) المرجع نفسه .

(٢) المرجع نفسه .

لو كان زاند على صواب ، فإن اليهود إذن ، وبدلاً من كونهم عِرْقاً ، يشكِّلون تجمعاً من العديد من الناس تم اختطافهم على يد حركة قومية مبنية على أساطير . فإذا لم يكُن اليهود عِرْقاً ولا علاقة لهم بالسامية ، فهذا يعني إذن أن «معاداة السامية» حتماً تعبير فارغ المضمون . بكلمات أخرى ، يمكن فهم نقد القومية اليهودية وحشد الضغط اليهودي والنفوذ اليهودي فقط باعتباره نقداً مشروعاً للأيديولوجيا والسياسة والممارسة .

إن الأعداء الأيديولوجيين لإسرائيل منخرطون في صراع مرير ضد الدولة وضد مؤيديها . على أنّ المسألة لا تتعلق بإسرائيل وحدها أو بجيشها أو بقيادتها . فالمسألة فعلياً حربٌ ضد أيديولوجيا إقصائية ؛ شبحٌ هيمن على الغرب ، وحَرَفَها - على الأقل بشكل مؤقت - عن نزعاتها الإنسانية وتطلّعاتها الأثينية . إنّ قتال شبح أصعب بكثير من قتال الناس ، على الأقل فقط لأن المرء قد يضطرّ أولاً إلى مقاومة آثاره داخل نفسه . إذا أردنا أن نقاتل القدس ، علينا أن نواجه القدسَ في دواخلنا .

الفصل ١٨

من البوريم إلى أيباك[(١)]

تُعدّ «اليهودية» مصطلحاً فضفاضاً نوعاً ما ؛ حيث تشير إلى ثقافة ذات أوجه كثيرة ، وجماعات متميزة عدّة ، ومعتقدات مختلفة ، ومعسكرات سياسية متعارضة ، وطبقات متباينة ، وإثنيّة متنوعة . ومع ذلك ، فإن العلاقة بين العديد من الناس الذين يعرِّفون أنفسهم بأنهم يهود مثيرةٌ إلى حدّ ما . أسعى هنا إلى اقتفاء الرابطة الجمعية الفكرية والروحية والأسطورية التي تجعل الأيديولوجيا

---

(١) «أيباك» AIPAC : لجنة العلاقات العامة الأميركية الإسرائيلية ، وهي جماعة الضغط الإسرائيلية الأبرز في الولايات المتحدة الأميركية ، حيث تعمل على الدفاع عن السياسات المؤيدة لإسرائيل ومناصرتها وتكريسها ضمن مؤسسة صنع السياسة الأميركية الرسمية وغيرها من المؤسسات المتنفذة . وصفت صحيفة **نيويورك تايمز** «أيباك» بأنها «المنظمة الأكثر أهمية التي تؤثر في علاقة أميركا بإسرائيل .» وهي بلا شك واحدة من أقوى جماعات الضغط في العاصمة واشنطن وأكثرها تنفذاً . ويرى منتقدوها أنها تعمل كعميل أو وكيل للحكومة الإسرائيلية ، محكمةً «قبضتها» على الكونغرس الأميركي . وعلى مدى تاريخها ، تورطت «أيباك» في عدد من قضايا التجسس . ففي العام ٢٠٠٥ ، أقر محلل يعمل في البنتاغون بصحة التهم المنسوبة إليه لجهة تسريب أسرار خاصة بالحكومة الأميركية لاثنين من الموظفين العاملين في «أيباك» في ما عرفت بفضيحة تجسس أيباك . وفي العام ١٩٨٤ ، أجرى مكتب التحقيقات الفدرالي تحقيقاً بشأن قيام وزير الاقتصاد الإسرائيلي دان هالبرن بتمرير وثائق حكومية أميركية سرية مسروقة إلى «أيباك» ، تتناول أسرار التجارة لعدد من الصناعات الكبرى في الولايات المتحدة التي كانت تحشد الضغط ضد منطقة التجارة الحرة الأميركية الإسرائيلية .

اليهودية هوية سياسية تنطوي على هذا القدر من القوة والنفوذ .

كما رأينا حتى الآن ، فإن اليهودية ليست تصنيفاً عرقياً أو إثنياً . كما أن اليهود لا يشكلون جماعة متجانسة . يُمكن النظر إلى اليهودية - كأيديولوجيا - من قبل البعض بوصفها استمراراً للديانة اليهودية ، على أنني أؤكد بأن هذا ليس هو واقع الحال بالضرورة . وعلى الرغم من أن الأيديولوجيا اليهودية تستلف بعض عناصر الديانة اليهودية الجوهرية ، فإن «اليهودية» ، كمبدأ أيديولوجي ، ليست هي «الديانة اليهودية» . فهي مختلفة تماماً عن الديانة اليهودية . أضف إلى ذلك ، وكما بات معروفاً لنا الآن ، فإن العديد من أولئك الذين يتباهون بتعريف أنفسهم كيهود لا يعرفون سوى القليل جداً عن الديانة اليهودية . فالعديد منهم ملحدون أو لا دينيون ، وقد يعارضون علناً الديانة اليهودية أو أية ديانة أخرى . بيد أن العديد من هؤلاء اليهود أيضاً يصرّون على هويتهم اليهودية ، وتراهم شديدي الاعتزاز بها . إن معارضة الديانة اليهودية تشمل كما هو واضح الصهيونية (على الأقل النسخة الأولى منها) ، لكنها تشكّل الأساس أيضاً لجزء كبير من مناهضة الصهيونية الاشتراكية اليهودية ، كما رأينا آنفاً من خلال نماذج مثل جوليا بارد .

ما الذي يشكّل اليهودية؟ أهو شكل جديد من الدين ، أم أيديولوجيا ما ، أم مجرد حالة ذهنية؟

فلو كانت اليهودية ديانة فعلياً ، فإن الأسئلة التي لابدّ من طرحها هي : ما نوع هذا الدين؟ ما الذي يستتبع عنه؟ بماذا يؤمن أتباعه؟ هل من الممكن أن يتطلّق المرء منه كما يستطيع المرء الارتداد عن الإسلام أو المسيحية؟

إذا كانت اليهودية أيديولوجيا ، فإنّ الأسئلة التي تطرح عندئذ هي : ما الذي تمثّله هذه الأيديولوجيا؟ هل تشكّل طرحاً أو خطاباً؟ أهو طرحٌ عظيم؟ هل تصوغ نظاماً عالمياً جديداً؟ هل تسعى إلى السلام أم إلى العنف؟ هل تحمل رسالةً عالميةً للإنسانية أم هي تجلٍّ لبعض التعاليم أو الوصايا القبلية؟

وإذا كانت اليهودية حالة ذهنية أو عقلية ، فإن السؤال الذي يمكن أن يُطرح

هو ما إذا كانت منطقية أم غير منطقية . هل تقع ضمن ما هو قابل للتعبير عنه أو ما لا يمكن التعبير عنه؟

ثمّة احتمال بأن تكون اليهودية هجيناً غريباً - فقد تكون كل تلك الأشياء دفعةً واحدة (أي ديانة ، وأيديولوجيا ، وحالة ذهنية) . وقد لا تكون أياً من هذه أيضاً .

ديانة الهولوكوست

«يشعياهو ليبوفيتش ، الفيلسوف الذي كان يهودياً أرثوذكسياً ملتزماً ، قال لي ذات مرة : لقد ماتت الديانة اليهودية قبل ٢٠٠ عام . اليوم ، لا يوجد شيء يوحِّد اليهود حول العالم بخلاف الهولوكوست .» **ماذا تتذكر؟ كيف تتذكر؟يوري أفنيري١٩/٣/٢٠٠٥** .[١]

لقد كان البروفيسور يشعياهو ليبوفيتش ، وهو فيلسوف لاتفي المولد يعمل في الجامعة العبرية ، أول من أشار إلى أنّ الهولوكوست قد أصبحت الدين اليهودي الجديد . وكان الفيلسوف الإسرائيلي آدي أوفير قد أشار أيضاً[٢] إلى أن «الهولوكوست» ، وبعيداً عن كونها مجرد رواية تاريخية ، تحتوي على العديد من العناصر الدينية الأساسية . ففيها كهَنة (مثل سيمون وزنتال[٣] ، إيلي

---

(1) (http://www.gush-shalom.org/archives/article348.html).

(2) (http://www.tikkun.org/article.php/20090617074540771).

(٣) سيمون وزنتال : (١٩٠٨- ٢٠٠٥) يهودي نمساوي ، أحد الناجين من «الهولوكوست» ، واشتهر بعد الحرب العالمية الثانية بكونه «صياد النازيين» ، حيث كان يلاحق النازيين الفارين لمحاكمتهم بتهمة ارتكاب جرائم ضد الإنسانية . بعض الكتاب ، مثل الصحفي البريطاني غاي والترز والمؤرخ الإسرائيلي توم سيغيف ، وصفوا روزنتال بـ«الكذاب» وأنه تعمد «فبركة» أجزاء كثيرة من سيرة حياته . (المترجمة)

فيزيل[1] ، ديبورا ليبشتات[2]) ، وأنبياء (شيمون بيريز ، بنيامين نتنياهو ، وأولئك الذين يحذرون من الإبادة الإيرانية القادمة لليهود) . وفيها أيضاً وصايا وتعاليم (مثل «لن يحدث ثانية أبداً»[3]) ، وطقوس (المناسبات التذكارية ، والحج إلى معسكر اعتقال أوشفيتز ، إلخ) . كما تضمّ نظاماً رمزياً حصرياً مكرّساً (مثل الكابو[4] ،

(١) إيلي فيزيل : (مولود في ١٩٢٨) : كاتب وأستاذ جامعي وناشط سياسي أميركي يهودي روماني المولد ، أحد الناجين من «الهولوكوست» . عام ١٩٨٦ ، نال جائزة نوبل للسلام . في إبريل/ نيسان ٢٠١٠ ، نشر فيزيل إعلاناً على مساحة صفحة كاملة في صحيفة نيويورك تايمز الأميركية ، وفي ثلاث صحف أخرى ، أكد فيه ما وصفه بالارتباط اليهودي القوي بمدينة القدس ، منتقداً إدارة أوباما لممارستها ضغوطاً على رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو لوقف الاستيطان اليهودي في القدس الشرقية . (المترجمة)

(٢) ديبورا ليبشتات : (مولودة في ١٩٤٧) ، مؤرخة أميركية ، تعتبر من عتاة المؤرخين الأميركيين الصهاينة . من أشهر مؤلفاتها كتاب **إنكار الهولوكوست** ، عملت مستشارة لمتحف الهولوكوست التذكاري في الولايات المتحدة . (المترجمة)

(٣) «لن يحدث ثانية أبداً» NeverAgain : شعار «رابطة الدفاع اليهودية» ، وهي منظمة يهودية هدفها المعلن هو «حماية اليهود من معاداة السامية بكل الوسائل اللازمة» . تأسست الرابطة في نيويورك عام ١٩٦٨ على يد الحاخام اليهودي المتطرف مائير كاهانا ، مؤسس حزب «كاخ» اليميني في إسرائيل . يقترن شعار «لن يحدث ثانية أبداً» بالهولوكوست ، أو «المحرقة» النازية ضد اليهود ، على اعتبار أن اليهود (الناجين) لن يسمحوا بتكرار ما حصل معهم ثانية ، بيد أن هذا الشعار ينطوي على معانٍ عنصرية ، إقصائية ، تجنح إلى إلصاق تهمة «معاداة السامية» بأي شخص أو جهة تتعرض لإسرائيل بالنقد ، كما لو أن نقد الكيان الاحتلالي أشبه بارتكاب هولوكوست ثانية! (المترجمة)

(٤) كابو : أحد السجناء في معسكر الاعتقال النازي ، يتم تكليفه من وحدات إس إس أو «الشوتزشتافل» للإشراف على أعمال السخرة التي يقوم بها المعتقلون ، بحيث يكون «الكابو» ، الذي قد يكون يهودياً ، بمنزلة حلقة الوصل بين الضباط الألمان والمساجين في معسكرات الاعتقال التي كانت تُدار بنوع من الإدارة الذاتية . وكان الكابو يتعمد إظهار القسوة إزاء المساجين ، حتى وإن كانوا يهوداً مثله ، كي يحظى برضا الألمان . (المترجمة)

وغرف الغاز، والمداخن، والرماد، والأحذية، وشخصية الـ ميزلمان[1]، إلخ.) كذلك، يوجد فيها محفل، ألا وهو ياد فاشيم[2]، بالإضافة إلى مزارات - متاحف الهولوكوست - في العديد من العواصم العالمية. ويتم تكريس ديانة الهولوكوست كذلك من خلال شبكة مالية عالمية ضخمة، وهي ما يطلق عليها الكاتب نورمان فنكلستين بـ«صناعة الهولوكوست»، علاوة على مؤسسات مثل مؤسسة الهولوكوست التعليمية. هذه الديانة الجديدة متماسكة ومحكمَة بما يكفي لتعريف «كفّارها» (أي ناكري المحرقة)، كما أنها قوية بما يكفي لمقاضاتهم (من خلال القوانين المتعلقة بإنكار المحرقة وخطاب الكراهية).

استغرق مني الأمر سنوات عديدة كي أفهم أن الهولوكوست، التي تشكل

---

(١) ميزلمان: معناها «مسلم» بالألمانية، وهو مصطلح «تحقيري» كان يستخدم لوصف نزلاء معسكرات الاعتقال في ألمانيا النازية ممن يعانون من أقصى درجات الإعياء والوهن والجوع، حيث يقفون على حافة الموت. ومن غير المعروف تماماً سبب استخدام صفة «مسلم» لوصف هؤلاء السجناء الذين تفصلهم عن الموت شعرة. بعض المصادر تفيد بأن الوصف له علاقة بعدم قدرة السجين في هذه الحالة على الوقوف منتصباً على قدمية، بسبب الهزال والإنهاك التام، حيث يظل في وضعية الجلوس، ما يذكر بوضعية «المسلم» أثناء الصلاة. لكن عبد الوهاب المسيري في **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية** يشير إلى أن وصف «مسلم» تعكس نظرة العقلية الغربية إلى ضحاياها، التي ترى فيهم الآخر «والآخر منذ حروب الفرنجة هو المسلم»، إذ إن العقل الغربي في العصور الوسطى كان يربط بين المسلمين واليهود. (المترجمة)

(٢) ياد فاشيم: هو «النصب التذكاري» الرسمي الذي أقامته إسرائيل لتخليد ضحايا الهولوكوست، أسسته في العام ١٩٥٣ بموجب قرار من الكنيست الإسرائيلي، ليكون بمنزلة نصب ومتحف ومركز أبحاث يضم كل الوثائق المتعلقة بأحداث **الهولوكوست**. يقع ياد فاشيم على «جبل هرتسل» في القدس. كلمة «ياد» معناه «نصب» أما «فاشيم» فهي «اسم»، حيث اختير «ياد فاشيم» من **سفر أشعياء** في «العهد القديم» (إصحاح ٥٦، آية ٥)، وفيها: «إني أعطيهم في بيتي وفي أسواري نصباً واسماً أفضل من البنين والبنات. أعطيهم اسما أبدياً لا ينقطع». (المترجمة)

العقيدة الجوهرية في الإيمان اليهودي المعاصر ، ليست رواية تاريخية ، ذلك أن الروايات التاريخية لا تحتاج إلى حماية القانون والسياسيين . في لحظة معينة من التاريخ ، تم إعطاء فصل مريع من تاريخ البشرية مكانة ما وراء تاريخية . فتمت المصادقة على «حقيقيّتها» بقوانين صارمة ومشدَّدة ، كما تمّ تأمين حُجّتها أو منطقيّتها من خلال مؤسسات اجتماعية وسياسية .

من الواضح أن ديانة الهولوكوست متمحورة يهودياً حتى النخاع ؛ حيث تحدِّد سبب الوجود اليهودي . بالنسبة لليهود الصهاينة ، فإنها تشير إلى إنهاك أو إعياء تام للدياسبورا ، كما تنظر إلى غير اليهودي (الغوي) باعتباره قاتلاً محتملاً منفلتاً من عقاله . هذه الديانة اليهودية الجديدة تنادي بالانتقام . وقد تكون فعلياً الديانة الأكثر شراً التي عرفها الإنسان ، لأنها باسم المعاناة اليهودية ، تصْدر رخصةً بالقتل ، والتدمير ، وشنّ هجوم نووي ، والإبادة ، والسلب ، والتطهير العرقي . لقد حوّلت الانتقام إلى قيمة غربية مقبولة .

وكان نقّاد مفهوم «ديانة الهولوكوست» قد لفتوا إلى أنه على الرغم من أنّ تبجيل الهولوكوست ينطوي على العديد من السمات المميِّزة للدين المنظَّم ، إلا أنها لم تكرِّس إلهاً خارجياً يمكن عبادته ، وهذه وجهة نظر أختلف معها تماماً : فديانة الهولوكوست تنطوي على جوهر الرؤية العالمية الديمقراطية الليبرالية ، فهي تقدم شكلاً جديداً من العبادة ، بعدما حوَّلت حبّ الذات إلى معتقد دوغماتي ، يعبد التابع الملتزم فيه نفسه أو نفسها . في الدين الجديد ، بدلاً من يهوه القديم ، فإن ما يعبده اليهود هو «اليهودي» : وهو ناج من الإبادة الجماعية النهائية ، يتسم بالشجاعة والذكاء ، حيث نهض من الرماد ، وخطا نحو بداية جديدة .

إلى حدٍّ ما ، تشير ديانة الهولوكوست إلى تخلّي اليهودية أخيراً عن التوحيد ، ذلك أن كل يهودي هو إله صغير محتمل ؛ فأبراهام فوكسمان[1] هو إله

---

(١) أبراهام فوكسمان : (مولود في ١٩٤٠) ، أميركي صهيوني سوفياتي المولد ، رئيس رابطة مكافحة التشهير ، وهي منظمة يهودية صهيونية مقرها الولايات المتحدة الأميركية ، تدعم إسرائيل . ==

مكافحة التشهير ، وآلان غرينسبان إله «الاقتصاد الجيد» ، وميلتون فريدمان إله «الأسواق الحرة» ، ولورد غولدسميث[1] إله «الضوء الأخضر» ، واللورد ليفي إله جمع الأموال ، وبول وُلفُويتس إله «التدّخل الأخلاقي» الأميركي . وتعتبر منظمة «أيباك» (لجنة العلاقات العامة الأميركية الإسرائيلية) بمنزلة جبل الأوليمب[2] الأميركي ، حيث يتوافَد إليه البشر الذين يتم انتخابهم في الولايات المتحدة

= تحرص الرابطة على رصد كل ما تنشره وسائل الإعلام عن الكيان الاحتلالي ، خاصة في العالم العربي ، وتصدر تقارير ونشرات دورية في هذا الشأن ترفعها إلى الساسة الأميركيين . وكان فوكسمان قد وضع كتاباً بعنوان **الأكاذيب الأكثر قتلاً : اللوبي الإسرائيلي وأسطورة التحكم اليهودي** ، يرد فيه على كتاب جون ميرشايمر وستيفن والت : **اللوبي الإسرائيلي والسياسة الخارجية الأميركية** ، وهو الكتاب الذي يقدم فيه كل من ميرشايمر ووالت ما وصف بأول «فضح» تحليلي من نوعه لدور اللوبي الإسرائيلي في رسم وتوجيه السياسية الأميركية . وكما هو متوقع ، سدد فوكسمان في كتابه تهمة «معاداة السامية» لكل من ينتقد إسرائيل ، زاعماً بأن تعاطف الأميركيين مع إسرائيل أصيل وحقيقي وليس ناجماً عن تأثير اللوبي الإسرائيلي أو المنظمات اليهودية في الولايات المتحدة . (المترجمة)

(١) بيتر هنري غولدسميث (لورد غولدسميث) : (مولود في ١٩٥٠) ، سياسي بريطاني تولى منصب النائب العام لإنجلترا وويلز قبل أن يضطر إلى تقديم استقالته في يونيو/حزيران ٢٠٠٧ في ذات اليوم الذي تنحى فيه رئيس الوزراء في حينه توني بلير عن منصبه . شكلت «الاستشارة القانونية» التي قدمها غولدسميث للحكومة البريطانية حول شرعية غزو العراق (٢٠٠٣) جدلاً سياسياً ، مع ارتباط اسم السياسي البريطاني ، المحسوب على الجماعات الصهيونية اليهودية والذي تربطه علاقات جيدة باليمين المحافظ الأميركي ، بما بات يوصف بـ«إعطاء الضوء الأخضر» لشن الحرب على العراق ، حيث كان غولدسميث وفي استشارة أخيرة رفعها للحكومة البريطانية في ١٧ مارس/آذار ٢٠٠٣ ، قد أشار بأن استخدام القوة في العراق قانوني . (المترجمة)

(٢) جبل الأوليمب (أوليمبس) : هو أعلى جبل في اليونان ، يكتسب أهميته التاريخية والرمزية كونه موطن الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية . (المترجمة)

يستجدون الرحمة والمغفرة كونهم أغياراً ، كما يطلبون ما تيسّر من المال .

وتعدّ ديانة الهولوكوست المرحلة الحاسمة والأخيرة في الديالكتيك اليهودي ؛ حيث تشكّل نهايةَ التاريخ اليهودي ، ذلك أنها أعمق وأصدق شكل من أشكال «حبّ الذات» . فبدلاً من الحاجة لإله مجرَّد لتصنيف اليهود باعتبارهم «الشعب المختار» ، يعمد اليهود في ديانة الهولوكوست إلى إقصاء الوسيط الإلهي ، مختارين أنفسهم ببساطة . وتتجاوز سياسة الهوية اليهودية مفهوم التاريخ -الرب هو سيد المراسم والطقوس . فالإله اليهودي الجديد ، أي «الإنسان اليهودي» لا يمكن أن يخضع لأية حادثة بشرية عرضية أو غير متوقعة . وبالتالي ، تتم حماية ديانة الهولوكوست بالقوانين ، بينما تتم مناقشة كل رواية تاريخية أخرى علناً من قبل المؤرخين والمثقفين والناس العاديين ؛ حيث تطرح الهولوكوست نفسها كحقيقة أزليّة تتخطى الخطاب النقدي .

عدد غير قليل من الباحثين اليهود في إسرائيل وفي الخارج يتقبلون ملاحظة ليبوفيتش ؛ من بينهم مارك إليس ، وهو عالم لاهوتي يهودي يتمتع ببصيرة كاشفة في ما يتعلق بديالكتيك الدين الجديد . يقول إليس إن «لاهوت الهولوكوست ينطوي على ثلاث تيمات موجودة في سياق التوتر الديالكتيكي : المعاناة والتمكين ، البراءة والخلاص ، الخصوصية والتطبيع[١، ٢] .»

---

(١) ليس المقصود بـ«التطبيع» هنا المصطلح السياسي الذي راج بعد توقيع اتفاقيات السلام الإسرائيلية العربية ، لجهة محاولات جعل العلاقات بين دولة الاحتلال الإسرائيلي وشعوب المنطقة العربية طبيعية . يستخدم «التطبيع» في الأدبيات الصهيونية للإشارة إلى «الشخصية اليهودية» ، وهو مصطلح ظهر في أوروبا في القرن الـ١٨ ، حيث إنّ «تطبيع» اليهود كان يعني دمجهم في المجتمعات الأوروبية التي كانوا يعيشون فيها ، وصبغهم بصبغتها القومية . (المترجمة)

(2) Ellis Marc H., Beyond Innocence and Redemption: Confronting The Holocaust and Israeli Power: Creating a Moral Future for the Jewish People, San Francisco, Harper & Row, 1990, P. ???

على الرغم من أن ديانة الهولوكوست لم تستبدل الديانة اليهودية ، فقد منحت «اليهودية» - كأيديولوجيا - معنى جديداً ؛ إذ تطرح رواية يهودية حديثة ، بحيث تضع الرعيّة اليهوديضمن مشروع يهودي . وتراها تعطي اليهود دوراً مركزياً داخل عالمهم الخاص . كل من «المعذَّب» و«البريء» يسيران باتجاه «الخلاص» و«التمكين» ، حيث يكون الرب خارج اللعبة هنا ، فلقد تم فصْله ، بعدما فشل في مهمّته التاريخية . ففي النهاية ، لم يكن موجوداً هناك لإنقاذ اليهود . في الدين الجديد ، يعمد «اليهودي» ، بوصفه الإله اليهودي الجديد ، إلى تخليص نفسه أو نفسها .

ويعمل أتباع ديانة الهولوكوست من اليهود على جعل شرط وجودهم مثالياً ، ومن ثم يعمدون إلى إقامة إطار عمل لصراع مستقبلي باتّجاه الاعتراف . وتمنح كلُّ «كنائس» الهولوكوست الثلاث التالية اليهودَ دوراً رئيسياً مع بعض النتائج العالمية :

بالنسبة لأتباع الديانة الجديدة من الصهاينة ، تبدو النتائج طويلة الأمد نسبياً ، فهي موجودة لترحيل مجمل يهود العالم إلى «صهيون» على حساب الشعب الفلسطيني ، بوصفهم السكان الأصليين للبلاد .

وفيما يتعلق بالماركسيين اليهود ، فإن المشروع أكثر تعقيداً بعض الشيء . بالنسبة لهم ، فإن الخلاص يعني بناء نظام عالميّ جديد ، وتحديداً جنة اشتراكية ، عالم يخضع لسيطرة سياسة دوغماتية للطبقة العاملة ، يصادف ألا يشكِّل اليهود فيها سوى أقلية واحدة من بين أقليات عدّة .

أما بالنسبة لليهود ذوي النزعة الإنسانية ، فيرون أنه يتعين على اليهود أن يضعوا أنفسهم في طليعة الصراع ضد العنصرية والقمع والشر عموماً . (على الرغم من أن الفكرة الأخيرة تبدو واعدة ، إلا أنها إشكالية في واقع الأمر . ففي نظامنا العالمي الحالي ، يحدث أن تكون إسرائيل والولايات المتحدة من بين أبرز الجهات القمعية . والتطلُّع بأن يتصدّر اليهود الصراع الإنساني من شأنه أنْ يضعهم في صراع ضد أشقائهم والقوة العظمى التي تساندهم .)

كما يتبيّن لنا ، تعمل الهولوكوست كوسيلة أو أداة أيديولوجية ؛ حيث تزوّد تابعها باللوغوس . على صعيد الوعي ، تقترح رؤيةً تحليليةً محضة للماضي والحاضر ، لكنّها لا تقف عند ذلك - إذ تحدِّد أيضاً الصراع الآتي ، فتطرح رؤيةً لمستقبل يهودي . ومع ذلك ، وكنتيجة للأمر ، فإنها تغذّي اللاوعي لدى الرعيّة اليهودي بأقصى شكل من أشكال القلق : القضاء على اليهود .

لا حاجة بنا إلى القول إنّ مجموعةً من الأفكار التي تحفِّز العقلَ الواعي (الأيديولوجيا) وتوجِّه اللاوعي (الروح) تشكِّل وصفةً ممتازةً لدين رابح . هذا الرابط البنيوي للأيديولوجيا والروح يعدّ أساسياً للتقليد اليهودي . إنّ الرابط بين الوضوح القانوني للهالاخاه[1] (الشريعة اليهودية ، أي الأيديولوجيا) والطبيعة الغامضة ليهوه بالإضافة إلى تعاليم القبالاه[2] (أي الروح) يجعل اليهودية وحدة متكاملة ، عالماً بحد ذاتها . وتقوم البلشفية -حركة الجماهير لا النظرية السياسية-على البناء نفسه ، في هذه الحالة وضوح المادية شبه العلمية إلى جانب الخوف من الشهية الرأسمالية . وتنسجمُ الأيديولوجيا المحافظة الجديدة أيضاً مع البناء الجوهري ذاته ، بحيث تحصر الرعيّة أو الشخص في الهوّة بين

---

(١) الهالاخاه : هي مجموعة القوانين الدينية التي تشكل الشريعة اليهودية ، حيث تشمل التعاليم التوراتية ، ثم ألحقت بها تعاليم التلمود والوصايا الحاخامية ، بالإضافة إلى التقاليد والعادات والطقوس الدينية . (المترجمة)

(٢) القبالاه : هي مجموعة التفسيرات والتأويلات الباطنية والصوفية عند اليهود . الاسم مشتق من كلمة عبرية تعني التواتر أو القبول أو التقبل أو ما تلقاه المرء من السلف ، أي أنها تشير إلى «التقاليد والتراث» أو «التقليد المتوارث» . وكان يُقصد بالكلمة أصلاً تراث اليهودية الشفوي المتناقل المعروف باسم «الشريعة الشفوية» ، ثم أصبحت الكلمة تعني ، من أواخر القرن الثاني عشر ، «أشكال التصوف والعلم الحاخامي المتطورة» . (نقلاً عن **موسوعة اليهود واليهود والصهيونية**- المترجمة) .

الوضوح الشرعي المزعوم لأسلحة الدمار الشامل والخوف الذي يفوق الوصف من «الإرهاب القادم» .

هذا الرابط بين الوعي واللاوعي يستحضر في الذهن المفهوم اللاكاني (نسبة إلى عالم النفس الفرنسي جاك لاكان) لما هو «حقيقي» ، أو ذاك الذي لا يمكن صياغته رمزياً (أيّ التعبير عنه بالكلمات) . إن الحقيقي هو الذي لا يمكن التعبير عنه ، المتعذّر بلوغه أو صعب المنال . بكلمات الفيلسوف والناقد السلوفيني سلافوي جيجك : «إن الحقيقي مستحيل» ، «الحقيقي هو الصدمة» . ومع ذلك ، تصوغ هذه الصدمة النظام الرمزي كما تشكّل حقيقتنا .

تلتقي ديانة الهولوكوست والنموذج اللاكاني بدقة . فجوهرُها الروحي متجذّرٌ بعمق في نطاق المتعذّر وصفه ؛ إذ تعلّمنا مواعظها أن نرى التهديدَ في كل شيء . غير أن الصدمة ، التي هي الحكاية المركزية ، مقدّسة . فهي محمية ، لا يمكن المساس بها ، تماماً كالحلم ؛ إذ تستطيع أن تستعيد حلمك ، لكنك لا تستطيع أن تغيّره .

الأمر المثير للاهتمام ، هو أن ديانة الهولوكوست تمتد إلى ما هو أبعد بكثير من الخطاب اليهودي الداخلي . في الواقع ، تعمل كإرسالية ، وليس فقط لأن أضرحتها موزعة في أماكن بعيدة وكثيرة ، فالهولوكوست يتم التماسها حالياً كذريعة محتمَلة لتوجيه ضربة نووية لإيران . ويبدو أن كلاً من القادة الإسرائيليين وجماعات الضغط اليهودية حول العالم يفسّرون مشروع الطاقة النووية الإيراني كإبادة يهودية في طور الإعداد . من الواضح أن ديانة الهولوكوست تخدمُ الخطاب السياسي اليهودي لكل من اليمين واليسار ، لكنها تناسب «الأغيار» أيضاً ، خاصة أولئك الذين يدعون إلى القتل باسم «الحرية» والديمقراطية و«التدخل الأخلاقي» .

إلى حدٍّ ما ، كلّنا خاضعون لهذا الدين ؛ بعضنا متعبِّدون ، وآخرون خاضعون فقط لسلطته . وأولئك الذين يسعون إلى مراجعة تاريخ الهولوكوست يكونون عرضةً لمعاملة سيئة من كهنة هذه الديانة . فديانة الهولوكوست تشكّل

الشيء «الحقيقي» الغربي . ومن غير المسموح لنا أن نقربها ، كما لا يسمح لنا بتحليلها . على غرار بني إسرائيل القدماء الذين تعين عليهم أن يطيعوا الإله دون أن يطرحوا أسئلة عنه ، ترانا نسير نحو الفراغ .

هذا وينخرط العلماء والباحثون الذين يدرسون الهولوكوست كديانة (فيما يتعلق بعلم اللاهوت ، والأيديولوجيا والتاريخانية) في الصياغات البنيوية بصفة أساسية : معانيها وصياغتها البلاغية وتأويلها التاريخي . البعض يبحثون عن الديالكتيك اللاهوتي (مارك إليس) ، في حين يعمل آخرون على صياغة الوصايا (آدي عوفير) ؛ وهناك البعض ممن يتحققون من نشوئها وتطوّرها التاريخي ، بينما يفضح آخرون بنيتها التحتية المالية (نورمان فينكلستين) . معظمهم منشغلون في معاينة قائمة أحداث وقعت في الفترة من ١٩٣٣ إلى ١٩٤٥ ، على أن أياً من علماء ديانة الهولوكوست لم ينفق ذرة جهد في دراسة دور الهولوكوست في الديمومة اليهودية الراسخة . من هذه النقطة فصاعداً ، سوف أؤكد أن ديانة الهولوكوست كانت قائمة قبل فترة طويلة من «الحلّ النهائي» (١٩٤٢)[1] ، وقبل وقت طويل من «ليلة البلور» (١٩٣٨)[2] ، وقوانين

(١) الحل النهائي : هي الخطة التي وضعتها ألمانية النازية لما يوصف بـ«القضاء المنهجي» على يهود أوروبا أثناء الحرب العالمية الثانية ، والتي قادت إلى ما عرف بالهولوكوست . وكان الزعيم النازي الألماني أدولف هتلر قد وصف هذه الخطة بـ«الحل النهائي للمشكلة اليهودية» ، حيث أشرف على وضع الخطة وتنفيذها هاينرخ هيملر ، أحد أبرز القادة العسكريين في ألمانيا النازية ، قائد وحدة القوات الخاصة الألمانية الـ«إس إس» ، ورئيس البوليس السري الألماني المعروف بالغستابو . (المترجمة)

(٢) ليلة البلور ، أو ليلة الزجاج المهشّم : هي سلسلة من الهجمات المنسّقة التي تعرض لها اليهود ومصالحهم وممتلكاتهم في ألمانيا النازية وأجزاء من النمسا عشية ٩- ١٠ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٣٨ والتي نفذها أفراد من «كتيبة العاصفة» ، الجناح شبه العسكري للحزب النازي الألماني ، ومدنيون ألمان . تركت الهجمات الشوارع مغطاة بالزجاج المهشّم من نوافذ المحلات والمباني التي يملكها اليهود . جاءت هذه الاعتداءات تحت ذريعة مقتل الدبلوماسي الألماني إرنست فوم رات في العاصمة الفرنسية باريس على يد هيرشل غرينزبان ، وهو يهودي ألماني بولندي المولد . (المترجمة)

نورمبيرغ (١٩٣٥)[1] ، بل وحتى قبل ولادة هتلر (١٨٨٩) . فعلى الأرجح أن ديانة الهولوكوست قديمةٌ قِدم اليهود أنفسهم .

نماذج يهودية

يخضع الوجود اليهودي لخوف مُسبق ، وهي ظاهرة سككْتُ لها آنفاً مصطلح «متلازمة إجهاد ما قبل الصدمة» . خلافاً لاضطراب إجهاد ما بعد الصدمة ، الذي يكون فيه الإجهاد ردّ فعل مباشراً إزاء حدث وقع أو قد يكون وقع في الماضي ، فإنّ الصدمة المستشعَرَة في حالة «متلازمة إجهاد ما قبل الصدمة» مبنيّة على مشهد متخيَّل قائم في مستقبل افتراضي أو خيالي - بمعنى آخر ، هي مبنية على حدث لم يقع أبداً . في «متلازمة إجهاد ما قبل الصدمة» ، يستبق وهمُ الإرهاب المستقبلي الظروفَ التي تصوغ الواقع الحالي . من منظور تاريخي ، يمكن فهم متلازمة إجهاد ما قبل الصدمة كنبوءة ذاتية التحقّق ؛ إذ يتطور الخوف الذي تم تضخيمه ليتحوّل إلى حقيقة تسبِّب صدمة .

لقد سيطر ديالكتيك الخوف على العقلية والوجود اليهوديين وقتاً أطول بكثير مما نحن على استعداد للاعتراف به ؛ ذلك أنه ، وبينما عمل الزعماء الإثنيون اليهود على استغلال الأمر سياسياً منذ الأيام الأولى للإعتاق ، إلا أنه أقدم بكثير من التاريخ اليهودي الحديث . في الحقيقة ، إنه إرث **التناخ** (الكتاب

---

(١) قوانين نورمبيرغ : هي قوانين «معادية للسامية» أقرتها ألمانيا النازية في اجتماع نورمبيرغ للحزب النازي . فبعد تولي هتلر السلطة عام ١٩٣٣ ، أضحت النازية - الأيديولوجيا الرسمية - متعاطية مع معاداة السامية كشكل من أشكال «العنصرية العلمية» . ولقد صنفت قوانين نورمبيرغ الناس الذين لديهم أربعة أجداد ألمان بأنهم «ألمان أو من صلة الدم» ، في حين تم تصنيف الناس كيهود إذا كانوا ينحدرون من ثلاثة أو أربعة أجداد يهود . إذا كان الشخص له جد يهودي أو جدان يهوديان ، كان يوصف بـ«الهجين» . هذه القوانين حرمت اليهود من المواطنة الألمانية ، كما حظرت الزواج بين اليهود والألمان الآخرين . (المترجمة)

المقدّس العبري) ، الموجود كي يُحدث لدى اليهود حالة ما قبل الصدمة . ويحدّد العهد القديم اليهودي أطراً ثنائية : البراءة/المعاناة والاضطهاد/التمكين . ويبدو الخوف من إبادة اليهود متغلغلاً في الروح والثقافة اليهوديتين .

ها هو ذا عالم الأنثروبولوجيا الأميركي غلِن بومان ، المتخصص في دراسة الهويات في المنفى ، يقدّم تصوّراً حيوياً في موضوع الخوف ومساهمته في سياسة الهوية ، إذ يقول : «تعدّ الخصومة أو العداء مسألةً جوهريةً في عملية التعلق المفرط - حدّ الهوس - بالهوية ، لأن الشخص يميل بالضبط إلى التحدّث عن ماهيّة المرء أو ما هو عليه أحدهم في اللحظة التي يبدو فيها مهدَّداً . أبدأُ بوصف نفسي بأنني شخصٌ كذا وكذا ، أو أنني أمثّل مجتمعاً ما متخيَّلاً ، وذلك في اللحظة التي يبدو فيها أن شيئاً ما يهدِّد بإنكار أو رفض الكائن الذي أتكلّم باسمه . تدخلُ شروط الهوية حيّز الاستعمال في اللحظة ذاتها تماماً التي يشعر فيها المرء ، لسبب ما ، أنها تدلّ على شخص أو كيان يتعيّن على المرء أن يناضل للدفاع عنه .»(١)

يؤكد بومان أن الخوف هو الذي يبلوِر مفهوم الهوية . على أنه ما إن يبلغ الخوف مرحلة إجهاد جمعي ناجم عن ما قبل الصدمة ، حتى تعيد الهوية صياغة ذاتها .

لقد كان الكتاب المقدّس هو الذي وضع اليهود في الأصل في حالة متلازمة إجهاد ما قبل الصدمة ، كما أطلق الخوفَ من تعرض اليهود للإبادة ، إنه الكتاب المقدّس الذي يرسم العالَم اليهودي ككارثة تنتظر الحدوث . على نحو متزايد ، بدأ علماء الكتاب المقدس يناقشون ويفنِّدون تاريخانيةَ النص الديني . على

---

(1) Bowman, Glenn, Migrant Labour: Constructing Homeland in the Exilic Imagination , Anthropological Theory II:4, December 2002, pp. 447 - 68 –Theory pologic Constructing Homeland in the Exilic Imagination.

سبيل المثال ، يحاجج نيلز ليمكي[١] في كتابه **الكنعانيون وأرضهم** بأن الكتاب المقدس ، في معظمه ، كُتب بعد النفي البابلي ، وأن تلك الكتابات تعدِّل (وإلى حدٍّ كبير تخترع) تاريخاً سابقاً لبني إسرائيل ، وذلك كي تعكس وتؤكِّد تجارب أولئك العائدين من النفي البابلي .[٢]

بكلمات أخرى ، تم تأليف الكتاب المقدس على يد «العائدين إلى الوطن» ، حيث يعمل على تضمين أيديولوجيا النفي الصارخة في سرد تاريخي ، على نحو يشبه كثيراً ما قام به الأيديولوجيون الصهاينة الأوائل الذين كانوا يعتبرون الاندماج تهديداً بالموت : «إن المجتمعات التي تكتّلت تحت زعامة كهنوت اليهوي[٣] (في زمن النفي البابلي) رأت الاندماج والارتداد عن الدين ليس فناء اجتماعياً لأنفسهم كيهود فحسب ، وإنما محاولة أيضاً لقتل الإله . لقد عقدوا العزم بأن يظهروا التزاماً مطلقاً وكلياً للإله يهوه ، الذي كانوا واثقين ، بأنه سيعود بهم إلى الأرض التي طُردوا منها . وأوصوا بنقاء الدم كوسيلة للحفاظ على حدود المجتمع القومي ، وبالتالي حرّموا الزواج المختلط مع أولئك الذين يعيشون

---

(١) نيلز ليمكي : (مولود في ١٩٤٥) ، عالم توراتي في جامعة كوبنهاغن ، اقترن اسمه وكتاباته بما يعرف بـ«مدرسة كوبنهاغن» ، وهي حركة في البحث العلمي التوراتي ظهرت في تسعينات القرن الماضي ، طرحت نظريتين : الأولى أنه لا يمكن الاعتماد على الكتاب المقدس كدليل موثوق به لما حدث في «إسرائيل القديمة» ؛ والثانية أن «إسرائيل» نفسها موضوع إشكالي فيما يتعلق بالدراسة التاريخية . ولقد عرفت هذه الحركة باسم «مدرسة كوبنهاغن» نظراً لأن اثنين من أبرز منظريها كانا يدرسان في جامعة كوبنهاغن ، من بينهم ليمكي نفسه ، المتحدث الفلسفي والميثودولوجي للحركة . (المترجمة)

(2) Niels Peter Lemche, The Canaanites and Their Land, Sheffield: Sheffield Academic Press, 1991.

(٣) اليهوي : يُعرف اختصاراً بـ J ، وهو أحد مصادر التوراة ، إلى جانب «المصدر التثنوي» و«المصدر الكهنوتي» . ويشار له بـ«المصدر اليهوي» نسبة إلى الإله يهوه الذي يحمل اسمه . و«يهوه» هو إله إسرائيل في الكتاب المقدس العبري . (المترجمة)

حولهم . كما أقرّوا سلسلة من الطقوس الإقصائية التي تفصلهم عن جيرانهم ، ولم تشمل هذه الطقوس شكلاً بديلاً من التعبّد في دار العبادة فقط ، وإنما تقويم مختلف مكّنهم شعائرياً من الوجود في إطار زمني مختلف عن المجتمعات التي تقاسموا فضاءها . كل هذه الأدوات المميِّزة ساهمت في إرساء الفرق وتكريسه ، لكنها لم تمنعهم من المتاجرة مع البابليين ، الأمر الذي مكّنهم من المحافظة على أنفسهم وسطهم .»(١)

إن القراءات المذهلة التي قام بها بومان وليم كي للكتاب المقدّس والرواية اليهودية ، كتعبير عن الهوية المنفيّة والهامشية ، تساعد في توضيح حقيقة أنّ اليهودية تزدهر في المنفى ، لكنها تفقد زخمها ما إن تصبح مغامرة محلية . فلو كانت اليهودية فعلياً قائمة على أيديولوجيا البقاء الجماعي «للمهاجرين» أو «المنفيين» ، فسوف تزدهر إذن في المنفى . على أنهم ما إن يعودوا إلى الوطن الذي حلموا به ، حتى تتبدد الأيديولوجيا في الفراغ . ومن شأن النظر إلى التاريخ اليهودي بهذه الطريقة أن يساعدنا أيضاً في فهم نجاح وفشل القومية اليهودية الحديثة . كالديانة اليهودية ، فإن كلا الأيديولوجيتين الصهيونية واليهودية «التقدميتين» مقترنتان بالمنفى بطبيعتهما . وتبدوان منطقيّتين نوعاً ما حين يتم النظر إليهما في حقبتهما ما قبل الثورية ، لكنهما تصبحان بلا معنى على الإطلاق ما إن يحدث التحوّلَ . إلى حدٍّ ما ، يرمز الجدار الذي تحيط إسرائيل نفسها به حالياً إلى عودة إلى الظرف اليهودي في المنفى في غيتوهات أوروبا القديمة . بالمثل ، تجاوز حزب البوند الثورة السوفياتية ، لكنه سرعان ما أضحى عديم الجدوى لاحقاً ، كما لم يعد يشكّل إطاراً ثورياً عضوياً .

إن ما يحافظ على الهوية الجمعية اليهودية هو الخوف . وكما في حالة ديانة الهولوكوست ، تغرس اليهوديةُ الخوفَ من إبادة اليهود في قلب النفسية اليهودية ، إلا أنها تقدم أيضاً إجراءاتٍ روحيةً وأيديولوجيةً وبراغماتيةً للتعامل مع هذا الخوف .

---

(1) Lemche, The Canaanites and Their Land, op. cit.

الفصل ١٩
سفر أستير

«فَقَالَ هَامَانُ لِلْمَلِك أَحَشْوِيرُوشَ : «إِنَّهُ مَوْجُودٌ شَعْبٌ مَّا مُتَشَتِّتٌ وَمُتَفَرِّقٌ بَيْنَ الشُّعُوبِ [اليهود] فِي كُلِّ بِلاَدِ مَمْلَكَتِكَ ، وَسُنَنُهُمْ مُغَايِرَةٌ لِجَمِيعِ الشُّعُوبِ ، وَهُمْ لاَ يَعْمَلُونَ سُنَنَ الْمَلِك ، فَلاَ يَلِيقُ بِالْمَلِك تَرْكُهُمْ . فَإِذَا حَسُنَ عِنْدَ الْمَلِك فَلْيُكْتَبْ أَنْ يُبَادُوا ، وَأَنَا أَزِنُ عَشَرَةَ آلاَفِ وَزْنَةٍ مِنَ الْفِضَّةِ فِي أَيْدِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الْعَمَلَ لِيُؤْتَى بِهَا إِلَى خَزَائِنِ الْمَلِك .» سفر أستير ، الإصحاح ٣

سفر أستير قصة توراتية تشكِّل الأساس للاحتفاء بالبوريم[1] ، الذي يعدُّ على الأرجح العيد اليهودي الأكثر بهجة . يروي الكتاب تفاصيل محاولة مدبَّرة لتنفيذ إبادة جماعية بحق اليهود ، كما يتحدث عن نجاح اليهود في تغيير قدرهم . في سفر أستير ، ينقذ اليهود أنفسهم ، ويسعون كذلك إلى الانتقام .

تدور الواقعة في السنة الثالثة من حكم الملك الفارسي أحَشْويروش (وهو نفسه الملك خَشايارشا كما يُعرف بالفارسية ، أو زركسيس الأول كما تشير إليه

---

(١) عيد البوريم : «بوريم» كلمة عبرية مشتقة من «بور» أو «فور» البابلية ، ومعناها «قرعة « أو «نصيب» . لذا يعرف هذا العيد باللغة العربية بـ«عيد النصيب» . ويُحتفَل بالعيد في الرابع عشر من آذار ؛ فبحسب «سفر أستير» ، في الكتاب المقدس العبري ، خطط هامان ، وزير الملك أحشْويروش ، لقتل كل اليهود في بلاد فارس . وكان قد تقرر بالقرعة (أي النصيب) أن يكون يوم «الذبح» في الثالث عشر من مارس/آذار ، لكن خطط هامان أحبطتها أستير ، التي ذهبت إلى الملك أحَشْويروش واستعطفته لإلغاء قرارات هامان . وبات اليهود يحتفون باليوم الثاني ، الذي نجوا فيه من الذبح ، بعيد البوريم أو القرعة من خلال احتفالات صاخبة ، تصاحبها إقامة الولائم . (المترجمة)

العديد من المصادر) . إنها قصة القصر ، والمؤامرة ، ومخطط الإبادة الجماعية لليهود المشار لها آنفاً ، وملكة يهودية شجاعة وجميلة - أستير - التي تتمكّن من إنقاذ شعبها في اللحظة الأخيرة .

كان أحَشْويروش متزوجاً بالملكة وَشْتي ، حيث يقوم بتطليقها بعد رفضها أوامره بالظهور أمام ضيوفه المدعوّين إلى وليمته . ويتم اختيار أستير من بين العديد من المرشّحات كي تكون عروس أحشْويروش الجديدة . بحسب تتابع الأحداث في القصة ، يضع هامان ، رئيس وزراء أحشْويروش ، خطةً لقتل كل اليهود في الإمبراطورية الفارسية ، انتقاماً من مُردخاي ، ابن عمّ أستير ، الذي رفض أن ينحني له احتراماً . فتخطّط أستير ، التي أصبحت الآن ملكة ، مع مردخاي لإنقاذ يهود فارس . ومعرِّضةً سلامتها للخطر ، تحذِّر أستير أحشْويروش من مؤامرة هامان الإجرامية المعادية لليهود . (ولم يكن أحشْويروش على علم بأصولها اليهودية ، حيث لم تكن قد كشفت عن ذلك .) يتم إعدام هامان وأبنائه على المشانق المنصوبة على ارتفاع خمسين ذراعاً التي كان قد شيّدها في الأصل لمردخاي . وكما هو متوقع ، يحتلّ مردخاي موقع هامان كرئيس وزراء . وبما أن مرسوم أحشْويروش القاضي بقتل اليهود لا يمكن نقضه أو إلغاؤه ، فإنه يقوم بالتالي بإصدار مرسوم آخر يسمح لليهود بموجبه بحمل السلاح وقتل أعدائهم- وهو ما يفعلونه .

إنّ المغزى الأخلاقي من الحكاية واضح . فإذا كان اليهود يريدون النجاة ، حريٌ بهم أن يتسللوا إلى أروقة الحكم . في ضوء قصة مردخاي والبوريم في سفر أستير ، تبدو الأيباك وما تنطوي عليه من فكرة «النفوذ اليهودي» تجسيداً لأيديولوجيا توراتية وثقافية جذورها ضاربة عميقاً .

بيد أنه ثمة هنا انعطافة مثيرة غير متوقَّعة . فعلى الرغم من أن القصةَ مطروحةٌ بوصفها تسجيلاً لأحداث فعلية ، فإن الدقّة التاريخية لسفر أستير تخضع في واقع الأمر لجدل كبير من قبل معظم العلماء التوراتيين المُحْدَثين . فغياب تأكيد واضح لأي من تفاصيل السِّفر بما نعرفه عن التاريخ الفارسي من

مصادر كلاسيكية جعل العلماء والباحثين يستنتجون أن القصّةَ خياليةٌ ، بالمطلق أو في الغالب . بمعنى آخر ، وبصرف النظر عن العبرة ، فإنّ الخطة المدبَّرة لإبادة اليهود خيالية . على ما يبدو ، يشجِّع سفر أستير أتباعه (اليهود) على الإصابة الجماعية بمتلازمة إجهاد ما قبل الصدمة ، محوِّلاً وهم «الدمار» إلى «أيديولوجيا البقاء» . والحقّ أنّ البعض يقرأ القصّة كاستعارة رمزية لليهود المندمجين على نحو مثالي ، والذين يكتشفون أنهم أهدافٌ لمعاداة السامية ، لكنهم أيضاً في موقع لإنقاذ أنفسهم وأقرانهم من اليهود .

من خلال قراءة أقوال هامان أعلاه ، مع استحضار بومان في الذهن ، يعمل سفر أستير على صياغة الهوية في المنفى . إذ يلفّق الإجهاد الوجودي ، كما يشكِّلُ مقدِّمةً لديانة الهولوكوست ، مهيِّئاً الظروف التي تحوِّل الهولوكوست إلى واقع . من اللافت أن رواية مشابهة ، متوعِّدة ، يتمّ تقصّيها في بداية سفر الخروج . مرة أخرى ، وبغية خلق مناخ «محرقة قادمة» يعقبها تحرّر ، يتم إرساء خوف وجودي :

«ثُمَّ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ . فَقَالَ لِشَعْبِه : هُوَذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ شَعْبٌ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَّا . هَلُمَّ نَحْتَالُ لَهُمْ لِئَلاَّ يَنْمُوا ، فَيَكُونَ إِذَا حَدَثَتْ حَرْبٌ أَنَّهُمْ يَنْضَمُّونَ إِلَى أَعْدَائِنَا وَيُحَارِبُونَنَا وَيَصْعَدُونَ مِنَ الأَرْضِ . فَجَعَلُوا عَلَيْهِمْ رُؤَسَاءَ تَسْخِيرٍ لِكَيْ يُذِلُّوهُمْ بِأَثْقَالِهِمْ ، فَبَنَوْا لِفِرْعَوْنَ مَدِينَتَيْ مَخَازِنَ : فِيثُومَ ، وَرَعَمْسِيسَ .» سفر الخروج ، الإصحاح ١ : ٨ - ١١

في كلٍّ من سفر الخروج وسفر أستير ، يتمكّن مؤلِّف النص من التنبّؤ بنوع الاتهامات التي سيتم تسديدها إلى اليهود لقرون قادمة ، كالسعي إلى السلطة ، والقبليّة ، والخيانة . والمروِّع في الأمر أن النص في سفر الخروج يستدعي نبوءة الهولوكوست النازية ؛ إذ يصوِّر واقعاً من التطهير الإثني ، والإجراءات القمعية الاقتصادية التي أدت في النهاية إلى معسكرات عمّال السُّخرة (فيثوم ورعمسيس) . غير أنه ، في كل من سفر الخروج وسفر أستير ، فإن اليهود في

النهاية هم الذين يَقتلون .

من المثير أنّ **سفر أستير** (في النسخة العبرية من الكتاب المقدّس ؛ حيث أضيفت ستة فصول إلى الترجمة اليونانية) هو واحد من كتابين فقط من الكتاب المقدّس لا يذكران الله بصورة مباشرة (الكتاب الآخر هو **سفر نشيد الإنشاد**) . كما في ديانة الهولوكوست ، فإن اليهود في **سفر أستير** هم الذين يؤمنون بأنفسهم ، وبقوّتهم ، وبفرادتهم ، وبحنكتهم ، وبقدرتهم على التآمر ، وبقدرتهم على الاستيلاء على الممالك ، وقدرتهم على إنقاذ أنفسهم . يتعلق **سفر أستير** بالتمكين ، حيث يعبّر عن جوهر وميتافيزيقيّات القوة أو النفوذ اليهودي .

من البوريم إلى واشنطن

في مقالة بعنوان «درس البوريم : حشد الضغط ضد الإبادة الجماعية بين الأمس واليوم» ، يشرح الدكتور رافاييل ميدوف ما يراه الدرس الذي ورّثه مردخاي وأستير لليهود : «فن حشد الضغط» . يتابع ميدوف بالقول : «تحتفي عطلة البوريم بالجهد الناجح الذي بذله اليهود المتنفِّذون في الكابيتول (أي في مقرّ الحكم) ، في بلاد فارس القديمة لمنع تعرض الشعب اليهودي للإبادة الجماعية .»(١) هذا التمرين تحديداً لما يصفه البعض بـ«النفوذ اليهودي» (وإن كان ميدوف لا يستخدم هذا التعبير) ما زال متواصلاً ، حيث يمارسه اليهود الحديثون المنعتِقون : «إن الشيء غير المعروف هو أن جهداً مشابهاً من حشد الضغط تبلور في الحقبة الحديثة – في العاصمة الأميركية واشنطن ، في ذروة الهولوكوست .»(٢)

يقوم ميدوف بتحرّي التشابهات بين عملية حشد الضغط التي قامت بها

---

(١) Medoff, Rafael, A Purim Lesson: Lobbying Against Genocide, Then and Now ؛ انظر : (http://www.wymaninstitute.org/articles/2004-03-purim.php) .

(2) Ibid

أستير في فارس وبين جهود نظرائها الأحدث في حشد الضغط داخل إدارة الرئيس الأميركي فرانكلين دي روزفلت في أوج الحرب العالمية الثانية : «تجسّدت أستير في واشنطن في أربعينات القرن الماضي في شخص هنري مورغنتاو الابن ، وهو يهودي مندمج ، ثري ، يتحدّر من أصول ألمانية ، حيث كان (كما أشار ابنه لاحقاً) توّاقاً كي يتم النظر إليه كـ'أميركي مئة في المئة' . ومخفّفاً من طغيان يهوديته ، ارتقى مورغنتا وتدريجياً من كونه صديقاً ومستشاراً لفرانكلين دي روزفلت ليصبح وزير خزانته .»(١)

من الجليّ أن ميدوف تلمّس كذلك نسخةً حديثةً من مردخاي : «موفد صهيوني شاب من القدس يدعى بيتر بيرغسن (واسمه الحقيقي : هيليل كوك) ، كان قد قاد سلسلةً من الحملات الاحتجاجية لحثّ الولايات المتحدة على إنقاذ اليهود من هتلر . وعملت إعلانات الصحف لمجموعة بيرغسن والمسيرات الشعبية على إثارة الوعي العام بشأن الهولوكوست - خاصة حين تم حشد أكثر من ٤٠٠ حاخام للقيام بمسيرة إلى البوابة الأمامية للبيت الأبيض ، وذلك مباشرة قبل يوم الغفران في العام ١٩٤٣ .»(٢)

توفّر قراءة ميدوف لسفر أستير رؤيةً باهرةً لمجموعة القواعد الداخلية لديناميكيات البقاء الجمعي اليهودي ، حيث توحّد (أستير) المندمِجة و(مردخاي) الملتزم دينياً قواهما معاً ، وفي ذهن كل منهما المصالح اليهودية . ووفقاً لميدوف ، فإن التماثلات مع العصر الحالي مذهلة : «فإلحاح مردخاي أقنع أستير أخيراً بأن تذهب إلى الملك ؛ وإلحاح معاوني مورغنتاو أقنعه أخيراً بأن يذهب إلى الرئيس ، مسلحاً بتقرير لاذع مؤلف من ١٨ صفحة وضعوا له عنوان : تقرير إلى الوزير بشأن خنوع هذه الحكومة فيما يتعلق بمقتل اليهود . لقد نجح حشد الضغط الذي قامت به أستير ؛ إذ ألغى أحشْويروش قرار الإبادة الجماعية ،

(1) Ibid

(2) Ibid

وأعدم هامان وأتباعه . كذلك ، نجح حشد الضغط الذي قام به مورغنتاو ؛ فبمبادرة من بيرغسن ، تم بسرعة تمرير قرار للكونغرس ، يدعو إلى خطة إنقاذ أميركية ، وذلك في لجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ - حيث تمكّن مورغنتاو من أن يقول لفرانكلين دي روزفلت : يتعين عليك إما أن تتحرك بسرعة كبيرة ، أو سيقوم الكونغرس الأميركي بذلك نيابةً عنك . وآخر شيء كان فرانكلين دي روزفلت يريده فضيحة عامة محرجة ، تتعلق بقضية لاجئين قبل عشرة شهور من يوم الانتخابات . في غضون أيام ، فعل روزفلت ما سعى إليه قرار الكونغرس - إذ أصدر أمراً تنفيذيّاً بتأسيس مجلس لاجئي الحرب ، وهي وكالة حكومية أميركية لإنقاذ اللاجئين من هتلر .»[1]

مما لا شكّ فيه أن ميدوف ينظر إلى سفر أستير كدليل إرشادات عامة لسلوك يهودي صحي : «إن الزعم بأنه لا يمكن القيام بشيء لمساعدة يهود أوروبا قد دحضه اليهود الذين نفضوا عنهم مخاوفهم وكانوا لسان حال شعبهم - في بلاد فارس القديمة وفي واشنطن الحديثة .» بكلمات أخرى ، يستطيع اليهود ، بل ويتعين عليهم ، القيام بفعل ما من أجل أنفسهم . وهذه فعلياً العبرة من سفر أستير ، ومن ديانة الهولوكوست كذلك .

إن ما يجب على اليهود القيام به من أجل أنفسهم يظل سؤالاً مفتوحاً فعلياً . فثمة أفكار مختلفة باختلاف اليهود ؛ إذ يؤمن المحافظون الجدد بجرّ الولايات المتحدة والغرب إلى حرب لا نهاية لها ضدّ الإسلام . ويؤمن بعض اليهود بأنه يتعيّن على اليهود أن يضعوا أنفسهم في صدارة الصراع ضد القمع والظلم . والحقّ أن التمكين اليهودي يشكّل جواباً من بين إجابات كثيرة . بيد أنه قوي للغاية ، كما أنه خطير حين تتصرف كل من اللجنة اليهودية الأميركية (AJC) وأيباك AIPAC كـ«مردخاي» العصر الحديث ، منخرطتين علناً في جهود مكثفة لحشد الضغط لشن حرب ضدّ إيران .

---

(1) Ibid

كل من أيباك واللجنة اليهودية الأميركية ملتزمتان بنهج مدرسة الفكر التوراتية العبرية ، حيث تتبعان معلّمهما التوراتي مردخاي . على أنه بينما من السهل رصد المردخايين (جمع «مردخاي») ، فإن اقتفاء «الأستيرات» (نسبة إلى أستير) - أولئك الذين يعملون من أجل إسرائيل من وراء الكواليس - أكثر صعوبة نوعاً ما .

وما إن نتعلّم أن نأخذ في الاعتبار آليات حشد الضغوط الإسرائيلية ضمن الثوابت والمؤشرات المحدَّدة في سفر أستير وديانة الهولوكوست ، حتى نستطيع إذن النظر إلى الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد باعتباره هامان أو هتلر الحالي . بالإضافة إلى اللجنة اليهودية الأميركية وأيباك ، يعدّ كلٌّ من رام إيمانويل ، رئيس موظفي البيت الأبيض (سابقاً) في إدارة الرئيس الأميركي باراك أوباما واللورد ليفي بمنزلة «مردخاي» ، ومن الواضح أن أوباما هو أحشْويروش ، أما أستير فيمكن أن تكون أي أحد ، من آخر المحافظين الجدد إلى ديك تشيني وما بعده .

برينروبرينتس

لقد سألتُ ما الذي تمثّله اليهودية . على الرغم من أنني أتقبّل التعقيد الذي ينطوي عليه مفهوم اليهودية ، إلا أنني أقبل أيضاً مساهمة يشعياهو ليبوفيتش في الموضوع :على الأرجح بأنّ الهولوكوست هي الديانة اليهودية الجديدة . ومع ذلك ، أسمح لنفسي بأن أمطّ مفهوم الهولوكوست نفسه . فبدلاً من مجرّد الإشارة إلى **شواه** ، أي الإبادة النازية لليهود ، أعتقد أن الهولوكوست محفورة فعلياً في الثقافة والخطابة والروح اليهودية . فالهولوكوست هي جوهر متلازمة إجهاد ما قبل الصدمة اليهودية الجمعية ، حيث تسبق - زمنيّاً - المحرقة . أن تكون يهودياً معناه أن ترى خطراً في كل شخص غير يهودي ، وأن تكون دائم الحذر . ومن شأن اعتناق وتمثّل رسالة سفر أستير استهداف مراكز الهيمنة الأكثر تنفّذاً ، والتواطؤ مع السلطة ، وتوثيق الوشائج مع الحكّام .

ويبدو المؤرخ الماركسي اليهودي الأميركي ليني برينر مفتوناً بالتواطؤ بين الصهاينة والنازية ؛ إذ يقدم برينر في كتابه **الصهيونية في عصر الطغاة**، مقتطفاً من كتاب ألفه حاخام يُدعى يواكيم برينتس، ونُشر عام ١٩٣٧ بعدما غادر الحاخام برينتس ألمانيا إلى الولايات المتحدة : «الجميع في ألمانيا كانوا يعرفون أن الصهاينة فقط كانوا يستطيعون تمثيل اليهود بمسؤولية في التعامل مع الحكومة النازية . جميعنا كنّا واثقين بأنه يوماً ما ستنظّم الحكومة مؤتمر مائدة مستديرة مع اليهود، يتم فيه - بعد انقضاء أعمال الشغب وفظاعات الثورة -الأخذ في الاعتبار الوضع الجديد لليهود الألمان . ولقد أعلنت الحكومة بوقار أنه لا توجد دولة في العالم حاولت أن تحلّ المشكلة اليهودية على نحو جدي على غرار ما قامت به ألمانيا . إيجاد حلّ للمسألة اليهودية؟ لقد كان ذاك حلمنا الصهيوني! فنحن لم ننكر أبداً وجود المسألة اليهودية! التبايُن؟ لقد كانت تلك مناشدتنا الخاصة! . . . في بيان لافت اتسم بنبرة زهوّ وكرامة، دعونا إلى عقد مؤتمر .»[(١)]

ثم يورِدُ برينر مقتطفاتٍ من مذكِّرة أُرسلت إلى الحزب النازي من الاتحاد الفدرالي الصهيوني في ألمانيا في ٢١ يونيو/ حزيران ١٩٣٣ : «لا توجد لدى الصهيونية أية أوهام بشأن صعوبة الوضع اليهودي الذي يتألف في المقام الأول من نمط وظيفي شاذّ، وفي غياب وضعية فكرية وأخلاقية متجذِّرة في ناموس المرء نفسه . . . على أساسيات الدولة الجديدة، التي أرست مبدأ العرق، نرغب جداً في أنْ يتوافق مجتمعنا ضمن البنيان العام، وذلك كي يكون بالإمكان بالنسبة لنا أيضاً، ضمن المجال المحدَّد لنا، القيام بنشاط مثمر من أجل أرض الأجداد . . . إن اعترافنا بالقومية اليهودية من شأنه أن يوفر علاقةً واضحةً وصادقةً مع الشعب الألماني وحقائقه القومية والعرقية . وتحديداً لأننا لا نرغب

---

(1) Joachim Prinz, Zionism under the Nazi Government, Young Zionist, London: November 1937, p. 18; : حيث يرد في Lenni Brenner, Zionism in the Age of the Dictators, Westport, CT: Lawrence Hill & Co., 1983) : انظر ؛ http://www.marxists.de/midleast/brenner/ch05.htm)

في تزييف هذه المبادئ الأساسية ، ولأننا نحن أيضاً ضد الزواج المختَلَط ، ومع الحفاظ على نقاء الجماعة اليهودية . . . ترانا نؤمن بإمكانية قيام علاقة ولاء صادقة بين اليهود ذوي الوعي الجماعي والدولة الألمانية . . .»[١]

لا يتفق برينر مع وجهة نظر برينتس ، ولا مع المبادرة الصهيونية ، حيث يكتب باشمئزاز ، قائلاً : «هذه الوثيقة ، التي تعدُّ خيانةً ليهود ألمانيا ، كُتبت وفق كليشيهات صهيونية مألوفة : نمط وظيفي شاذ ، مثقفون بلا جذور بحاجة ماسة لانبعاث أخلاقي ، إلخ . في هذه الوثيقة ، عرض الصهاينة الألمان تواطؤاً محسوباً بين الصهيونية والنازية ، وهو تواطؤ يكتسب قداسته من هدف قيام دولة يهودية : لن نشنّ حرباً ضدّكم ، فقط ضدّ أولئك الذين يقاومونكم .»[٢]

يفشل برينر ، وهو ماركسي ليست لديه أدنى فكرة على الإطلاق عن الثقافة والأيديولوجيا الداخلتين في موضوعه ، في رؤية ما هو واضح . فبرينتس والاتحاد الفدرالي الصهيوني لم يكونا خائنين ، بل كانا يهوديين حقيقيين ، ملتزمين بمجموعة مبادئ ثقافية يهودية صرفة . فقد اتبعا سفر أستير ، متقمِّصيْن دور مردخاي . وحاولا البحث عن طريقة للتواطؤ مع ما عرفّاها ، على نحو صحيح ، بوصفها قوة ناشئة بارزة . في العام ١٩٦٩ ، اعترف برينتس بقوله : «منذ اغتيال فالتر راثينو[٣] عام ١٩٢٢ ، لم يكن ثمة شكّ في أذهاننا بأن تطور الأحداث في ألمانيا كان يسير باتجاه نظام حكم استبدادي معادٍ للسامية . وحين

---

(1) Ibid

(2) Ibid

(٣) فالتر راثينو : (١٨٦٧-١٩٢٢) ، سياسي وصناعي يهودي ألماني ، عمل وزيراً لخارجية ألمانيا أثناء جمهورية فايمر ، التي نشأت في ألمانيا في الفترة من ١٩١٩ وحتى ١٩٣٣ كنتيجة للحرب العالمية الأولى وخسارة ألمانيا الحرب . اغتيل راثينو في ٢٤ يونيو/ حزيران ١٩٢٢ ضمن مخطط قاده ضابطا جيش محسوبان على التيار القومي المتطرف هما إيرفن كيرن وهيرمان فيشر ، بمساعدة آخرين ، على خلفية «اتهامه» من قبل مغتاليه بأنه «أحد حكماء صهيون» في الوثيقة المعروفة باسم ==

بدأ نجم هتلر بالصعود ، منبِّهاً ، كما جاء على لسانه ، الأمّة الألمانية فيما يتعلق بالوعي العـرقي والتـفـوّق العـرقي ، لـم تكن لـدينا ذرّة شـك بأن هذا الرجل سيصبح ، عاجلاً أم آجلاً ، زعيم الأمة الألمانية .»(١)

سـواء شـاء برينر أو شـخص آخـر ذلك أم لا ، فـإن برينتس يبـرهن على مصداقيّته كزعيم يهودي ، ممتلكاً آلية «رادار» للبقاء غاية في التطور ، تتناسب تماماً وأيديولوجـيا المنفى . في العـام ١٩٨١ ، أجرى برينر مـقابلة مع برينتس . إليكم ما قاله حول الحاخام «المتواطئ» : «لقد تطور [برينتس] بصورة دراماتيكية في السنوات الأربعـة والأربعين منذ أن طُرد من ألمانيـا . أخـبرني ، بصورة غيـر رسـمـيـة ، أنه سـرعـان مـا أدرك بأن لا شيء مما قـاله هناك كـان لـه مـعنى في الولايات المتحدة . لقد أضحى ليبرالياً أميركياً . وفي النهاية ، كرئيس للكونغرس اليهودي الأميركي ، طُلب منه أن يشارك في مسيرة مارتن لوثر كينغ ، حيث قام بذلك .»

من جديد ، يفشل برينر في رؤية ما هو جليّ . إن برينتس لـم «يتطوّر» – لقد ظل يهودياً أصـيلاً ، ويهـودياً حاذقاً للغـاية ، لقـد كـان رجـلاً نجح في تمثُّل جـوهر فلسفة المنفى اليهودي : في ألمانيا كُنْ ألمانياً ، وفي الولايات المتحدة كن أميركياً . كن مـرناً ، تكـيّف ، وتبنَّ تفكيـراً نسـبيـاً . لـقد أدرك برينتس ، وهو تابع مـخلص لمردخاي ، أن أيَّ شيء جيِّد لليهود يعدّ ببساطة جيداً .

حين استـمـعتُ إلى هذه المقـابلة القيِّـمـة(١) ، صـدمتُ حين اكـتـشـفتُ أن

== «بروتوكولات حكماء صهيون» ، وهي الوثيقة التي تشير إلى مخطط تآمري لليهود لبسط سيطرتهم على العالم ، حيث تنفي الصهيونية العالمية وأقطاب اليهود هذه الوثيقة بالمطلق مع تأكيد زيفها . (المترجمة)

(١) Strauss,Herbert(ed.), Gegenwart Im Ruckblick, Heidelberg, 1970, p. 231 ؛ كـمـا يرد في : (http://www.marxists.de/middleast/brenner/ch03.htm#n1) .

برينتس يعبِّر عن موقفه فعلياً بفصاحة . فهو ، وليس برينر ، الذي يوفِّر لنا لمحةً عن الأيديولوجيا اليهودية وتفاعلها مع الواقع المحيط . لقد فهم برينتس الشعب الألماني وتطلّعاته ، حيث يقدِّم تصرّفاته وأفعاله كيهودي فخور . من وجهة نظره ، فإن التواطؤ مع هتلر كان فعلياً عين الصواب . لقد كان بذلك يتبع مردخاي ، ولعله كان يبحث أيضاً عن أستير . لا غروَ إذن أن يصبح برينتس لاحقاً رئيس الكونغرس اليهودي الأميركي وزعيماً أميركياً يهودياً بارزاً ، على الرغم من تواطئه مع هتلر .

الصهيونية مقابل المنفى

ما إن نتعلم أن ننظر إلى اليهودية كثقافة في المنفى ، كتمثيل لـ«الآخر المطلق» ، حتى نستطيع أن نفهمها كاستمرارية جمعيّة مبنيّة على وهم الرعب . إن اليهوديةَ تجسيدٌ لسياسة الخوف وبلورتها في أجندة براغماتية ، كديانة الهولوكوست . وهي قديمة قدم اليهود أنفسهم . وكان برينتس يستطيع أن يتنبّأ بالهولوكوست ؛ فكلٌّ من برينتس والاتحاد الفدرالي الصهيوني كانا يستطيعان توقّع الإبادة الجماعية لليهود . وهما من وجهة نظر أيديولوجية يهودية ، أحسنا التصرّف في التواطؤ . لقد كانا ملتزمين بمبادئهما الأخلاقية الخفيّة المحدَّدة ضمن خطاب ثقافي باطني .

لقد انعقدت الآمال على الصهيونية ، حيث كانت تستطيع أنْ تحول اليهود إلى بني إسرائيل ، وتحديد الغالوت ، أي سمة النّفْي للشعب اليهودي والثقافة ، ومكافحته . لكنّ الصهيونية كان مصيرها الفشل لأسباب واضحة : ضمن ثقافة متمركزة ميتافيزيقيّاً على أيديولوجيا المنفى ، فإنّ آخر شيء يمكن أن تتوقّعه هو عودة مظفَّرة إلى الوطن . كي تفي بوعدها ، كان يتعيَّن على الصهيونية أن تحرِّر

---

(١) ليني برينر ، مقابلة مع يواكيم برينتس ، ٨ فبراير/شباط ١٩٨١ ؛ انظر : (http://cosmos.ucc.ie/cs1064/jabowen/IPSC/php/clip.php?cid=512) .

نفسها من أيديولوجيا المنفى اليهودية ، ومن ديانة الهولوكوست . لكنّها فشلت في القيام بذلك . فقد تحوّلت الصهيونية ، المحكومة بالمنفى حتى النخاع ، إلى معاداة الفلسطينيين ، السكان الأصليين ، وذلك للحفاظ على هوسها بالهوية اليهودية .

وإذ فشلت الصهيونية في إقصاء نفسها عن أيديولوجيا المنفى أو النزوح اليهودية ، فإنها فقدت الفرصة لتطوير أيّ شكل من أشكال الثقافة المحلية . كنتيجة لذلك ، تشكّل السياسة والثقافة الإسرائيليتان مزيجاً غريباً من الآحَسْم ، خليطاً من التمكين الكولونيالي مع عقلية ضحية الغالوت (أي المنفى) .

الوصل بين النقاط

الفصل ٢٠
التبرعات ومراكز الأبحاث والمؤسسات الإعلامية

في أعقاب الانتخابات البرلمانية البريطانية عام ٢٠١٠ ، نشرت صحيفة **جويش كرونيكل** قائمة بأعضاء البرلمان اليهود البالغ عددهم أربعة وعشرين نائباً - اثنا عشر من حزب المحافظين ، وعشرة من حزب العمال ، واثنان من حزب الديمقراطيين الأحرار . توقّف المعلق البريطاني ستيوارت ليتلوود عند هذه الأرقام بإسهاب ، مقدماً التحليل التالي :

«يبلغ تعداد اليهود في بريطانيا ٢٨٠ ألفاً ، أو ٠,٤٦ في المئة من إجمالي السكان . يوجد ٦٥٠ مقعداً في مجلس العموم ، لذا كنسبة وتناسب ، فإن الاستحقاق اليهودي من مقاعد البرلمان يبلغ ثلاثة مقاعد فقط . على أنه مع وجود ٢٤ مقعداً لهم ، فإن تمثيل اليهود يفوق حصتهم التمثيلية بثماني مرات . وهذا يعني ، بالطبع ، أن ثمة جماعات أخرى لابدّ من أنها أقل تمثيلاً ، من بينها المسلمون . لو كان المسلمون ، على سبيل المثال ، ممثلين أكثر مما يستحقون بالدرجة ذاتها التي يحظى فيها اليهود بتمثيل برلماني (أي ثماني مرات) ، فسيكون لديهم ٢٠٠ مقعد . عندئذ سوف تُفتح أبواب الجحيم .»[١]

لماذا يفوق تمثيل اليهود حجمهم بكثير في البرلمان ، وفي جماعات الضغط السياسية الأميركية والبريطانية ، وفي جمع الأموال لأغراض سياسية ، وفي

(1).Stuart Littlewood, "Jews are eight times over-represented in UK parliament," 21 May 2010 ؛ انظر : (http://www.redress.cc/global/slittlewood20100521)

الإعلام؟ في مقابلة مع مجلة ذي نيويوركر، قدم الملياردير حاييم سابان[١]، قطب الإعلام الأميركي الإسرائيلي، جواباً. في مؤتمر عُقد في إسرائيل، وصف سابان معادلته. فعلى حدّ قوله، هناك «ثلاث طرق كي تكون متنفِّذاً في السياسة الأميركية»، هي: قدِّم تبرعات للأحزاب السياسية، وأسِّس مراكز أبحاث، وابسط سيطرتك على المؤسسات الإعلامية[٢].

كما أوضحتُ سلفاً، لا يوجد شيء يُدعى «مؤامرة يهودية». فكل شيء قائم في العلن. أمام كاميرات التلفزيون من كل أنحاء العالم أعطى ديفيد ميليباند، وزير الخارجية البريطاني السابق، مؤلِّف البروباغندا الإسرائيلية، إسرائيل الضوء الأخضر لشن «عملية الرصاص المصبوب» (على غزة)، مقترحاً في سيدروت بأنه «يتعين على إسرائيل، في المقام الأول، أن تسعى إلى حماية مواطنيها.»[٣] عملياً، جعل ميليباند كل الشعب البريطاني متواطئاً في جريمة حرب إسرائيلية هائلة. كذلك، ضغط ميليباند من أجل تعديل قوانين السلطة القضائية البريطانية، فقط من أجل إقصاء التهديد باعتقال الجنرالات

---

(١) حاييم سابان: (مولود في ١٩٤٤)، قطب إعلامي أميركي إسرائيلي مصري المولد، من أثرى أثرياء الولايات المتحدة، معروف بتأييده العلني والمطلق لإسرائيل، أسس في العام ٢٠٠٢ «مركز سابان لسياسة الشرق الأوسط»، وهو مركز بحثي مقره واشنطن العاصمة، يسعى - وفق التعريف الرسمي به وبأهدافه - إلى تزويد صناع السياسة في الحكومة بالمعلومات والتحليلات المتعلقة بسياسة أميركا الخارجية في الشرق الأوسط. كما يشرف سابان على حلقات تدريب على القيادة السياسية تعقد في واشنطن دورياً بإشراف منظمة «أيباك»، الواجهة الأضخم للوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة، حيث تهدف إلى تزويد طلبة الجامعات والكليات الأميركية من الناشطين دورة تدريبية مكثفة حول تأييد إسرائيل والدفاع عن سياساتها. (المترجمة)

(2) Bruck,Connie,"The Influencer," The New Yorker, 10 May 2010

(3) (http://www.ynetnews.com/articles/0,7340,L-3624394,00.html)

والسياسيين الإسرائيليين ما إن تطأ أقدامهم بريطانيا[1] . ولقد جمع اللورد ليفي ، الصهيوني المعلن ، أموالاً لحزب العمال في الوقت الذي شن فيه الحزب ، إبان حكم رئيس الوزراء توني بلير ، حرباً إجرامية في العراق ، الغرض منها جزئياً اجتثاث آخر جيوب المقاومة العربية ضد الصهيونية . لا أستطيع أن أحدِّد ما إذا كان اللورد ليفي متورطاً في أي من القرارات السياسية ، لكن هو أيضاً ، لم يكن يخجل من مكانته بوصفه «المتبرع رقم ١» لتوني بلير . وفي وسائل الإعلام ، ناصر الكاتبان ديفيد آرونوفيتش ونيك كوهين ، في صحيفة جويش كرونيكل ، بحماسة الحرب الإجرامية ذاتها باسم «التدخل الأخلاقي» . كذلك ، أسس كوهين «مركز أبحاث» بيان يوستن[٢] لدعم الأيديولوجيات

(1) (http://www.thejc.com/news/uk-news/26593/war-crimes-willgovernment-ever-act)

(٢) بيان يوستن Euston Manifesto : إعلان مبادئ وضعه مجموعة من الأكاديميين والصحفيين والناشطين في بريطانيا عام ٢٠٠٦ ، حيث جاء البيان ، كما أعلن واضعوه ، كـ«رد فعل على الانتهاك الواسع لقيم اليسار من قبل آخرين محسوبين على اليسار السياسي» . إلى جانب المبادئ العامة الواردة فيه كالالتزام بـ«الهياكل الديمقراطية» و«الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية» و«فصل الدين عن الدولة» ، يدعو البيان إلى «رفض نزعة مناهضة أميركا المتفشية اليوم إلى حد كبير في التفكير اليساري- الليبرالي (وبعض المحافظين)» ، كما يدين البيان ما يصفه بالإرهاب ، إلى جانب كل أشكال الاستبداد والعنصرية ومعاداة السامية ، بما في ذلك أي شكل من أشكال العداء الموجه لليهود في إطار مناهضة الصهيونية . ولقد تعرض البيان والموقعون عليه لانتقاد حاد كونه ، أي البيان ، أيد الحرب على العراق في العام ٢٠٠٣ ، كما ساوى بين معاداة السامية والعداء لإسرائيل . من الفقرات المثيرة للجدل في البيان تلك الواردة تحت عنوان «التدخلية الجديدة» ، حيث يدعم البيان ما يصفه بمبدأ «التدخل الإنساني» ، محاججاً بأنه يتعين احترام سيادة الدولة طالما أنها «لا تقوم بتعذيب أو قتل أو ذبح مواطنيها . .» وفي حال فشلت الدولة في القيام بواجباتها «ثمة واجب بالتدخل والإنقاذ يقع على كاهل المجتمع الدولي» . ويشير البيان إلى أشكال التدخل التي قد تشمل إلى جانب الدبلوماسية «العقوبات الاقتصادية» و«التدخل العسكري» ، وهو ما يلتقي في النهاية مع دعاوى ما يعرف بأيديولوجيا «المحافظين الجدد» . (المترجمة)

المحافظة الجديدة في بريطانيا .

ويلتقي كلٌّ من ميليباند وليفي وآرونوفيتش وكوهين مع تفكير سابان : النفوذ ، والتبرعات ، ومراكز الأبحاث ، ووسائل الإعلام . إنّ معادلة سابان متغلغلة عميقاً في التقليد الديني اليهودي ، وفي الأيديولوجيا والثقافة اليهوديتين ، وهي معادلة زوّده بها مردخاي - لقد تشرّب سابان المعنى الحقيقي لسفر أستير . بيدَ أن الأمر يتخطى ذلك . فبقدر ما تنصح بعض النصوص الدينية اليهود كي يقيموا روابط وشيجة مع الحكّام ، فإنّ الديمقراطية في وضعها الراهن وفّرت لنا بعض الشخصيات الضعيفة التي تتبوأ مواقع سياسية بارزة .

الصهيونية والديمقراطية

اعترف ميلتون فريدمان في سبعينات القرن الماضي بأن «الأسواق الحرة» تعدّ جيدة لليهود . لكن الصهاينة والدعاة الإثنيين اليهود يمضون بالموضوع إلى ما هو أبعد من ذلك - إذ يبدو أنهم يحبون الديمقراطية . فالدولة اليهودية تزعم بأنها «الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط» . كذلك ، يؤيد أنصار إسرائيل حول العالم الصراعات والحروب باسم «الديمقراطية» . والمفارقة المأساوية أن القتل باسم الديمقراطية هو ما يطلق عليه المحافظون الجدد «التدخل الأخلاقي» . حقاً إن الديمقراطية لتشكّل المنصّة السياسية المثالية لتاجر النفوذ الصهيوني . فالديمقراطية في عصرنا الراهن ، وخاصة في العالم الناطق بالإنجليزية ، عبارة عن نظام سياسي متخصص في وضع نماذج غير مناسبة ، وغير مؤهلة ، ومشكوك فيها في مواقع قيادية . اثنان من تلك النماذج المنتخبة ديمقراطياً شنّا حرباً غير شرعية على العراق ، وسارا بالغرب إلى كارثة مالية .

إن إدارة دولة ليست بالمهمة السهلة ، وقطعاً تستلزم موهبةً وتدريباً . في الماضي ، كان زعماؤنا السياسيون المنتخبون ساسةً متمرِّسين ، حققوا شيئاً في حياتهم ، سواء في الجانب الأكاديمي أو في العالم المالي أو في الصناعة أو في المؤسسة العسكرية . وكان المرشحون لمنصب رئاسة الوزراء يتمتّعون بخبرات

ومؤهلات يتشاركون بها . على أنه من الواضح أن الحال لم يعد كذلك . فمرةً تلو الأخرى ، نجد أنفسنا أمام «خيار ديمقراطي» بحيث نعطي صوتنا لفاشل آخر ، مدعاة للضحك والاستهزاء : «نجوم» سياسيون صاعدون حققوا القليل أو لا شيء يُذكر في حياتهم ، غير مؤهلين لإدارة دولة . إننا أسرى نظام سياسي كارثي يدّعي بأنه يعكس «خيارنا الحرّ» .

فما هي المؤهلات التي امتلكها بلير أو بوش قبل استلام دفّة الحكم؟ ما هي الخبرة التي يستطيع ديفيد كاميرون (رئيس وزراء بريطانيا) أن يستدعيها لإنقاذ بريطانيا من كارثة تامة على كل الجبهات (الأزمة المالية ، الشرق الأوسط ، أفغانستان ، التعليم ، هيئة الخدمات الصحية الوطنية ، وما إلى ذلك)؟ الجواب : لا شيء . حياتنا ومستقبلنا ومستقبل أطفالنا تقع في أيدي شخصيات جاهلة وتافهة . والحقّ أن انتخابات بريطانيا عام ٢٠١٠ أدّت إلى تشكيل «برلمان معلّق» ، إذ لم يتمكّن زعيم بمفرده من إقناع العامّة بأن لديه الموهبة ، أو النزاهة أو حتى هالة زعيم حقيقي .

لكن إليكم الخلاصة : بقدر ما يُعتبر زعماؤنا جهلةً بالمطلق ، فإن أشخاصاً على غرار سابان واللورد ليفي أبعد ما يكونون عن ذلك . فهم يعرفون ما الذي يتعيّن فعله بالضبط ، وهو أمر يقومون به منذ ثلاثة آلاف عام . هؤلاء هم أتباع مردخاي وأستير ، ويعرفون كيف يترجمون مغزى البوريم ، حيث يحولونه إلى ممارسة أميركية وبريطانية .

مع البوريم في الذهن ، قد نستطيع أن نقترح جواباً عن تساؤل ليتلوود حول سبب التمثيل البرلماني المفرط لليهود . فنحن نتعامل هنا مع محيط ثقافي ذي طابع «منفويّ» (من المنفى) يدعو إلى حشد الضغط وبسط النفوذ وإحكام السيطرة . وتشكل صياغة الفكر السياسي المعنى الحقيقي لسفر أستير . ويعدّ ساباان ،كما تشير ملاحظاته ، إما صريحاً أو أحمق بما فيه الكفاية كي يعترف بهذه المعادلة أمام الملأ .

وقد يفسِّر عدم وجود سفر أستير في الإسلام أو في الهندوسية سبب تمثيل

جماعات هامشية أخرى في بريطانيا على نحو محدود ، بالكاد يكون تناسبياً ، في السياسة ووسائل الإعلام البريطانية . أضف إلى ذلك أنه من غير المحتمل أن يتغير هذا الوضع قريباً . فمقارنةً مع معظم الأقليّات والهويات الهامشية في الغرب ، فإنّ اليهوديةَ ديانةٌ تقوم على المنفى ، كما أن الهوية اليهودية نتاج التلقين المنفويّ .

الفصل ٢١
الحقيقة والتاريخ والنزاهة

في العام ٢٠٠٧ ، أعلنت رابطة مكافحة التشهير اليهودية ، المنظمة اليمينية الأميركية اليهودية سيئة السمعة ، أنها اعترفت بالأحداث التي ذُبح فيها ما يقرب من ١,٥ مليون أرمني باعتبارها «إبادة جماعية» . إنّ فكرة إبداء منظمة صهيونية اهتماماً أصيلاً أو حتى التعبير عن تأثّرها الطفيف ، بمعاناة أناس آخرين قد تكون لحظة تحوّل بارزة في التاريخ السياسي اليهودي الحديث . وفي أوائل ٢٠١٠ ، انخرطت رابطة مكافحة التشهير اليهودية ثانية بالمسألة الأرمنية . على أنه ، في العام ٢٠١٠ ، لم تعد مقتنعةً أن الأرمن عانوا كل ذاك القدر ، حيث انتهى الأمر بحشد الضغط في الكونغرس الأميركي كي لا يتم الاعتراف بأن قتل الأرمن يعدّ «إبادة جماعية» .

في أعقاب الصدع المتنامي بين إسرائيل وتركيا حول الالتزام التركي بالقضية الفلسطينية ، سوف يتعين على رابطة مكافحة التشهير اليهودية ، بلا ريب ، أنْ تغيّر موقفها ثانية . ومع ذلك ، لابدّ من طرح سؤال هنا : كيف يمكن لحدث وقع قبل قرن من الزمان أن يسبب مثل هذه الضجة؟ فمرّة يتم تصنيفه كـ«إبادة جماعية» ، ثم يتم الانتقاص منه بحيث يصبح حادثاً «عادياً» لشخص يقتل آخر . هل ظهرت «وثيقة تاريخية» فجأة على مكتب أبراهام فوكسمان ، رئيس رابطة مكافحة التشهير اليهودية؟ هل توجد حقائق جديدة قادت إلى مثل هذه المراجعة الدراماتيكية؟

يوفر سلوك رابطة مكافحة التشهير اليهودية لمحةً مثيرةً عن مفهوم التاريخ اليهودي والفهم اليهودي للماضي . من منظور سياسي يهودي ، يعتبر التاريخ

دخيلاً على أي منهج علمي أو أكاديمي ؛ حيث يتجاوز المنهج ، والوقائع ، والصدقيّة . كما يتعارض مع النزاهة والأخلاق . إذا اتبعنا شلومو زاند ، نستطيع أن نجادل بأن التاريخ اليهودي عبارة عن حكاية خيالية ، وإن كانت براغماتية ، موجودة كي تخدم مصالح شعب واحد فقط ، حيث ينهمك في سؤال أساسي حول ما إذا كانت رواية بعينها «جيدة لليهود» أم لا . عملياً ، فإن القرار بشأن ما إذا كانت هناك إبادة أرمنية أو لا يخضع للمصالح اليهودية : أهي جيدة لليهود؟ أتراها جيّدة لإسرائيل؟

كما أوضح زاند ببراعة ، إن التاريخ ليس «شيئاً يهودياً» على وجه الخصوص . وكما ذكرنا سابقاً ، لنحو ألفي عام ، لم يُبدِ اليهود اهتماماً بماضيهم أو بماضي غيرهم ، على الأقل ليس بما يكفي لتأريخه .

حتى اللحظة ، فإن مقاربة شلومو زاند لـ«الأمة اليهودية» بوصفها اختراعاً من نوع الخيال الروائي لم يتم تفنيدها أكاديمياً . والاعتراض الوحيد الذي يمكن أن يصادفه المرء هو سياسي . في الحقيقة ، يشكّل رفض الوقائع أو عدم الالتزام بالصدقيّة من أعراض الأيديولوجيا الجمعية اليهودية المعاصرة وسياسة الهوية . والطريقة التي تتعامل بها رابطة مكافحة التشهير مع الموضوع الأرمني إنما مثال واحد فقط . في حين يشكّل رفض الصهاينة للتراث والماضي الفلسطينيّيْن مثالاً آخر . إلى ذلك ، فإن فشل ليني برينر التام في تفسير نزوع الحاخام برينتس للتواطؤ مع النازيين أمر دالّ . فالتصور السياسي والجمعي اليهودي الخاص بالماضي متمحورٌ يهودياً على نحو متأصّل ، وغافلٌ عن أي إجراء أكاديمي أو علمي .

حين كنتُ شاباً وساذجاً ، نظرتُ إلى التاريخ باعتباره شأناً أكاديمياً جاداً . فالتاريخ ، كما فهمته ، له علاقة بالبحث عن الحقيقة ، والوثائق ، والتأريخ ، والوقائع . لقد كنتُ مقتنعاً بأن التاريخ يسعى إلى نقل رواية معقولة عن الماضي بالاستناد إلى البحث العلمي المنهجي .كما اعتقدتُ أن من شأن توفّر فهم للماضي أن يسلّط بعض الضوء على حاضرنا ، بل وقد يساعدنا في صياغة مستقبل أفضل .

لقد ترعرعتُ في الدولة اليهودية ، واستغرق مني الأمر بعض الوقت كي

أفهم بأن الرواية التاريخية اليهودية مختلفة جداً . في العالم الفكري اليهودي الذي يتّسم بضيق الأفق والانعزالية ، يفكّر المرء بماهية العبرة أو المغزى التاريخي ، ثم يخترع «ماضياً» يناسبه .

حين كنتُ شاباً ، لم أعتقد أن التاريخ مسألة متعلقة بالقرارات السياسية أو اتفاقيات بين لوبي صهيوني واحد وآخر . كنت أنظر إلى المؤرخين على أنهم علماء يقومون بأبحاثهم متّبعين إجراءات صارمة . بل فكرتُ في شبابي أن أصبح مؤرِّخاً .

في سنوات التكوين ، قبلتُ على نحو أعمى كل شيء قالوه لنا حول ماضينا اليهودي «الجمعي» : مملكة داود ، المسادا[1] ، ثم الهولوكوست : الصابون

---

(١) حرصت الدولة العبرية على إرساء وتوطين «أسطورة المسادا» في الفكر الجمعي اليهودي ، وهي أسطورة تجمع كل عناصر الإثارة الهوليودية المتخيَّلة وتنطلق من فكرة «الافتداء» عن طريق الانتحار الجماعي البطولي! تُنسب الأسطورة إلى قلعة المسادا التي تقع على قمة جبل صخري مطل على البحر الميت . بنى القلعة الملك الروماني هيرودس الأول بين العام ٣٧ و٣١ قبل الميلاد ، حيث غزاها - بحسب الرواية الصهيونية - مجموعة من «الثوار اليهود» - قبل أن يتحصنوا فيها وذلك في العام ٦٦ ميلادية مع بداية ما عرف بالحرب الرومانية اليهودية الأولى . في العام ٧٣ ميلادية ، وكما جاء في الرواية الإسرائيلية الرسمية : اختار اليهود المتحصنون في القلعة ، وعددهم ٩٦٠ ، الانتحار جماعياً كي لا يقعوا في أيدي الرومان ، ليصنعوا بذلك أسطورة المسادا التي يتم تلقينها للإسرائيليين اليهود منذ الصغر ، ضمن تربية «وطنية» تروم إلى تكريس مفهوم «الضحية التاريخية» ، رغم أن هذه الضحية المفترضة أو المزعومة تحولّت إلى جلاد! تجدر الإشارة إلى أن علماء الآثار وما يعرفون بـ«المؤرخين الجدد» في إسرائيل لم يعثروا على أي دليل على وجود قبر أو مدفن جماعي لمئات اليهود ، حيث وجد حوالي ١٠ هياكل عظمية فقط في الموقع . ولقد أدى غياب دليل أثري ملموس ، وغياب مرجع تاريخي موثوق عن الحادثة إلى تداول الفكرة بأن «الانتحار الجماعي» أسطورة أو قصة خيالية ، وهو ما دفع بالمؤرخ الإسرائيلي نحمان بن يهودا ، الأستاذ في الجامعة العبرية في القدس ، إلى تأليف كتاب بعنوان **أسطورة المسادا : الذاكرة الجمعية وصناعة الأسطورة في إسرائيل** ، ينسف فيه الرواية الصهيونية المعتمدة لجهة الانتحار البطولي المزعوم! (المترجمة)

والأباجورات(١) ، ومسيرة الموت ، والملايين الستة .

احتجتُ إلى سنوات عديدة كي أفهم أن الهولوكوست ، التي تشكِّل المعتقدَ الرئيسي في الإيمان اليهودي المعاصر ، ليست على الإطلاق روايةً تاريخيةً يستطيع المؤرخون والمفكِّرون والأشخاص العاديون مناقشتها بحرية . كما ذكرتُ سابقاً ، لا تحتاج الروايات التاريخية إلى حماية القانون وجماعات الضغط السياسية . لقد أخذ الأمر مني سنوات كي أستوعب أن جدّتي الكبرى لم تتحوّل إلى «صابونة» أو «أباجورة» ، كما لقّنوني في إسرائيل . لعلّها قضت من الإنهاك أو التيفوئيد أو حتى من خلال إطلاق نار جماعي . وهو أمر بالفعل سيئ ومأساوي ، لكنه لا يختلف كثيراً عن مصير الملايين من الأوكرانيين حين أدركوا المعنى الحقيقي للشيوعية .

إن مصير جدّتي الكبرى لا يختلف كثيراً عن مئات الآلاف من المدنيين الألمان الذين ماتوا في عمليات القصف العشوائي والمتعمَّد ، فقط لأنهم ألمان . وبالمثل ، يشبه مصيرُها مصيرَ الناس في مدينة هيروشيما الذين قضوا فقط لأنهم يابانيون . كما مات ثلاثة ملايين فيتنامي لأنهم فيتناميون ، و١,٣ مليون عراقي لقوا حتفهم لأنهم عراقيون .

أعتقد أنه بعد خمسة وستين عاماً من تحرير المعتقلين في معسكر اعتقال أوشفيتز ، يحقّ لنا البدء بطرح أسئلة . يجب أن نطلب توفير دليل تاريخي وخوض نقاشات بدلاً من اقتفاء رواية تاريخية يعزّزها الضغط السياسي والقوانين . علينا أن نجرِّد الهولوكوست من مكانتها الاستثنائية المتمحورة يهودياً ،

---

(١) ضمن الروايات المتداولة عن جرائم النازية في معسكرات اعتقال اليهود في ألمانيا وبولندا ، تم تناقل قصص عن بشاعات من نوع قيام الألمان بصناعة ألواح صابون من شحم بشري منتزع من اليهود أو قيام الأطباء النازيين في هذه المعسكرات بسلخ جلود الأسرى اليهود لاستخدامها في صناعة الأباجورات أي مظلات أو أغطية المصابيح! لكن ، ومن جديد ، ظهرت دراسات قام بها المؤرخون الجدد في إسرائيل تؤكد غياب أدلة موثقة تؤكد صحة هذه الروايات . (المترجمة)

والتعامل معها كفصل تاريخي ينتمي إلى زمان ومكان معيّنين . يتعين تحليل الهولوكوست بدقة ، وذلك على غرار أية رواية تاريخية .

بعد خمسة وستين عاماً من تحرير معتقلي أوشفيتز يجب أن نكون قادرين على أن نسأل - لماذا؟ لماذا كان اليهودُ مكروهين؟ لماذا وقف الشعب الأوروبي ضدّ جيرانهم؟ لماذا يُواجَه اليهود بالكراهية في الشرق الأوسط ، فبالتأكيد كانت لديهم الفرصة كي يفتحوا صفحة جديدة في تاريخهم المضطرب؟ لو أنهم سعوا بصدق إلى القيام بذلك ، كما زعم الصهاينة الأوائل ، فلماذا فشلوا؟ لماذا شددت أميركا قوانين الهجرة إليها وسط الخطر المتنامي الذي كان يهود أوروبا عرضةً له؟ علينا أيضاً أن نسأل ما الغرض من وراء قوانين إنكار الهولوكوست؟ ما هي ديانة الهولوكوست هناك التي يتعين إخفاؤها؟ مادمنا عاجزين عن طرح أسئلة ، سوف نظلّ خاضعين لجماعات الضغط الصهيونية ومؤامراتها . وسنواصل القتل باسم المعاناة اليهودية . وسوف نظل شركاء في الجرائم الإمبريالية الغربية .

الفصل ٢٢
الوجود في الزمن

قد يشعر المرء بالحيرة والارتباك حين يدرك أنه بعد ثلاث سنوات فقط من تحرير معتقلي أوشفيتز (١٩٤٥) قامت الدولة اليهودية المتشكِّلة حديثاً بعملية تطهير عرقي للغالبية العظمى من السكان الأصليين في فلسطين (١٩٤٨) . وبعد خمس سنوات فقط من نهاية الحرب العالمية الثانية ، أحيت الدولة اليهودية قوانين العودة التي تنطوي على تمييز عنصري ، وذلك لمنع اللاجئين الفلسطينيين منذ العام ١٩٤٨ من العودة إلى مدنهم وقراهم وحقولهم وبساتينهم . هذه القوانين ، التي لا تزال نافذة حتى يومنا هذا ، لا تختلف أبداً عن قوانين نورمبيرغ النازية سيّئة الصيت .

ويستحق انعدام الرحمة المؤسساتي هذا ، والفريد من نوعه ، بعض الاهتمام . قد يتوقع المرء بأن يضع ضحايا القمع والتمييز أنفسهم في طليعة المعركة ضد الشرّ . وقد يتوقع المرء ألا يجلب ضحايا القمع والتمييز القدَر ذاته على الآخرين . بيد أن هذا التوقع لم يتحقق فيما يتعلق بالدولة اليهودية . فمع وجود الملايين من الفلسطينيين تحت الحصار ، أكسبت إسرائيل نفسها سمعة دولة منبوذة .

كيف حدث وأنْ فشل الخطاب السياسي والأيديولوجي اليهودي فشلاً ذريعاً في استخلاص الدرس الواضح والضروري من التاريخ ، ومن التاريخ اليهودي على وجه الخصوص؟ كيف حدث أنه ، وعلى الرغم من أن «التاريخ اليهودي» عبارة عن حكاية لا نهاية لها من المعاناة اليهودية ، تبدو إسرائيل وجماعات الضغط الخاصة بها متبلّدة الإحساس تماماً إزاء أي تفكير أخلاقي أو عالمي؟ كيف صادف أنه ، وعلى الرغم من الهولوكوست ، تستثمر إسرائيل وجماعات الضغط اليهودية طاقة

هائلةً في إثارة الكراهية تجاه أعداء إسرائيل ويهود العالم؟

كما ناقشنا آنفاً ، ضمن سياق الأيديولوجيا وسياسة الهوية اليهودية ، لا يلعب التاريخ دوراً إرشاديّاً .

وكما بيّن زاند ، بدلاً من التاريخ ، زوّدت التوراةُ اليهوديةَ الحاخاميةَ بحبكة تقوم على بواعث روحية ، بحيث عكست صورةً من الهدف والقدر . غير أن الأشياء تغيرت في القرن التاسع عشر . فنظراً للإعْتاق المتسارع ليهود أوروبا بموازاة تنامي القومية وروح التنوير ، شعر يهود أوروبا المندمجون بأنهم ملزَمون بإعادة تعريف بدايتهم بالمعنى العلماني والقومي والعقلاني ؛ وها هنا عندما «اخترع» اليهود أنفسهم كـ«شعب» وكـ«طبقة» . وكالأمم الأوروبية الأخرى ، لقد شعر اليهود بالحافز لامتلاك رواية مترابطة منطقياً .

إن اختراع التاريخ ليس جريمة تماماً - فالناس ، والهيئات والأمم غالباً ما يقومون بذلك . إلا أنه ، وعلى الرغم من عملية الاندماج المتسارعة ، فقد فشلت السياسة والأيديولوجيا العلمانية اليهودية في احتواء المعنى الحقيقي للفكر التاريخي . الحقّ يقال إن اليهود العلمانيين المندمجين نجحوا تماماً في التخلي عن الإله ، كما تمكنوا من التخلص من معرِّفاتهم الرمزية مثل القلنسوة والقفطان . ومع ذلك ، فشل اليهود المندمجون في استبدال اللاهوت بإدراك ميتافيزيقي وأخلاقي بديل محوره الإنسان .

في الواقع ، كانت الهوية السياسية اليهودية المولودة حديثاً سريعةً في اختراع التاريخ . على أنه لم تتم رصد أية محاولة يهودية واحدة لاستبدال الإله بنظام أخلاقي علماني يهودي إنساني التوجّه[1] . باختصار ، حين يقدم دعاة الإنسانية العلمانيون اليهود المواعظ لنا باسم «القيم اليهودية» ، من الأفضل أن نتحداهم ونتحقّق من القيم التي يشيرون إليها .

(١) لقد كانت الصهيونية ، في الواقع ، الأيديولوجيا العلمانية اليهودية الوحيدة التي كانت أقرب ما يكون إلى شيء يشبه كياناً أصيلاً ومستقلاً بذاته للتفكير الأخلاقي العلماني اليهودي . كما ناقشنا آنفاً . وعدت الصهيونية بأن تضع يهودياً متحضّراً وأخلاقياً .

الزمانية

مؤخراً فقط فهمتُ بأن المشروع العلماني اليهودي ليس دخيلاً على التاريخ والتفكير الأخلاقي فحسب ، وإنما مفصول فعلياً عن مفهوم الزمانية .

إن الزمانية ملازمة للشرط الإنساني . فـ«أن تكون» هو «أن تكون في الزمن» . فنحن عالقون بين الماضي الذي ينجرف بعيداً نحو الفراغ والمجهول الذي يتقدّم نحونا من المستقبل . من خلال الحاضر ، ما يطلق عليه «هنا والآن» ، نتأمل الماضي ونأمل في المغفرة . إن الأخلاق كما يعكسها الأمر الأخلاقي المطلق لإيمانويل كانْط ، مرتبط أيضاً بالزمانية : «تصرّف فقط بناء على ذاك المبدأ الأساسي بحيث يمكن لسلوك ما ، بل ويجب ، أن يصبح قانوناً عاماً» . يعاين كانْط الفعل الأخلاقي فيما يتعلق بمنظوره الزماني ، حيث يُنظر إلى القانون العام من منظور المستقبل والماضي . ويمكن النظر إلى الأخلاق والزمانية كحوار لا نهاية له بين «الأمس» و«الغد» .

يتعين فهم الحاضر كصيغة ديناميكية إبداعية حيث يخطِّط الماضي لمستقبله . لكن الأهم من ذلك ، فإن الحاضر أيضاً هو حيثما يستطيع المستقبل المتخيَّل أن يعيد كتابة ماضيه . سأحاول أن أوضِّح هذه الفكرة من خلال سيناريو حرب بسيط وفرضي ، وإن كان مروِّعاً . نستطيع أن نتخيل على سبيل المثال وضعاً رهيباً يتم فيه تصعيد ما يُطلق عليه هجوم نووي إسرائيلي «استباقي» على إيران ليتحوّل إلى حرب نووية كارثية ، حيث يلقى عشرات الملايين من الناس حتفهم . أعتقد أنه من بين الناجين من هذا السيناريو الكابوسي ، قد يكون البعض من الجسارة بما يكفي ، بحيث يجادلون بأنّ «هتلر لعله كان محقاً في نهاية المطاف .»

من الواضح أنّ ما سبق هو سيناريو خيالي ، وقطعاً ليس من باب التمنّي ، ومع ذلك فإن مثل هذا التصوّر لهو تطوّر مريع «محتمل» يجب أن يعمل على كبح أي اعتداء إسرائيلي أو صهيوني على إيران . كما نعرف ، كثيراً ما يهدِّد مسؤولون إسرائيليون بتدمير إيران وتسويتها بالأرض . عملياً ، يجعل

الإسرائيليون المصابون بمتلازمة إجهاد ما قبل الصدمة هذا السيناريو المدمِّر واقعاً ممكناً .

فيما يبدو ، يعجز السياسيون الصهاينة والإسرائيليون عن رؤية أفعالهم في ضوء التاريخ . تراهم يفشلون في النظر إلى أفعالهم لجهة العواقب المترتبة عليها . من منظور أخلاقي ، فإن السيناريو «المتخيَّل» أعلاه موجود لمنع إسرائيل من شن هجوم على إيران . غير أنه ، وكما نعرف ، فإن إسرائيل وجماعات الضغط الخاصة بها مستميتة لتفكيك ما يوصف بـ«التهديد الإيراني» . وتعليلي لذلك بسيط . فالدولة اليهودية والخطاب اليهودي عموماً لا علاقة لهما على الإطلاق بمفهوم الزمانية . إن إسرائيل عمياء تماماً إزاء عواقب أفعالها ، ولا تفكر في أفعالها إلا من خلال البراغماتية قصيرة الأجل . وبدلاً من الزمانية ، ينصبّ تفكير إسرائيل على حاضر ممتدّ .

ينطوي استيعاب مفهوم الزمانية على القدرة على قبول أن تتم صياغة الماضي ومراجعته في ضوء البحث عن معنى . إنّ التاريخ ، والتفكير التاريخي ، هما المقدرة على إعادة التفكير في الماضي والمستقبل .

إلى حدٍّ ما ، تُعدّ مراجعة التاريخ وتنقيحه الجوهر الحقيقي للتفكير التاريخي ، ذلك أنها تعيد صياغة الماضي من منظور مستقبل متخيَّل ، والعكس صحيح . إن المراجعة التنقيحية أو التصحيحية متضمَّنة في أعمق فهم ممكن للزمانية ، ما يجعلها بالتالي متأصِّلة في البشرية وفي الفلسفة الإنسانية . ومن الواضح أن أولئك الذين يعارضون المراجعة التصحيحية التاريخية يعملون ، في الواقع العملي ، ضد أسس الإنسانية .

ولا تلتقي وجهة النظر الفلسفية هذه كثيراً والخطاب اليهودي وسياسة الهوية ، فالأيديولوجيا اليهودية والخطاب اليهودي يعارضان صراحةً المراجعة والتنقيح . على غرار تعاليم الديانة اليهودية ، فإن السياسة اليهودية موجودة لتعديل وتعزيز رواية ما ، علاوة على تكريس المصطلحات ، كما قد تعارض أية مراجعة تاريخية أو عملية إصلاحية . وتقدم الأيديولوجيا الصهيونية نفسها

كرواية تاريخية ، وقد تطلّب الأمر مني سنوات عديدة كي أستوعب أن الصهيونية والأيديولوجيا وسياسة الهوية اليهودية تشكّل فعلياً اعتداء فجاً وفظاً على التاريخ ، وعلى مفهوم التاريخ والزمانية . في الواقع ، تعدّ السياسة القومية اليهودية محاولةً لوضع شعب إسرائيل ما وراء الزمانية التاريخية . وما إن يتم ترسيخ الماضي اليهودي وختمه بختم الغلق بإحكام ، حتى يمكننا استنتاج المُقَدَّر والعمليات التي تستتبع ذلك : فمن منظور صهيوني ، يجب على يهود الدياسبورا الالتزام بمشروع العودة إلى الوطن ودعمه ، ويتعين على الشعب الفلسطيني إخلاء المكان ، كما ينبغي على القوى الغربية تمويل العملية كلها ، وهكذا . مثل هذه الرؤية تُقصي أتباعها عن الزمانية والمبادئ الأخلاقية . أولئك الذين لا يزالون يصرون على انتقاد شرعية الحجة الصهيونية يتم إخراسهم . وأولئك الذين يتبعون الفلسفة السياسية اليهودية والصهيونية محكوم عليهم بالانجراف بعيداً عن البشرية والنزعة الإنسانية .

مثل هذا التوضيح يبدأ بتسليط الضوء على السلوك الإسرائيلي والدعم اليهودي لجرائم الحرب الإسرائيلية .

على أن اختراع الماضي لا يشكّل المسألة الأكثر مدعاةً للقلق حين يتعلق الأمر بإسرائيل والصهيونية . فكما ذكرتُ آنفاً ، يميل الناس والشعوب إلى اختراع ماضيهم . لكن احتفاء المرء بماضيه الوهميّ على حساب الآخر لَيعدّ قطعاً قضية أخلاقية ، وفي حالة إسرائيل فإن المشكلة تأخذ منحى أبعد . فالأمر له علاقة بالمسعى لطيّ صفحة الأمس الذي أدى إلى الانهيار الأخلاقي الجمعي لإسرائيل والحشد المؤيِّد لها . بدلاً من الاحتفال بالحياة من خلال التحول في المعاني ، وُجدت الصهيونية لتقدّم وعداً بالخلاص عبر قبول رواية فردية على نحو أعمى . لقد وعدتْ بأن تضع نهايةً لـ«التيه» . وعدت بأن توجِدَ «يهودياً جديداً» ، كائناً متحضراً ، شخصية أخلاقية . ومن خلال اختلاق ماضٍ زائف ، غير قابل للتغيير ، سعت الصهيونية إلى منح اليهود خلاصاً سرمدياً عبر مشروع للعودة إلى الوطن يتسم بكونه إقصائياً وعنصريّ التوجّه . يتعين فهم السياسة

اليهودية عموماً ، والصهيونية خصوصاً ، كمحاولتين لوضع شعب إسرائيل ما وراء الزمانية . لقد اخترع حزب البوند الأوروبي الشرقي الماركسي «القوميةَ اليديشية» التي كان يفترض بها أن تنقذ اليهود من خلال الثورة الشيوعية ، فيما اخترعت الصهيونية المنفى اليهودي بغية خلق ذريعة لـ«العودة للوطن» . ما إن يتم تثبيت الماضي اليهودي وإرسائه مع حظر أية عملية مراجعة ، حتى يصبح المصير اليهودي مسألة استنتاج منطقي ؛ وها هنا أيضاً يتلاشى التعاطف والمبادئ الأخلاقية .

إن إقصاء الزمانية ، أي انعدام المقدرة على تأمل المرء ذاته من المنظور المستقبلي ، ليفسِّر التواطؤ الجمعي الإسرائيلي في بعض جرائم الحرب الفظيعة التي ارتكبها الإسرائيليون . ويجب أن يكون هذا كافياً لتوضيح لماذا قام الإسرائيليون بتقطيع الأرض المقدسة بجدران فصل وأسلاك شائكة . كما يوضح لماذا أسقط الإسرائيليون قنابل الفسفور الأبيض على جيرانهم القريبين منهم ، الذين كانوا يسعون إلى الاحتماء في أحد ملاجئ الأمم المتحدة . كما يفسر أيضاً لماذا انتهى الأمر بأفراد كوماندوز من قوات النخبة في البحرية الإسرائيلية إلى قتل ناشطي السلام على متن سفينة «مافي مرمرة» في أعالي البحار . ويفسّر كذلك لماذا سارعت إسرائيل ، المولودة حديثاً ، إلى طرد الغالبية العظمى من الفلسطينيين ، السكان الأصليين للبلاد ، بعد ثلاث سنوات فقط من تحرير معتقلي أوشفيتز . هذه الأحداث لا علاقة لها بالطبيعة الكولونيالية للدولة اليهودية ، كما يصرّ بعض المنظرين الأيديولوجيين الماركسيين . قد تكون مرتبطة بالأيديولوجيا العنصرية الاستعلائية الشوفينيّة التي تغذّي الصهيونية ، ولابدّ من استيعابها من منطلق فلسفي وميتافيزيقي . لا نتحدّث هنا عن علم الاجتماع أو علم النفس أو الحتمية المادية ، وإنما نبحث فعلياً عن فهم قاطع .

إن الناس الذين يتحدّون المعنى الحقيقي للتاريخ يُقصوْن عن الزمانية . والناس الذين لا يستطيعون مراجعة ماضيهم محكوم عليهم بالفشل في استيعاب مفهوم النتيجة والسببية والأخلاق . إنّ الناس الذين يتحدّون التاريخ

لا ينظرون في المرآة أبداً ؛ فقد كُتِب عليهم أن يعتقدوا بأنّ «معاداة السامية» ظاهرة اجتماعية «غير عقلانية» انبثقت «من لا مكان» . تبعاً لذلك ، لابدّ من أن يعتقدوا أن الأغيار مجانين محتمَلون ، مع الأخذ بالحسبان أن الأغيار يشكلون الغالبية العظمى من تعداد البشر .

إن ذاك الذي يُطلَق عليه «التاريخ اليهودي» هو في الواقع محاولةٌ مستمرّة لرواية الماضي من تلك النقطة من الزمن التي يتم فيها رصد الألم اليهودي . أستطيع أن أجادل بأن المقاربة الزمانية الملائمة هي أن نسأل : ما الذي تسبّب في كل ذاك القدر من الكراهية لشعب إسرائيل؟ بل قد أذهب أبعد ، بحيث أتساءل : هل يوجد أي شيء نعرفه في الوقت الراهن عن الثقافة اليهودية يمكن أنْ يُساعدنا في فهم الماضي اليهودي والمعاناة اليهودية؟ هل يمكن أن يسلّط السلوك الإسرائيلي الضوء على الأحداث التي أدت إلى الهولوكوست أو حوادث أخرى من اضطهاد اليهود؟

إن التشبّثَ الحثيثَ بأمسٍ وهميّ مختَرَع يهدف إلى إعطاء الانطباع المزيَّف والمضلِّل جداً بأن الغد يمكن تحديده أو تقريره أيضاً . وعلى ما يبدو ، فإنه من خلال العمَى المفروض ذاتياً ، قادت إسرائيل نفسها إلى كارثة لا مناص منها . من الواضح أن الصهيونية فشلت في توفير جواب فيما يتعلق بالمسألة اليهودية . على أنه من الممكن أن الظروف التي أوجدتها حركاتُ التنوير والليبرالية والإعتاق لا يمكن التعاطي معها بسهولة ، من خلال أي شكل من أشكال الجماعيّة السياسية اليهودية باستثناء الأرثوذكسية ، التي تعدّ مغلقةً أو منيعةً إلى حدٍّ كبير إزاء التنوير والليبرالية والفردانية والإعتاق مجتمعة . فإذا كان هذا هو واقع الحال فعلياً ، فإن الجماعيّة العلمانية اليهودية لتعدّ كارثية ؛ إذ نصل إلى نهاية هذا النصّ ، يبدو كما لو أنه لا يمكن تعزيز أو دعم الخطاب السياسي والأيديولوجي والهوية للفئة الثالثة .

غير أن إسرائيل ليست وحدها في ذلك . فقد تمكنت أميركا وبريطانيا من التخلّي بإرادتهما عن الزمانية ، وهو أمر يبدو مأساوياً . إنّ عدم وجود خطاب

تاريخي حقيقي هو ما جعل بريطانيا وأميركا تتوقفان عن فهم مستقبلهما وحاضرهما وماضيهما . وكما في حالة التاريخ اليهودي ، يصرّ السياسيون الأميركيون والبريطانيون على رواية تاريخية مبتذلة وتبسيطية تتعلق بالحرب العالمية الثانية والحرب الباردة والإسلام وأحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول وما إلى ذلك . المفجع أن الإبادة الأنجلوأميركية الإجرامية في العراق وأفغانستان ، التي يُشار إليها بـ«الحرب على الإرهاب» ، تشكّل استمراراً للعمى الذي تسببنا به لأنفسنا . ولّما كانت بريطانيا وأميركا قد فشلتا في استيعاب الرسالة الضرورية من المجازر التي ارتُكبت في هامبورغ ودريسدن ، وناغازاكي وهيروشيما ، لم يكن ثمة ما يمكن أن يوقف الإمبريالية «الناطقة بالإنجليزية»عن مواصلة ارتكاب جرائم مماثلة في كوريا وفيتنام وأفغانستان والعراق . بالمثل ، فإن كلاً من بريطانيا وأميركا بوغتت تماماً أمام انتفاضة إقليمية شهدتها منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا ، حيث كانتا غير مستعدتين على الإطلاق للتعامل معها . لقد بلغ النفور من الغرب مداه وحصد ضريبته ، فالقيادة السياسية الغربية منفصلة تماماً عن التفكير الإنساني أو الأحكام التي تشتمل على مبادئ الأخلاق .

كل ما على أميركا وبريطانيا والغرب القيام به كي ينقذوا أنفسهم هو العودة إلى القيم الغربية لمبادئ الأخلاق والانفتاح . يتعين عليهم الابتعاد عن القدس ، واستعادة روح أثينا .

النهاية

آمل بأن يسلّط هذا الكتاب بعض الضوء على مسائل تتعلق باليهودية والأيديولوجيا اليهودية ، والهوية والسياسة . وبما أنني فكّرتُ في هذا الموضوع وكتبتُ عنه لأكثر من عقد من الزمان ، وبالعودة إلى كتاباتي ، فإنني أدرك بأنّ «مناهضي الصهيونية» اليهود هم الذين علّموني فعلياً عن الصهيونية والقومية اليهودية والقبلية أكثر من أي صهيوني متطرّف أو قومي إسرائيلي .

وبينما تغصّ كل من الصهيونية والاشتراكية اليهودية بالتناقضات ، يمكن

فهم الصهيونية بوصفها محاولة لتسوية الشذوذ في الوضع اليهودي . من جهة أخرى ، يشكل ما يوصف بالخطاب اليهودي التقدّمي محاولةً لإخفاء التناقضات والتضاربات الأيديولوجية (القبلية إلى حد كبير مقابل العالمية) تحت السجادة .

وبقدر ما يستكشف هذا الكتاب جوانب مختلفة من الاضطراب العصبي اليهودي السياسي ، وقد يساعد في فكّ الصلة بين إسرائيل واليهود عبر العالم ، إلا أنه يفشل في الإجابة عن سؤال واحد : ما الذي يريده اليهود المنعتقون الحديثون؟ بالنظر إلى الطاقات والموارد التي تصبّها جماعات الضغط في الأحزاب السياسية حول العالم ، والجهود المبذولة للتأثير في وسائل الإعلام والقيادة ، من غير الواضح بتاتاً ما الذي يحاول أشخاص على شاكلة اللورد ليفي وحاييم سابان تحقيقه ، فهم ينفقون أموالاً طائلة ، لكن ما الذي يحاولون شراءه؟ ما الذي تحاول إسرائيل هي نفسها أن تحققه؟ كلما اكتسبت جماعات الضغط الإسرائيلية واليهودية نفوذاً أكبر ، تنامى الامتعاض من اليهود . أهو «الأمن» ما يسعون إليه ، كما يقولون؟ لا أعتقد ذلك حقاً .

إحدى الإجابات هي أن اليهود لا يتفقون فيما بينهم بشأن ما الذي يناسب اليهود . في العام ٢٠٠٣ ، آمن الصهاينة ، على سبيل المثال ، أن إرسال الولايات المتحدة وبريطانيا لتدمير العراق أمرٌ «جيد لليهود» . أما مناهضو الصهيونية من اليهود فكانوا مقتنعين بأن معارضة الحرب ذاتها «كيهود» لهو أفضل شيء يمكن أن يقوم به اليهود لأنفسهم . في حين كان اليهود الانهزاميون ، ولا يزالون ، مقتنعين بأن غضّ الطرف عن الموضوع من أساسه ، مشيحين بأبصارهم بعيداً عنه ، هو أفضل شيء بالنسبة لليهود .

سواء أكان اليهود يعرفون ما هو «جيد بالنسبة لليهود» أم يمكنهم الاتفاق على هذا الأمر يظلّ سؤالاً مفتوحاً ، بيد أنّ التماهي سياسياً كيهودي ، والتساؤل بشأن ما هو «جيد بالنسبة لليهود» ليشكّل الجوهر الحقيقي **للتفكير القبلي** اليهودي وهوية الفئة الثالثة . من هذه النقطة بدأتُ هذا الكتاب ، وعندها ، كما هو واضح ، أنهيه .

خاتمة

كنــتُ أتمنى أن أخلص في خاتمة هذا الكتاب إلى فكرة إيجابية ، بحيث أقترح حلاً عملياً . لكن هذا ليس بالأمر السهل . فالاستثنائية الأيديولوجية والثقافية اليهودية لم تترك للخطاب السياسي اليهودي أي أمل أو مستقبل .

كإسرائيلي شاب ، آمنتُ بالمبادئ الصهيونية ، واعتبرتُ نفسي جزءاً لا يتجزأ من المشروع الإحيائي اليهودي الحديث . لقد رأيتُ نفسي باعتباري جزءاً من التاريخ اليهودي ، كما رأيتُ التاريخ اليهودي امتداداً لذاتي . كإسرائيلي شاب ترعرعتُ في حقبة ما بعد العام ١٩٦٧ ، رأيتُ نفسي والناس من حولي كوعي جمعيّ ناشئ ، نخوض معركةً ثوريةً من أجل العدالة التاريخية .

احتجتُ بعض الوقت قبل أن أدرك بأن مشروعي الإحيائي التاريخي كان في الواقع سلسلةً من البقع العمياء . لقد استغرق الأمر مني سنوات كثيرة كي أفهم أنني أنا نفسي كنتُ بقعةً عمياء . أذكر زيارتي المدرسية ، حين كنتُ طالباً في الثانوية ، إلى ياد فاشيم ، متحف الهولوكوست الإسرائيلي في القدس الكائن بالقرب من دير ياسين ، وهي قرية فلسطينية تمّ محو سكانها في العام ١٩٤٨ . كنتُ في الرابعة عشرة من عمري يوم زرتُ المتحف ، سألتُ المرشدة العاطفية ما إذا كان بإمكانها أن تفسّر حقيقةَ أن كثيراً من الأوربيين كانوا يكنون قدراً كبيراً من البغضاء لليهود في أماكن عدة في الوقت عينه . فتمّ فصلي من المدرسة مدة أسبوع . ويبدو أنني لم أتعلّم الدرس اللازم ، ذلك أننا حين درسنا

«فرية الدم»[١] في القرون الوسطى ، تساءلتُ ثانيةً ، بصوت مرتفع ، كيف للمدرِّس أن يعلم أن هذه الاتهامات لليهود بأنهم كانوا يقومون بصنع خبز الفطير (متساه) من دماء أطفال الأغيار كانت فعلياً باطلة أو لا أساس لها . مرة أخرى ، تم فصلي من المدرسة مدة أسبوع . في سني مراهقتي ، كنتُ أنفق معظم صباحاتي في البيت بدلاً من الوجود في الصفّ المدرسي .

وبقدر ما كنت نزّاعاً إلى الشكّ وأنا يافع ، كنتُ مرعوباً أيضاً من الهولوكوست . في سبعينات القرن الماضي ، كان الناجون من الهولوكوست جزءاً من مشهدنا الاجتماعي . لقد كانوا جيراننا ، التقيناهم في تجمّعاتنا العائلية ، في الصف المدرسي ، في السياسة ، في المحلّ على الناصية . لقد كانوا جزءاً من حياتنا . الأرقام الداكنة الموشومة على أذرعهم البيضاء لم تبهت أبداً . ولطالما كانت تجعل القشعريرة تسري في أبداننا . إلا أنني يجب أن أشير إلى أنني بالكاد أتذكر ناجياً واحداً من الهولوكوست حاول أن يتلاعب بي عاطفياً . مؤخراً ، تحدثتُ إلى صديق اسكتلندي تبرّع للعمل في كيبوتس[٢] في

---

(١) «فرية الدم» أو «تهمة الدم» : هي اتهام اليهود بأنهم يقتلون أطفالاً (مسيحيين تحديداً) ، في عيد الفصح سخرية واستهزاء من صلب المسيح ، وخاصة أن عيدي الفصح المسيحي واليهودي قريبان . وتطورت التهمة حيث أصبح الاعتقاد بأنّ اليهود يستعملون دماء ضحاياهم في شعائرهم الدينية وفي أعيادهم ، فأشيع أن خبز الفطير غير المخمَّر المعروف باسم «متساه» يتم عجنه بدماء الأطفال المسيحيين الذين يذبحونهم . (نقلاً عن **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**- المترجمة) .

(٢) الكيبوتس : كلمة عبرية معناها «تجمع» أو «تكتل» وجمعها «كيبوتسيم» ، وهو تجمع استيطاني تعاوني ، اعتمد في الأساس على النشاط الزراعي ، حيث يعتبر الكيبوتس نواة الاستيطان الصهيوني في فلسطين ، وظل ما قبل احتلال فلسطين وما بعدها من أهم المؤسسات السياسية والاجتماعية داخل الكيان الصهيوني . ومع أن الكيبوتس تنظيم اقتصادي اجتماعي في ظاهره إلا أنه عمل على توليد جماعات وظيفية شبه عسكرية . وتلتزم الكيبوتسات في إسرائيل بالخط الصهيوني وتدين بالولاء للحركة الصهيونية . (المترجمة)

سبعينات القرن الماضي . ولقد عُرف ذاك الكيبوتس بوجود نسبة مرتفعة من الناجين من الهولوكوست بين سكّانه . قال صديقي الاسكتلندي لي إنه استمتع حقاً بالوقت الذي أمضاه هناك ، وهو يعمل ويتحدث مع أولئك الناجين . كانوا هادئين ومهذّبين إلى حدّ كبير ، ولم يستخدموا ماضيهم كذريعة للشهرة . لقد كان الإسرائيليون الشبان هم الذين لم يطقْهم . وما حصل معي مشابه جداً – ففيما يتعلق بتجربتي الشخصية في هذا الجانب ، فإنّ الأبناء والبنات والأحفاد المزعومين للناجين هم الذين يستغلون الهولوكوست كحجة سياسية ، أو كذريعة للحصول على شكل من أشكال الاستثنائية .

لا يجانب المؤرخ الأميركي نورمان فينكلستين الصواب حين يحاجج بأن إسرائيل حوّلت الهولوكوست إلى أداة سياسية بعد العام ١٩٦٧ ، وذلك حين احتاجت إلى عذر «أخلاقي» كمحتلّ غير أخلاقي . يجب أن أعترف بأنني ، حتى كشاب قومي ، لم أرتح لمسألة الهولوكوست . في ذلك الوقت ، اعتقدتُ بأنه لا يتعين على اليهود بأن يتباهوا بأنهم كانوا مكروهين .

لقد كان تَذويت معنى الهولوكوست (بمعنى جعله ذاتياً) هو ما حوّلني في الواقع إلى معارض قوي لإسرائيل ولليهودية . إن الهولوكوست هي التي جعلتني في النهاية مؤيداً مخلصاً للحقوق الفلسطينية والمقاومة وحق العودة للفلسطينيين . في العام ١٩٨٤ ، حين كنت جندياً ، أثناء الزيارة القصيرة التي قمتُ بها إلى معتقل أنصار في لبنان ، أدركتُ أنني كنت أقف في الجانب الخطأ .

قيل لي بأنه يمكن النظر إلى مأخذي النقدي على الصهيونية بوصفه أيضاً إنجازاً صهيونياً عظيماً ، ذلك أن الصهيونية تعهّدت بأن تخلق خطاباً يهودياً «حراً» وعقلانياً وليبرالياً ومنفتحاً . والحقّ أنني كإسرائيلي لا أتردد أو أتراجع ، كما لا ألطِّف كلماتي أو أخفف من حدّتها . وكأن هذا ليس بكافٍ ؛ إذ ليس سراً أنّني أبدو كإسرائيلي ، وأتحدّث كذلك . لعلّ تلك سمات ضرورية لا بدّ منها لاستيعاب العقل الإسرائيلي بالإضافة إلى السياسة والهوية

والثقافة الإسرائيلية . من بين الأصوات المنتقدة لإسرائيل واليهودية ، والتي تعد الأكثر إنتاجية ، سوف تجد إسرائيليين وإسرائيليين سابقين مثل إسرائيل شاحاك[1] ، وإسرائيل شامير[2] ، وجدعون ليفي[3] ، وشمعون

---

(١) إسرائيل شاحاك : (١٩٣٣-٢٠٠١) ، ناشط وكاتب إسرائيلي ، عمل أستاذاً للكيمياء في الجامعة العبرية في القدس ، عُرف بكتاباته التي وجه فيه انتقادات حادة للصهيونية و«اليهودية الكلاسيكية» . وكان من أشد منتقدي الاحتلال الإسرائيلي وممارساته في الأراضي الفلسطينية ، متناولاً في كتاباته مصادرة الأراضي وتدمير البيوت وتعذيب الأسرى والعقاب الجماعي والاغتيالات وممارسة سياسية التمييز العنصري ضد الفلسطينيين . روّج شاحاك للنظرية القائلة إن تأويل إسرائيل الديني للتاريخ اليهودي قادها إلى عدم إيلاء أي اعتبار لحقوق الإنسان العربي ، كما حاجج بأن الصهيونية عبارة عن «نظام حكم مبني على التمييز البنيوي والعنصرية» . (المترجمة)

(٢) إسرائيل شامير : (مولود في ١٩٤٧) ، كاتب وصحفي إسرائيلي مثير للجدل ، متهم بأنه معاد للسامية وبأنه «ناكر للمحرقة» ، وهما تهمتان ينفيهما . رفض شامير العبادة المَرضية للهولوكوست ، لافتاً إلى أن ما يثير قلقه هو استخدام اليهود رواية الهولوكوست واستغلالها للترويج لـ«تفوقهم وخصوصيتهم» . وهو من أنصار حل «الدولة الواحدة» (ثنائية القومية) لوضع نهاية للصراع العربي الإسرائيلي . (المترجمة)

(٣) جدعون ليفي : (مولود في ١٩٥٣) ، صحفي وكاتب إسرائيلي يساري ، تركز كتاباته على الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية . وصف جدعون بناء المستوطنات في الأراضي الفلسطينية المحتلة باعتبارها «العمل الأكثر إجرامية في تاريخ إسرائيل» . في العام ٢٠٠٧ ، قال إن محنة الفلسطينيين في قطاع غزة ، تحت الحصار الإسرائيلي ، جعلته يخجل من كونه إسرائيلياً . يدعم ليفي انسحابا إسرائيلياً أحادي الجانب من الأراضي الفلسطينية دون امتيازات لنفسها ، إذ ليس مطلوباً من إسرائيل ، على حد قوله ، أن «تعطي» شيئاً للفلسطينيين ، كل ما هو مطلوب منها هو أن ترجع الأرض التي سرقتها منهم ، إلى جانب حقوقهم الإنسانية الجوهرية . على أن ليفي أعلنها صراحة أنه ضد مقاطعة إسرائيل بسبب ممارساتها . (المترجمة)

صبار[1] ، وشلومو زاند ، وأفراهام بورغ[2] ، وأميرة هاس[3] ،

---

(١) شمعون صبار : (١٩٢٦-٢٠٠٧) ، كاتب إسرائيلي ، شهد فكره تحولاً مطرداً على مدى سني حياته . في يفاعته ، كان عضواً في المنظمات الصهيونية العسكرية الإرهابية الثلاث الأبرز : شتيرن ، وإرغون ، والهاغاناه ، فقاتل ضد البريطانيين والفلسطينيين . وعند إعلان قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ ، التحق بالحزب الشيوعي الإسرائيلي لبعض الوقت . شارك في حروب ١٩٤٨ ، و١٩٥٦ ، و١٩٦٧ . أعرب عن معارضته للاستيلاء على هضبة الجولان والقدس الشرقية واحتلال إسرائيل الضفة الغربية وقطاع غزة في أعقاب حرب يونيو/حزيران . اشتهر بالإعلان الذي نشره في صحيفة هآرتس الإسرائيلية ، الذي وقعه مع ١١ شخصية يؤكدون فيه رفضهم للاحتلال ، حيث جاء فيه : «إن حقنا بالدفاع عن أنفسنا من الإبادة لا يمنحنا الحق في قمع الآخرين . إن الاحتلال يستوجب حكماً خارجياً ، والحكم الخارجي يستدعي المقاومة ، والمقاومة تستدعي القمع ، والقمع يستدعي الإرهاب والإرهاب المضاد ، وضحايا الإرهاب في الغالب أناس أبرياء . والتمسك بالاحتلال سيحولنا إلى أمة من القتلة وضحايا القتلة . فلنخرج من الأراضي المحتلة على الفور .» على الإثر ، ترك صبار إسرائيل واستقر في إنجلترا ، ومات فيها ، حيث طور خلالها أفكاره المناهضة للصهيونية ، وبات من أشد منتقديها بموازاة انتقاده للاحتلال الإسرائيلي . (المترجمة)

(٢) أفراهام بورغ :(مولود في ١٩٥٥) ، كاتب إسرائيلي ، كان رئيساً للكنيست (البرلمان الإسرائيلي) سابقاً ، كما تولى رئاسة الوكالة اليهودية لإسرائيل . عام ٢٠٠٣ ، أثار بورغ جدلاً واسعاً حين نشر مقالة في صحيفة الغارديان البريطانية بعنوان «نهاية الصهيونية» ، دعا فيها إلى الانسحاب من الأراضي الفلسطينية على وجه السرعة . عام ٢٠٠٧ ، اقترح بورغ إجراء تعديل على «قانون العودة» ، موضحاً بأن «تعريف دولة إسرائيل كدولة يهودية هو مفتاح نهايتها ، فالدولة اليهودية قابلة للانفجار ، فهي بمنزلة ديناميت .» على أنه ، وجراء النقد العنيف الذي تعرض له ، تراجع بورغ عن مقولته ، داعياً إلى تعريف إسرائيل ليس كـ«دولة يهودية» ، وإنما بوصفها «دولة لليهود» . (المترجمة)

(٣) أميرة هاس : (مولودة في ١٩٥٦) ، كاتبة وصحفية إسرائيلية بارزة محسوبة على «اليسار الإسرائيلي» ، تشتهر بمقالاتها في صحيفة هآرتس ، من منظور متعاطف مع الفلسطينيين . كرست تغطيتها وكتاباتها الصحفية عن الوضع الفلسطيني ، من داخل الأراضي الفلسطينية ، وذلك منذ العام ١٩٩١ ، ==

ويوري أفنيـري ، وتالي فـهـيـمـة[1] ، ومـردخـاي فـعنونو[2] ، ونوريت بليـد

== جراء ما وصفته بالتغطية غير الموضوعية لوسائل الإعلام الإسرائيلية للانتفاضة الفلسطينية الأولى (١٩٨٧) . اعتباراً من العام ٢٠٠٣ ، أصبحت هاس الصحفي الإسرائيلي الوحيد الذي عاش مع الفلسطينيين أطول وقت ممكن (في غزة من عام ١٩٩٣ ، ومن رام الله من عام ١٩٩٧) . ومؤخراً ، قارنت السياسة الإسرائيلية إزاء الفلسطينيين بتلك التي كانت قائمة إبان نظام الأبارتيد العنصري في جنوب إفريقيا . (المترجمة)

(١) تالي فهيمة : (مولودة في ١٩٧٦) ، ناشطة سلام إسرائيلية ، من عائلة يهودية ذات أصول مغربية . خدمت في شبابها في الجيش الإسرائيلي ، وحتى العام ٢٠٠٣ كانت مؤيدة لحزب الليكود اليميني ، إلى أن قرأت مقابلة مع زكريا الزبيدي ، أحد قادة كتائب شهداء الأقصى في جنين ، شرح فيها كيف تحول من ناشط سلام ينبذ العنف إلى مقاوم مسلح ، فعثرت على رقم هاتف الزبيدي واتصلت به مرات عدة ، ثم ذهبت إلى جنين وعاشت في بيت الزبيدي لتكون درعاً بشرياً لحمايته بعدما علمت أنه على قائمة الاغتيالات الإسرائيلية . اعتقلت فهيمة عام ٢٠٠٤ ثم أدينت بتهمة «مساعدة العدو في زمن الحرب» وتأييد «منظمة إرهابية» ، حيث حكم عليها بالسجن سنوات عدة قبل أن يطلق سراحها في العام ٢٠٠٧ ، مع وضع قيود على تحركاتها واتصالاتها . تركت فهيمة عائلتها وانتقلت للعيش في قرية عرعرة الفلسطينية . وفي العام ٢٠١٠ أشهرت إسلامها . (المترجمة)

(٢) مردخاي فعنونو : (مولود في ١٩٥٤) ، خبير نووي إسرائيلي ، عمل في مفاعل ديمونة الإسرائيلي ، وقام بتسريب صور ومعلومات حيوية عن برنامج إسرائيلي النووي للصحافة البريطانية في العام ١٩٨٦ ، حيث كان قد عُرف قبلها بنشاطاته اليسارية وآرائه المعلنة ضد تطوير واستخدام أسلحة الدمار الشامل . نصب له عملاء الموساد الإسرائيلي كميناً في إيطاليا ، فتم تخديره وخطفه ، ومن ثم ترحيله إلى إسرائيل ، حيث أدين بتهمة الخيانة ، وحكم عليه بالسجن ١٨ عاماً ، أمضى منها ١١ عاماً في السجن الانفرادي . أطلق سراحه عام ٢٠٠٤ ، مع فرض قيود مشددة على تحركاته وتصريحاته ، اعتقل بعدها مرات عدة بسببه «انتهاكه القيود المفروضة عليه» . وكان فعنونو قد تخلى عن يهوديته واعتنق المسيحية في العام ١٩٨٦ . (المترجمة)

الحنـــان(١) ، وبضعة آخرين . أعتقد أنه لابد من أن ثمة شيئاً ما إيجابياً في الإرث الصهيوني بما أنه نجح في حشد العديد من الأصوات النقدية . إلى ذلك ، تحاول وسائل الإعلام الإسرائيلية باستمرار أن تجعلني أنخرط في النقاش . يبدو أنه لا يزال هناك عنصر من الانفتاح في الخطاب الصهيوني .

كيهودي إسرائيلي علماني شاب ، آمنتُ بحماسة بإمكانية تحوّل الشخصية اليهودية إلى «جماعة إنسانية أصيلة متحضِّرة» . لقد صدّقت نفسي بأنني كذلك . ثم استوعبتُ من خلال عملية طويلة ومؤلمة بأن إسرائيل لن تصنع يهودياً إنسانياً ؛ فهي متورِّطة في خطيئة كُبرى ، وهي من الغطرسة بحيث لا تستطيع أن تنقذ نفسها من ظروفها المحتومة . أدركتُ بأنه إذا كنتُ متحمِّساً حقاً لنمط حياة الأغيار ، من الأفضل بالنسبة لي أن أترك إسرائيل ، بحيث أعيش وسط الأغيار ، بل أحاول أن أكون أحد الأغيار . وهذا ما فعلته . حتى اليوم ، لم أتطلّع إلى الوراء بتوْق . بل إنني وبكل فخر أمتلك التناقضات القليلة التي تمكنتُ من الاحتفاظ بها .

أعتقد أن ترك هذا الكتاب دون سعي للسلام والمصالحة قد يشكل فرصة ضائعة . لا حاجة للقول إنني لا أحبس أنفاسي ترقباً لأيِّ حل قد يتأتّى من أية «محادثات سلام» .

تخيلوا رئيس وزراء إسرائيلياً يستيقظ ذات صباح مُشْمِس بتصميم غير

---

(١) نوريت بليد الحنان : كاتبة وناشطة إسرائيلية ، أستاذة اللغة والتربية والتعليم في الجامعة العبرية في القدس . من أشهر مؤلفاتها كتاب بعنوان **فلسطين في الكتب المدرسية الإسرائيلية : الأيديولوجيا والبروباغندا في التعليم** الصادر في بريطانيا في إبريل/ نيسان ٢٠١٢ ، وفيه تصف الحنان تصوير العرب في الكتب المدرسية الإسرائيلية بوصفه عنصرياً ، حيث يشار إليهم بأنهم «لاجئون ومزارعون بدائيون وإرهابيون» ، لافتة إلى أنه من بين «المئات والمئات» من الكتب ، لا توجد فقرة واحدة تصور العربي كـ«شخص طبيعي» . (المترجمة)

عادي لإرساء سلام حقيقي . في ساعات الصباح الأولى ، تحضره الحكمة ، فيدرك بأن إسرائيل ما هي في الحقيقة إلا فلسطين : فهي ممتدة فوق فلسطين التاريخية على حساب الشعب الفلسطيني ، على حساب عيشهم وتاريخهم . تراه يستوعب أنّ الفلسطينيين هم السكان الأصليون للأرض ، وأن الصواريخ التي يطلقونها ، من وقت لآخر ، ليست سوى رسائل حبّ لقراهم وبساتينهم وكرومهم وحقولهم المسروقة . يدرك رئيس وزرائنا المتخيَّل بأن ما يطلق عليه الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني يمكن حلّه في ٢٥ دقيقة ما إن يوافق كلا الشعبين على العيش معاً . تبعاً للتقليد الإسرائيلي أحادي الجانب ، تتم الدعوة لمؤتمر صحفي متلفز في اليوم ذاته في الساعة الثانية ظهراً . منطلقاً من موقف أخلاقي حقيقي ، يعلن رئيس الوزراء للعالم ولشعبه أنّ «إسرائيل تدرك ظروفها الفريدة من نوعها ومسؤوليتها إزاء السلام العالمي . تدعو إسرائيل الشعب الفلسطيني للعودة إلى بيوتهم . وسوف تصبح الدولةُ اليهودية دولةً لمواطنيها ، حيث يتمتّع كل الناس بحقوق متكافئة كاملة» .

على الرغم من الصدمة من الخطوة الإسرائيلية المفاجئة ، إلا أن المحللين السياسيين حول العالم لن يلبثوا أن يدركوا ، أنه بالنظر إلى أن إسرائيل تمثل يهود العالم ، فإن مثل هذه المبادرة البسيطة لن تحل الصراع في الشرق الأوسط فحسب ، وإنما من شأنها أن تضع نهاية لألفي عام من الشك والاستياء المتبادلين بين المسيحيين واليهود . إلى ذلك ، ينضمّ بعض الأكاديميين والأيديولوجيين والسياسيين الإسرائيليين من الجناح اليميني إلى المبادرة الثورية ويعلنون أن مثل هذه الخطوة الإسرائيلية أحادية الجانب البطولية قد تكون بمنزلة التحقيق الكلي والشامل الوحيد للحلم الصهيوني ، ليس فقط لأن اليهود عادوا إلى موطنهم التاريخي المزعوم ، وإنما لأنهم تمكنوا ، على الأقل ، من أن يحبّوا جيرانهم وأن يحظوا بالحبّ في المقابل .

بقدر ما تبدو هذه الفكرة مثيرة ، إلا أننا يجب ألا نتوقع أن تتحقق قريباً ، ذلك أن إسرائيل هي الدولة اليهودية ، واليهودية أيديولوجيا متمحورة إثنياً ،

مدفوعة بالإقصائية والاستثنائية ، والتفوق العرقي ، ونزعة متأصِّلة عميقاً نحو الفصل العنصري .

كي تكون إسرائيل والإسرائيليون شعباً كالشعوب الأخرى ، يتعين أولاً التخلص من كل آثار التفوق الأيديولوجي اليهودي ؛ وكي تقود الدولة اليهودية مبادرة سلام ، لابد من تجريد إسرائيل من الصهيونية - يجب أن تتوقف عن أن تكون الدولة اليهودية . بالمثل ، لكي يجلب رئيس وزراء إسرائيلي متخيَّل السلام ، عليه أولاً أن يتخلّص من صهيونيته .

حسب الوضع القائم حالياً ، فإن الدولة اليهودية غير قادرة على الإطلاق على أن تقود المنطقة إلى المصالحة ؛ إذ تفتقر إلى المكوِّنات الضرورية اللازمة للتفكير بمنطق التوافق والمصالحة .

الفلسطينيون هم الوحيدون القادرون على صنع السلام ، لأن فلسطين ، على الرغم من كل الظروف المضادة ورغم المعاناة اللانهائية ، والذل والقمع ، لا تزال تشكِّل مجتمعاً مَسكونياً ، من حيث التنوع الديني المتآلف والموحَّد ، مدفوعاً أخلاقياً .

فيما يتعلق باليهود ، تبقى ثمة بضعة أسئلة . هل يمكن تحرير خطاب الهوية اليهودي من الطغيان الأيديولوجي والروحي الذي فرضه على نفسه؟ هل تستطيع السياسة اليهودية أن تنأى بعيداً عن نزعة التفوّق؟ هل يستطيع اليهود إنقاذ أنفسهم؟ إن جوابي بسيط : لكي تجعل الأيديولوجيا اليهودية نفسها عالمية ، ولكي يمضي اليهود قدماً ويقومون بإعتاق أنفسهم ، يتعين القيام بعملية تأمل ذاتي ، صادقة ومفعمة بالحماسة . وما إذا كان يستطيع اليهود الانخراط في مثل هذا المسعى تظل مسألة مفتوحة . على أنني آمل بأن يقدِّم هذا الكتاب بدايةً جيدة إلى حدّ ما .

شكر وتقدير

أودّ أن أُعرب عن امتناني ، على وجه الخصوص ، لوالدتي أريبلا ، التي لم تكن مصدر إلهام فكريٍّ لي فحسب ، وإنما من أقرب الأصدقاء إليّ ، وكذلك لزوجتي تالي وطفَليْ ماي ويان الذين ناقشوا أفكاري وتحدّوها خلال هذه السنوات ، ومع ذلك دعموني وناصروا أسلوب حياتي الغريب على الدوام . أشكر كذلك ماري ريتسو ، التي كانت محرّرتي المخلصة لسنوات عديدة ، وساهمت في وضع الكثير من العناوين الرائعة لنصوصي ، بما فيها عنوان كتابي هذا .

أود أن أشكر كل الأشخاص الذين ساندوني ودعموا كتاباتي وعملي طوال تلك السنوات . وحين كان «تسونامي» الافتراءات الحقودة على وشك اجتياح شاطئي ، تعرفتُ إلى كتائب من الأفراد المتحمِّسين والمدفوعين أخلاقياً ، الذين وقفوا إلى جانبي ومهدّوا الطريق لرحلة قادت في النهاية إلى نشر هذا الكتاب .

أودّ أن أشكر كل تلك الصحف والمجلات ، بالإضافة إلى المحررين والأكاديميين والمشجّعين والأصدقاء والناشطين ، الذين صمدوا بثبات على الرغم من كل الصِّعاب ، وواصلوا نشر كتاباتي ، ودعوني كي أقدِّم حفلاتي الموسيقية ولمناقشة آرائي . أود كذلك أن أعبر عن تقديري لأولئك الذين رحبّوا بعملي ، وزوّدوني بالعديد من وجهات النظر الملهِمة كما وفروا لي دعماً قوياً ، وهم : غريغوري ماريو وايتفيلد ، وألان هارت ، وبول دي رويْ ، ورمزي بارود ، وجيل كفاش ، وكِنْ أوكيف ، ومانويل تالنز ، وناهدة ياسين ، وروي راتكليف ، وفاوستو جوديتشِه ، وكريستوفر لارسن ، ولورا سوسييْن ، وجِفْ بلانكفورت ، وأميليا

تاكر ، وسامح حبيب ، وناديا شاه ، وتيم كينغ ، ولويس شارالمبوس ، وألكسندر كوكبيرن ، وأموس زوكرمان ، وأنطوني لوسن ، وغوردون داف ، وفرانسيس كلارك لويس ، وكريس كوك ، وديفيد ألبين ، وغابي ويبر ، ومسعود ناييري ، ومأمون العباسي ، وجيمس بتراس ، وغلِنْ بومان ، وإيدي هيك ، وبول آيزن ، ولورين بوث ، وويليام دبليو كوك ، وبول لوردي ، ومحمد الدوفاني ، وريتشارد فوك ، وجانيت كوبرِنْ ، وميتش ألبرت ، وبِنْ باستِنْ ، وجيسون بوش ، وجيف سالامت ، وجون تيربسترا ، وجون ميرشايمر ، وريتشارد شارما ، وكثيرون آخرون . وأتوجه بشكر خاص لصديقتي ومساعدتي سارة غيليسبي ، التي وجدت نفسها تناقش الشؤون المتعلقة بسياسة الهوية اليهودية أثناء قطع آلاف الكيلومترات في الطريق إلى الحفلات الموسيقية واستوديوهات التسجيل .

لا يمكنني أن أفوِّت هذه الفرصة دون أن أشكر من صميم قلبي نصف دزينة الماركسيين اليهود الذين سعوا إلى الحطّ من شأني ، والذين ما انفكّوا منذ سنوات يتربّصون بي وبموسيقاي ليل نهار ؛ فمن دون هؤلاء لم أكن لأستوعب العمق الحقيقي للضراوة القبلية . فهؤلاء الذين يُطلق عليهم ناشطون إثنيّون يهود «مناهضون للصهيونية» هم الذين علموني أكثر من أي صهيوني متطرِّف المعنى العمليّ الحقيقي والمدمِّر لسياسة الهوية اليهودية .

آفاق سياسية
POLITICS • THOUGHT

من التائه؟ دراسة في سياسة الهويّة اليهوديّة

يقدّم جلعاد عتسمون في (من التائه؟) نقدًا قاسيا للهويّة والسياسة اليهوديّتين، متوقّفًا عند السمة «القبليّة» للهويّة اليهوديّة، التي أسهمت في تعزيز الصفة العنصريّة الاستعلائيّة، وإثنيّة التمحور اليهوديّة. ويناقش الكتاب جملة قضايا، فيعاين سياسة الهويّة اليهوديّة والأيديولوجيا اليهوديّة المعاصرة متّكئًا على كلّ من الثقافة الشعبيّة والنصوص العلميّة، كما يستعين بالنصّ اللاهوتيّ والإحالات التوراتيّة في تفكيك الأسطورة وتفنيد إسقاطاتها، علاوة على تجريد العديد من المفاهيم من قداستها المزعومة، التي تجعل مجرّد مقاربة بعضها دخولاً في باب التجديف، وذلك كفيل، في الغالب، بوسم المشكّكين والمتسائلين والباحثين المدقّقين و«النابشين» في عظام التاريخ بتهمة «معاداة الساميّة» الجاهزة.

وبما أنّ إسرائيل تعرّف نفسها علنًا بأنها «دولة يهوديّة»، فإنّ تساؤلاً جوهريًا يستتبع هذا التعريف الحصريّ والإقصائيّ، هو: ما الذي تمثّله مفاهيم مثل الديانة اليهوديّة والأيديولوجيا اليهوديّة والثقافة اليهوديّة؟ وفي محاولة عتسمون الإجابة عن هذا التساؤل، يحلّل الخطاب السياسيّ والثقافيّ اليهوديّ العلمانيّ، الصهيونيّ والمناهض للصهيونيّة، كما يقرأ الموقف السياسيّ اليهوديّ إزاء التاريخ والزمان، ودور الهولوكوست وما يصفه بـ «ديانة الهولوكوست»، والأيديولوجيات المعادية لغير اليهود المتضمّنة في أشكال مختلفة من الخطاب السياسيّ اليهوديّ العلمانيّ، بل حتّى في اليسار اليهوديّ وجماعات الضغط اليهوديّة والتحشيد الصهيوني، وغيرها من القضايا ذات الصلة.

◆

يعدّ جلعاد عتسمون واحدًا من أبرز فنّاني الجاز في العالم، وهو ناقد للكيان الإسرائيليّ مثير للجدل، إذ تشكّل آراؤه وكتاباته موضع استقطاب بين مؤيّد ومعارض من منظّري اليمين واليسار على حدّ سواء. ولد عتسمون في تلّ أبيب، وخدم في الجيش الإسرائيليّ لبعض الوقت قبل أن تشهد حياته تحوّلاً فكريًا دراماتيكيًا، حيث هاجر واستقرّ في بريطانيا، مكرّسًا وقته للفنّ والكتابة، فاضحًا في كتاباته ممارسات الدولة العبريّة. بالنسبة لعتسمون، فإنّ خدمته الوجيزة في الجيش، إبّان العدوان الإسرائيليّ على لبنان في الثمانينات، شكّلت المنعطف الجذريّ في حياته؛ فهناك اكتشف، كما يقول، أنه كان جزءًا من دولة كولونياليّة تأسّست على النهب والسلب والتطهير العرقيّ للسكّان الأصليّين، أي الفلسطينيّين.

◆

ISBN 978-614-419-156-9
9 786144 191569

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة
صندوق منحة معرض الشارقة
الدولي للكتاب للترجمة والحقوق